
بول أوستر
ترجمة شارل شهوان
في بلاد الأشياء الأخيرة
Twitter: @alqareah
6.5.2016
رواية
دار الآداب

بول أوستر

في بلاد الأشياء الأخيرة

ترجمة شارل شهوان

دار الآداب - بيروت

في بلاد
الأشياء الأخيرة

الطبعة الأولى
١٩٩٣

* ـ (التّرجمة عن النّصّ الأميركي الأساسي).

الإهداء: «إلى سيري هو ستڤيث

عابراً بوّابة الأحلام منذ زمن ليس ببعيد، زرت إقليم الأرض ذاك حيث تمتدُّ مدينة الدَّمار الشهيرة.

ناثاييل هاوثورن


Twitter: @alqareah

كَتَبَتْ: هذه هي الأشياء الأخيرة. إنّها تتوارى الواحد تلو الآخر ولا تعود البتّة. في مقدوري إخبارك عن تلك التي شاهدتها، عن تلك الّتي انعدمت، ولكنّي أشكّ في أنّه سيكون لديَّ متّسعٌ من الوقت. تجري الأمور الآن بسرعة هائلة، وليس بوسعي مجاراتها.

لست أتوقّع منك أن تفهم. أنت لم ترَ شيئاً من هذا، وحتّى لو حاولت فإنّك لن تتمكّن من تخيّله. هذه هي الأشياء الأخيرة. ترى منزلاً في اليوم الأوّل، وفي اليوم التّالي يضمحلّ. شارعٌ كنت اجتزته البارحة ما عاد موجوداً اليوم. حتّى الطّقس في تحوّل متواصل. نهارٌ مشمسٌ يليه نهارٌ ماطر. نهارٌ مثلجٌ يتّبعه نهار ضبابيّ، حرّ ثمّ برودة، ريح ثمّ سكون، فترة صقيع مرير، وبعدها اليوم، وسط الشّتاء، بعد ظهيرة عطرة الضّوء، وحارّة إلى درجة أنّك تستطيع الاكتفاء بارتداء كنزة. حين تعيش في المدينة تتعلّم أن لا تسلّم جدلاً بمطلق شيء. أغلق عينيك لحظة، استدرْ لتنظر إلى شيء آخر، ويتوارى فجأة ما كان أمامك. لا شيء يدوم، هل تفهمني، ولا حتّى الأفكار في داخلك. وينبغي ألاّ تضيّع وقتك بحثاً عنها. حين يتوارى شيءٌ ما فهذا يعني نهاية الأمر. هكذا أعيش، تابعت رسالتها تقول، لا آكل كثيراً، فقط ما يكفي لأستطيع الخطو، لا أكثر. أحياناً يصبح وهني عظيماً، وأشعر بأنَّ خطوتي التّالية لن تكون أبداً. ولكنّي أتدبّر أمري.

على الرَّغم من السقطات أستمرّ. يجدر بك أن ترى كيف أنّي أتدبّر أمري بشكل ممتاز.

شوارع المدينة قائمة في كلِّ مكان، ولا يتشابه منها شارعان. أضع قدماً أمام الأخرى، ثمّ القدم الأخرى أمام الأولى وآمل بعدها أن أتمكَّن من القيام بذلك مجدَّداً. لا شيء أكثر من ذلك. يجب أن تفهم كيف هي الحال معي الآن. أتحرّك. أتنفّس ما يهبني إيّاه الهواء. آكل أقلّ ما في الوسع. لا يهمّ البتّة ما يقول الآخرون، الاعتبار الأوحد هو البقاء واقفاً على قدميك.

هل تذكر ما قلته لي قبل مغادرتي. وليام اختفى، قلت، ولن أعثر عليه أبداً مهما حاولت البحث، وبإصرار. هذه كانت كلماتك. ثمّ قلت لك إنّي لا آبه لما قلته، وأنّي سوف أجد شقيقي. بعدها ركبت تلك السفينة البغيضة وهجرتك. كم مضى على ذلك من الوقت؟ لم يعد بوسعي التذكّر. أعتقد، سنوات وسنوات. لكنّ هذا مجرَّد تخمين. ولا أتردّد بشأن هذا البتّة. لقد فقدت الأثر، ولا يمكن أبداً أن يعيدني أيّ شيء إلى السَّبيل القويم.

كلُّ هذا القدر أكيد. ولولا جوعي لما استطعت الاستمرار. يتوجّب عليك أن تعتاد العيش بأقلّ قدرٍ ممكن. حينما تتضاءل رغباتك تكتفي بالقليل، وكلّما قلّت حاجاتك أمسيت أفضل حالاً. هذا ما تفعله بك المدينة. إنّها تقلب أفكارك رأساً على عقب. تمنحك رغبة بالحياة وفي الآن عينه تجهد لسلبك إيّاها. لا مفرّ من هذا. إمّا أن تنجح، وإمّا فلا. وإن أفلحت فليس بوسعك الفلاح في المرّة التالية. وإن فشلت فلن تنجح بعدها أبداً.

لا أفقه تماماً لماذا أكتب لك الآن. بصراحة نادراً ما خطرتَ ببالي

منذ وصلت إلى هنا. ولكن فجأة بعد كلّ هذا الوقت، يخالجني أنَّ لديَّ ما أقوله، وإن لم أقم عاجلاً بكتابته فسينفجر رأسي. لا يهمّ إن قرأته. ولا يهمّ حتىًّ إن أرسلته ـ مفترضة أنّه يمكن القيام بذلك. ربّما خلاصة القول هذا أنّي أكتب لك لأنّك لا تعرف شيئاً، لأنّك بعيدٌ جدّاً عنّي ولا تعرف شيئاً.

كَتَبَتْ: هناك أناسٌ شديدو الهزال إلى درجة أنّهم يتطايرون في الرّيح. الرّياح في المدينة ضارية، تعصف من النّهر على الدّوام وتُنْشِدُ في أذنيك، تصدمك دوماً بعنفٍ في الوجه وعلى الظهر، وباستمرار تدوّم في سبيلك أوراقٌ وقذارة. ليس مشهداً غير معهود أن تشاهد أشدّ الأشخاص نحولاً يتجوّلون أزواجاً وثُلاثَ، وأحياناً عائلاتٍ بأكملها مُوثقةً معاً بحبال وسلاسل حديديّة، لموازنة بعضهم بعضاً بمواجهة العَصَفات. البعض الآخر يمتنع كلّيّاً عن محاولة الخروج متشبّثاً بالمداخل وفجوات الجدران ويخال حتّى السّماء الأشدّ صفاء تهديداً. إنّهم يفكّرون أنّه من الأفضل الانتظار بسكونٍ في زواياهم، بدل التحطّم على الحجارة. يُعْقَلُ أيضاً أن تصير بارعاً في الامتناع عن الطعام، وفي الواقع يمكنك أن لا تأكل أيّ شيء على الإطلاق.

إنّ الأمر أشدّ سوءاً حتّى بالنّسبة للّذين يقاومون جوعهم. التّفكير كثيراً بالطّعام يمكن أنّ يؤدّي فقط إلى المتاعب. هنالك أولئك المهووسون بهذه الفكرة، وهم يرفضون الاستسلام للوقائع. يجوسون الشّوارع طوال السّاعات بحثاً عن كسرات، ينغمسون في مجازفات هائلة سعياً وراء أحقر الفتات. ومهما أصابوا من فلاحٍ في سعيهم فلن يكون أبداً كافياً. يأكلون من غير أنّ ينجحوا أبداً في ملء

أجوافهم، يمزّقون طعامهم باندفاعٍ حيوانيّ، يُنْشِبون فيه أصابعهم العظميّة، ولا تنغلق أفكاكهم المرتعشةُ بتاتاً.

يسيل معظم ما يأكلون على ذقونهم، وما يوفّقون في ابتلاعه يتقيّأونه عموماً بعد بضع دقائق. إنّه موتٌ بطيء، كما لو أنّ الطّعام نار، جنون، يحرقهم من الأحشاء. يعتقدون أنّهم يأكلون ليبقوا على قيد الحياة، ولكنّهم، في النهاية، هم الملتَهَمون.

ويتّضح أخيراً أنّ الطّعام مسألة معقّدة، وإن لم تتأقّلم مع فكرة القبول بما يعطى لك فلن تشعر البتّة بسلامٍ مع ذاتك. النقصان حالة متكرّرة الحدوث، والطّعام الذي وهبكَ بهجة في أحد الأيّام سيتوارى بأفضل احتمالٍ في اليوم التالي. المتاجر البلديّة قد تكون هي الأكثر أماناً، ولعلّها أفضل الأماكن للتّبضّع، غير أنّ الأسعار فيها مرتفعة، واختيار البضاعة رديء. ففي يومٍ لا تجد سوى الفجل، وفي يومٍ آخر لا شيء غير كعكات شوكولا رديئة. وأن تبدّل غذاء حميتك غالباً على هذا النّحو، وبمثل هذا التطرّف، فأمرٌ يمكن أنّ يضرّ المعدة بشكلٍ مريع. غير أنّ أهمّ ما تمتاز به المتاجر البلديّة هو أنّ الشرطة تحرسها، وأنّك توقن على الأقلّ أنّ ما تبتاعه سينتهي في معدتك لا في معدة شخصٍ آخر. سرقة الطعام أمرٌ مألوفٌ جدّاً في الشّوارع إلى درجة أنّها لم تعد تعتبر جريمة. وفوق كلٍّ هذا فإنّ المتاجر البلديّة هي الأمكنة الوحيدة المجازة قانونيّاً في اعتماد استمارات لتوزيع المواد الغذائيّة. هناك كثيرٌ من المتاجر الخاصّة الّتي تبيع المواد الغذائيّة في المدينة، لكنّ بضاعتها يمكن أن تصادر في أيّ وقت. حتّى أولئك الّذين يستطيعون تحمُّل دفع الرشوة الضروريّة لرجال الشّرطة لكي يتمكّنوا من متابعة أعمالهم، يبقى أمامهم مواجهة التّهديد الدّائم

لغارات اللّصوص. يطارد اللّصوص أيضاً زبائن المتاجر الخاصّة، وقد ثبت بنتيجة الإحصاءات أنّ واحداً من بين كلّ مشتريَيْن يتعرّض للسّرقة. ولا يستحقّ الأمر في اعتقادي كلّ هذا العناء، أن تجازف إلى هذا القدر من أجل متعةٍ زائلةٍ في برتقالة أو طعم لحم مطبوخ لفخذ خنزير. لكنّ النّاس نهمون، فالجوع لعنة يوميّة، والمعدة حفرة معدومة القعر، ثقب بحجم الكون. وهكذا، وعلى الرّغم من كلّ العوائق، تقوم المتاجر الخاصّة بتجارة مربحة، مكتسبةً من مكان ومنتقلةً إلى آخر، دائمةَ التّرحال، تظهر لساعة أو اثنتين في مكانٍ ما ثمّ تتوارى عن الأنظار. كلمة تحذير على أيّة حال. إن اضّطررت إلى ابتياع طعامك من المتاجر الخاصّة، فاسعَ جاهداً أنّ تتحاشى البقّالين الذين لا يَرْعَوْن ذِمَّة، لأنّ الغشّ مُتَفَشٍّ، وهناك أناس على استعدادٍ لبيع أيّ شيء لمجرَّد الكَسْب. بيض وبرتقال محشو بالنّشارة، قناني مملوءة بالبول على أنّه جِعة. لا، ليس ثمّة ما لا يمكن أن يفعله النّاس، وكلّما أبكرت في تلقّن ذلك، قُدِّر لك أن تستمرّ بشكلٍ أفضل.

وتابعت: حين تجول عبر الشوارع، يجدر بك أن تتذكّر التقدّم خطوةً خطوة. وإلّا أضحى سقوطك حتميّاً. يتوجّب أن تكون عيناك مفتوحتيْن باستمرار وأن تُحدِّق إلى الأعلى، إلى الأسفل، إلى الأمام، إلى الخلف، مراقباً الأجساد الأخرى، على حذرٍ من اللّامتوقّع. يمكن أنّ يُمسي اصطدامك بأحدهم أمراً مهلكاً. يصطدم شخصان ويبدآن بالتلاكم بقبضاتهما. أو يحدث أن يسقطا على الأرض ولا يحاولان النّهوض. وعاجلاً أو آجلاً تمرّ بك لحظةٌ لا تحاول فيها النّهوض أبداً. الأجساد تتألّم، أتفهم، وما من شفاءٍ لذلك. وهو أشدُّ رعباً هنا منه في أيِّ مكان آخر.

الدُّبْش مشكلة خاصّة. ينبغي أن تتعلَّم تدبّر أمرك مع الأخاديد غير المرئيّة، مجموعات الصخور المباغتة، القنوات العميقة، كي لا تتعثّر وتتأذّى. وهناك بعدها الجِزْيات، وهذه أسوأ من كلّ ما سبق. ينبغي أن تستخذم الحذاقة لتتحاشاها. فأينما انهارت أبنية أو تراكمت نفايات اعترضت المتاريس الهائلة وسط الشارع قاطعةً كلّ عبور. ويبني رجالٌ هذه العوائق كلّما توافرت المواد، ثمَّ يتسلَّقونها مدجّجين بهراوات، أو بنادق، أو أحجار طوب، وينتظرون فوق مجاثمهم عبور النَّاس. إنّهم يسيطرون على الشّارع. وإن أردت العبور يتوجَّب عليك أن تعطي الحرس جميع ما يريدون. وقد يكون أحياناً مالاً، وفي أحيانٍ أخرى طعاماً، وفي مرَّات الجنس. والضّرب أمرٌ اعتياديّ، وتسمع بين حينٍ وآخر بارتكاب جرائم.

ترتفع عوائق جِزْيات جديدة، وتختفي العوائق القديمة. ليس بوسعكَ أنّ تحزر قطّ أيّ طريق تسلك، وأيّ طريق تحاذر. وشيئاً فشيئاً تسلبك المدينة يقينك. ولا يمكن أن يوجد أبداً معبرٌ ثابت، وفي مقدورك أن تبقى فقط على قيد الحياة إذا لم تشعر بإلحاح الحاجة إلى أيّ شيء. ومن غير إنذارٍ يجدر بك أنّ تكون قابلاً للتّغيير، أنّ تقطع للتوّ ما تقوم به، أنّ تنقضه. وفي النهاية فإنّه ليس هناك ما هو غير متعلّق بالوضع. وبسبب هذا عليك أن تتعلّم كيفيّة قراءة شارات السّير. وعندما تزوغ العينان، يفي الأنف أحياناً بالغرض. لقد أضحت حاسّة الشّمِّ لديّ حادّة بشكلٍ غير طبيعيّ. وعلى الرّغم من العوارض الجانبيّة، مثل الغثيان والدُّوار والخوف النَّاجم عن الهواء النَّتن الذي يجتاح جسمي ـ فإنّها تحميني وأنا أسلك المنعطفات، وهذه قد تكون أخطر ما يمكن. ذلك أنّ للعوائق نتانة مميّزة تتعلّم أن تعرفها حتّى من مسافة هائلة. فبالإضافة إلى كونها مؤلّفة من الحجارة

والأسمنت والخشب، فإنّ المتاريس تحوي أيضاً نفايات ورقاقات جصّ، ثمّ تُخَمِّر أشعّة الشّمس هذه النِّفايات لتصدر رائحة كريهة أشدّ حدّة منها في أيّ مكان آخر، ثمَّ يعالج المطر الجصّ، يقرّحه ويذيبه، لتفوح أيضاً رائحته الخاصّة، وحين تمتزج الرائحتان متفاعلتيْن في نوبات الجفاف والرّطوبة المتعاقبتين، يبدأ تبرعم رائحة المتراس. الأمر الأساسيّ هو أن لا تعتاد أيّ شيء، لأنّ العادات مهلكة. حتّى لو كانت للمرّة المئة يجب أن تواجه أيّ شيء وكأنَّما لم تعرفه البتّة من قبل. لا يهمّ كم من المرّات، ينبغي أن تكون على الدوام المرّة الأولى. هذا مضارعٌ للمستحيل، أعرف تماماً، ولكنَّه القانون المطلق.

يمكن أن نظنّ أنّ كلّ هذا سوف ينتهي عاجلاً أو آجلاً. الأشياء تتداعى وتضمحلّ، ولا يُصْنَع أيّ جديد. الناس يموتون ويرفض الأطفال أن يولدوا. طوال كلّ السنوات التي قضيتها هنا، لا أستطيع أن أتذكّر أنّي رأيت مولوداً واحداً. ومع ذلك هنالك دوماً أناس جدد ليحلّوا محلّ أولئك الّذين اضمحلّوا. إنَّهم يتدفّقون من الرّيف ومن البلدات النّائية مجرجرين عربات محمَّلة عالياً بمقتنياتهم، داخلين مفرقعين في سيّارات محطَّمة، كلّهم جياع، كلّهم مشرّدون. وإلى أن يتعلّموا طرائق المدينة فإنَّ هؤلاء القادمين الجدد ضحايا سهلة بامتياز. عدد كبير منهم تسلب منه دراهمه بالخداع قبل نهاية اليوم الأوّل. بعضهم يدفع أجراً لشقّةٍ لا وجود لها، آخرون يُغْوَوْن لدفع سمسرةٍ مقابل وعود بوظائف لا تتحقّق إطلاقاً، كذلك يُقدِّم آخرون مدّخراتهم لابتياع طعام يظهر في النهاية أنّه مجرّد كرتون مطليّ. وليست هذه سوى أكثر أنواع الخدع شيوعاً. أعرف رجلاً يكسب رزقه بالوقوف أمام مبنى البلديّة القديم ليطالب بأجرٍ كلّما قام

أحد القادمين الجدد بالنّظر إلى ساعة البرج. وإنْ حصل جدال قام مساعده الذي يستوضع مثل نمرٍ، بالتّظاهر بتأدية شعائر النّظر إلى السّاعة والدّفع، كي يعتقد الغريب أنّ هذه ممارسة عاديّة. ليس وجود المحتالين بالأمر المذهل، بل المذهل هو السهولة الخارقة الّتي يتمكّنون بها من جعل النّاس يتخلّون عن دراهمهم.

في ما يختصّ بأولئك الّذين يملكون مسكناً فإنّ خطر فقدانه قائم أبداً. معظم العمارات لا يملكها أحد، ولهذا لا حقوق لك كمستأجر. لا عقد إيجار، ولا إثبات قانونيّاً تستند إليه إن واجهتك أيّة مشاكل. ليس أمراً غير شائع أن يطرد النّاس بالقوّة من شققهم ويقذف بهم إلى الشارع. تقتحم شقّتك مجموعة مدجّجة بالبنادق والهراوات ويأمرونك بالمغادرة، وباستثناء أن يخطر لك أنّ بوسعك التغلّب عليهم، فأيّ خيار آخر لديك؟. هذه الممارسة تدعى الاقتحام، ويندر بين أهل المدينة من لم يخسر منزله بهذه الطريقة في وقت أو في آخر. ولكنّ حتّى لو كنت محظوظاً كفاية لتفلت من هذا الشّكل من الإخلاء، فليس بوسعك أن تحزر البتّة إن كنت ستقع فريسة أحد الملاّكين الأشباح. هؤلاء مبتزّون يروّعون تقريباً كلّ أنحاء المدينة، مُرْغِمين الناس على دفع خوّة فقط ليتمكّنوا من البقاء في شققهم. يعلنون أنّهم ملاّكو العمارة، يحتالون على الساكنين، ولا يلقون أيّة مقاومة تقريباً.

من جانب آخر، وبالنّسبة لأولئك الّذين لا يملكون مسكناً، فإنّ الوضع يتعدّى الإرجاء. فليس هناك ما يسمّى بالغرفة أو الشّقة الشّاغرة، ولكن على الرّغم من ذلك فإنّ وكالات التّأجير تسيّر أعمالها. ينشرون كلّ يوم إعلانات في الجريدة عن شققٍ وهميّةٍ بهدف

جذب الناس إلى مكـاتبهم والقيام بقبض جُعْـل منهم. ولم تعد هـذه المـمارسة تخـدع أحداً، إلاّ أنّ عـدداً كبيـراً من النّـاس عـلى استعـداد لإغراق آخر فلسٍ لديهم داخل هـذه الوعـود الفارغـة. فهم يصلون إلى مداخل هذه المكاتب باكراً في الصّباح وينتظرون بصـبر مصطفّـين لساعات أحيـاناً، ليتمكّنـوا فقط من الجلوس مع المـوظّف عشر دقائق ومشـاهدة صـور فوتـوغرافيّـة لأبنيةٍ في شـوارع مرصـوفة بـالأشجار، ولغرفٍ مريحة، لشققٍ مفروشةٍ بالسّجاد وبمقاعد جلديّة ناعمة ـ مناظر رغـدة تستحضر انبعـاث رائحـة القهـوة من المـطبـخ، وبخــار حمّـام ساخن، والألوان الزاهية لنبتات في قدورهـا مستكينة عـلى الأسكفة. ولا يبدو أنّ أحداً يأبه لواقع أنّ هذه الصور ملتقطة منذ أكثر من عشر سنوات خلت.

بعضنـا أضحى مجـدّداً كـالأطفـال. ولا يعني هـــذا أنّنـا نجهــد، أتفهمني، أو أنّ أيّ واحـد منّا يعي حقيقـة هـذا الأمـر. ولكن حـين يضمحلّ الأمل، وحين تكتشف أنّك كففت حتّى عن الأمـل باحتـمال الأمل، فإنك تسعى عندئذٍ لملْ الفراغات الشاغرة بالأحلام. خـواطر قليلة طفوليّة وحكايات لتبقى مستمرّاً. حتّى أشدّ الناس قسوة يجـدون صعوبة في ردع أنفسهم. من غير جلبة أو مقدّمة يقطعون ما يفعلون، يجلسون، ويتحدّثـون عن الرّغبـات الّتي كانت تنبجس في دواخلهم. الطّعام هو، بالطّبع، أحد المواضيع المفضّلة. وغالباً ما تسمع مجموعة من النّـاس تصف وجبة طعـام بتفصيـلٍ شـديـد، بـادئـةً بـالحسـاء والمشهيّات ومتابعةً ببطء إلى العُقْبة، ممعنةً في كلّ مذاق وتابل، في كلّ النّكهات والطّعوم، مركّزةً بعدها على طريقة التحضير آناً، وحيناً على تأثير الطّعام نفسه، مُنْذُ وَخـزِ الطّعم الأوّل عـلى اللّسان إلى الانتشـار التّدريجي لشعور الاطمئنان فيما يهبط الطعام مسافراً عـبر الحلق ليصل

إلى المعدة. وهذه الحوارات تدوم أحياناً ساعات، وتجري حسب بروتوكولٍ شديد الصرامة. فمثلاً، يجب أن لا تضحك أبداً، ويجدر بك أن لا تسمح قطّ لجوعك أن يسيطر عليك. لا جَيَشَان عاطفيّاً، ولا تنهّدات غير متعمّدة. إنّ هذا يؤدّي إلى الدّموع. ولا شيء يفسد حواراً في الطّعام أكثر منّ الدّمع. وللحصول على أفضل النّتائج ينبغي أن تفسح لعقلك للوثوب إلى الكلمات الآتية من أفواه الآخرين. وإذا قُدِّر للكلمات استغراق انتباهك كلّياً فسوف تستطيع نسيان جوعك الحاضر وتلج ما يدعوه الناس «حلبة الهالة المغذّية». وهنالك حتّى أولئك الّذين يقولون إنَّ في أحاديث الطعام هذه قيمة غذائيّة، إذا أعطيت التركيز المناسب، ورغبة مساوية في الإيمان بالكلمات الّتي يتلفّظ بها المشاركون.

كلّ هذا ينتمي إلى لغة الأشباح. وثمّة أنواع كثيرة محتملة للحديث بواسطة هذه اللّغة. معظمها يبدأ حين يقول شخص لآخر «أتمنّى». وما يأملون به يمكن أن يكون أيّ شيء مادام أمراً ممتنع الحدوث. أتمنّى أن لا تغيب الشّمس أبداً. أتمنّى أن تنبت دراهم في جيوبي. أتمنّى أن تصير المدينة كما كانت في الأيّام الغابرة. أنت تفهم ما أعني. أشياء عبثيّة وصبيانيّة فاقدة المعنى وغير حقيقيّة. عموماً يتمسّك النّاس بالاعتقاد القائل إنّه مهما كانت الأمور سيّئة في الأمس فإنّها كانت أفضل ممّا هي اليوم. وما كانت عليه منذ يومين أفضل ممّا كان البارحة. فكلّما عدت أكثر إلى الوراء ازداد العالم جمالاً وزادت الرغبة فيه. وتنتزع نفسك من النّوم كلّ صباح لتواجه شيئاً ما يكون على الدوام أسوأ ممّا واجهت في اليوم السابق، ولكنّك إذ كنت قد تحدّثت قبل ذهابك للنّوم عن العالم الذي كان موجوداً قبلاً، فإنّه يمكنك أن تضلّل ذاتك عبر التّفكير بأنّ اليوم الحاضر هو ببساطة مجرّد ظهور لا

أكثر ولا أقلّ حقيقة من ذكريات كلّ الأيّام الأخرى الّتي تحملها في داخلك.

أفهم لماذا يمارس النّاس هذه اللّعبة، ولكنّي شخصيّاً لا أستسيغها. أرفض أن أتكلّم لغة الأشباح. وكلّما سمعت آخرين يتحدّثونها أبتعد، أو أضع يديّ فوق أذنيّ. أجل، لقد تبدلّت الأمور بالنّسبة إليّ. أنت تذكر الفتاة الصغيرة اللّعوب التي كنتها. لم يكن بوسعك الاكتفاء البتّة من قصصي، من العوالم الّتي كنت أبتكرها لنا لنلعب داخلها. قصر اللاّعودة، بقاع الحزن، غابة الكلمات المنسيّة. هل تذكرها؟. آه كم كنت أعشق أن أخبرك أكاذيب، أن أحتال عليك لتصدّق قصصي، وأن أشاهد وجهك وهو يتحوّل إلى الجدّيّة فيما أنا أقودك من منظرٍ ناءٍ إلى آخر. ثمّ كنت أقول لك إنّها كلّها مُخْتَرَعة، وكنت تبدأ بالبكاء. أظن أنّي عشقت دموعك تلك بقدر ما عشقت ابتسامتك. أجل، ربّما كنت شرّيرة بعض الشيء، حتّى في الأيّام تلك، مرتدية الأثواب الصّغيرة الّتي كانت تلبسني إيّاها أمّي، بركبتيّ القاسيتين الجرباوين، وفَرْجي الطفوليّ الصغير الأجرد. ولكنّك كنت تعشقني أليس كذلك؟ عشقتني حتّى غدوت مجنوناً بذلك.

أضحيت الآن سليمة الفطرة ومنغمسة حتّى الأذنين في الحسابات. لا أريد أن أكون مثل الآخرين. أرى ما تفعله بهم تخيّلاتهم ولن أدع ذلك يحصل لي. الأناس الشجيّون يموتون دائماً في نومهم. يجولون لشهرٍ أو اثنين وفي وجوههم ابتسامة غريبة، فيما يحلّق حولهم وهج آخَرِيّة عجيب، كما لو أنّهم قد بدأوا مذاك يختفون. علامات ذلك لا يمكن أن تخطئ، وحتّى الشّارات الأوّليّة الخفيّة. تورّد الوجنتين

الضئيل، تضخُّم العينين المباغت إلى حجم أكبر من العاديّ، تثاقل القدمين الخدر، والرائحة الكريهة المنبعثة من أسفل الجسم. ولعلّها بمطلق الأحوال ميتة هانئة. أوّد أن أسلّم لهم بذلك. في بعض الأوقات حسدتهم تقريباً. ولكن في النهاية لا يمكنني أن أسمح لنفسي بالانزلاق. لن أسمح بذلك. سوف أقاوم أطول مدّة ممكنة، حتّى لو قتلني ذلك.

إنّ بعض الميتات الأخرى أشدّ مأساويّة. فهنالك مثلاً العدّاؤون، وهم فرقةٌ من النّاس تركض عبر الشّوارع بأسرع ما في وسعها، ضاربةً بأذرعها بعيداً حولها، لاكمةً الهواء زاعقةً بأقصى ما تلفظه الرئتان. هؤلاء يسافرون في معظم الأحايين جماعات، ستّة، عشرة، وحتّى عشرين ينقضون معاً على الشارع، ولا يتوقّفون لأيّ شيءٍ يعترض سبيلهم، يركضون ويركضون إلى أنّ يسقطوا من الإعياء. المقصود هو الموت بأسرع وقتٍ ممكن، أن تجهد نفسك بقسوة بالغة إلى درجة لا يتحمّلها القلب. يقول العدّاؤون أنْ لا أحد يمتلك الشّجاعة للقيام بذلك بمفرده. في العدو معاً يندفع كلّ عضو من المجموعة مُستَحَثّاً من الآخرين، تُشجّعه الصرخات، مجلوداً إلى سُعْر احتمال معاقبة الذّات. تلك هي السّخرية. من أجل أن تقتل نفسك بالرّكض، عليك أوّلاً أن تتمرّن لتصبح عدّاءً جيِّداً. وإلاّ فلن تمتلك الطّاقة لتندفع بعيداً بما فيه الكفاية. وهكذا يكابد العدّاؤون تحضيرات شاقّة لمواجهة قدرهم، وإن حدث أن سقطوا في الطّريق إلى ذلك المصير المنشود، فإنّهم يعرفون كيف ينهضون على الفور ويتابعون. أظنُّ أنّ هذا نوعٌ من الديانة. هناك عدّة مكاتب داخل المدينة ـ واحد لكلّ من مناطق إحصاء السكّان الرسمي التسع ـ

ولأجل الانضمام إليهم، يتوجّب أنّ تخضع لسلسلةٍ من الطّقوس الصعبة وهي: إمساك تنفُّسك تحت الماء، الصَّوم، وضع يدك في لهب شمعة، عدم التحدُّث مع أيّ كان لمدة سبعة أيَّام. وما إن تُقْبَل حتّى يتوجّب عليك أن تخضع لقوانين المجموعة. وهذا يتضمَّن سكناً مشتركاً لمدّة تراوح بين ستّة أشهر واثني عشر شهراً، ونظاماً صارماً من التّمارين والتّدريب، وانخفاضاً تدريجيّاً في استهلاك الطّعام. وفي الوقت الّذي يصبح فيه العضو مستعدّاً للقيام بركضة موته، يكون قد أدرك في وقت واحد ذروة القوّة وذروة الضعف. إنّ في مقدوره نظرياً أن يعدو إلى الأبد، وفي الوقت عينه يكون جسمه قد استهلك كلّ موارده.

إنّ هذه المعادلة تصنع النتيجة المرتجاة. تخرج مع رفاقك في صباحِ اليوم المحدّد وتعدو إلى أن تفلت من جسمك، تركض صارخاً حتى تطير من ذاتك. في آخر الأمر تتملّص روحك حرّة ويرتمي جسدك على الأرض، وتموت ويعلن العدّاؤون أنّ نسبة نجاح طريقتهم تتجاوز إلى تسعين في المئة احتمال الفشل ـ وهذا يعني أنّ لا أحد تقريباً اضطرَّ إلى القيام بركضة موتٍ ثانية.

الميتات المتوحّدة هي الأكثر شيوعاً. ولكن هذه أيضاً تحوّلت إلى نوع من الشّعائريّة الشّعبيّة. يتسلّق النّاس أكثر الأمكنة ارتفاعاً لا لسبب غير القفز. إنَّها تدعى الوثبة الأخيرة، وأعترف أنّ ثمّة شيئاً ما مثيراً في مشاهدة واحدة منها، شيئاً كأنّه يشرّع عالماً جديداً متكاملاً من الحرّيّة في داخلك: لكيّ ترى الجسد متوازناً عند حافّة السقف، وبعدها، دائماً لحظة التردّد الطفيفة، وكأنَّما من رغبة بالاستمتاع بتلك اللَّحظات الأخيرة، وبمنظر حياتك المحتشدة في حلقك، وبعدها من

غير توقُّع (لأنَّه ليس بوسعك التأكّد بتاتاً ممّا قد يحدث)، يندفع الجسم عبر الهواء وينهمر طائراً إلى الشّارع. لسوف تذهلك حماسة الحشود، وأن تسمع هتافهم المسعور، وأن ترى حماستهم. لكأنّما كان عنف المشهد وروعته ينتزعانهم من ذواتهم، يجعلانهم ينسون تفاهة حياتهم الخاصّة. الوثبة الأخيرة أمرٌ يستطيع الجميع تفهّمه، ويتطابق مع شوق الجميع الداخليّ: في الموت بلمحة بصر تمحو ذاتك في لحظة واحدة ضئيلة ورائعة. يخامرني أحياناً أنّ الموت هو الشيء الوحيد الّذي لا يعتمل فينا تجاهه أيّ شعور. إنّه صورة فنّنا، السبيل الوحيد لنستطيع التعبير.

إلا أنّ هنالك بيننا أولئك الّذين ينجحون في البقاء على قيد الحياة. لأنّ الموت أيضاً أضحى مصدر حياة. وإذ يفكّر عددٌ كبيرٌ من النّاس بطرق لوضع حدٍّ للأمور، ويستغرقون في التّأمُّل لاستنباط أساليب شتّى لمغادرة هذا العالم، يمكنك أنّ تتخيّل الفرص المتاحة لتحقيق كسبٍ ماديّ. في مقدور شخصٍ ذكيٍّ أن يعيش بطريقةٍ ممتازةٍ على حساب موت الآخرين. وذلك لأنّ جرأة العدّائين أو القافزين لا يملكها الجميع، وكثيرون هم الّذين بحاجة إلى المساعدة للوصول إلى قرارهم. القدرة على دفع بدلٍ عن هذه الخدمات تكون بطبيعة الحال سلفاً، ولهذا لا يستطيع تأمينه سوى قلّة من النّاس، أي أكثرهم ثراء. لكنّ الأعمال على الرّغم من هذا ناشطة جدّاً، وخصوصاً في «عيادات القتْل الرحيم». وتحدث هذه بأشكال كثيرة التنوّع والاختلاف، وتتوقّف على كمّيّة المال الذي تنوي إنفاقه. العرض الأسهل والأبخس لا يستوجب أكثر من ساعة أو اثنتين ويعلن عنه بأنّه «رحلة العودة». توقٍّع في العيادة، تدفع لبطاقتك في

المكتب، ثمّ يأخذونك إلى غرفة صغيرة خاصّة فيها سرير حديث الترتيب. يدخلك مرافق ويعطيك حقنة، وبعدها تنجرف من غير هدى إلى النّوم ولا تستيقظ أبداً. ما يلي على قائمة الأسعار هي رحلة العجائب، وتدوم عموماً بين يوم وثلاثة. وهي تتألّف من سلسلة من الحُقَن، تباعد بينها فترات منتظمة، الأمر الّذي يمنح الزبون شعوراً نشِطاً بالتراخي والحبور، قبيل إعطائه الحقنة الأخيرة القاتلة. ثمّ هنالك رحلة الملذّات الّتي يمكن أنّ تستمرّ طويلاً ولمدى أسبوعين. يستضاف الزبائن إلى حياة ثراء، وتُقدَّم إليهم ضروبٌ من الرفاهية تضاهي أبّهة الفنادق القديمة المترفة. ثمّة وجبات متقنة، خمور، تسلية، وحتّى بيت دعارة يلبّي رغبات الرِّجال والنِّساء على حدٍّ سواء. وهذا يكلّف مبلغاً كبيراً من المال، إلاّ أنّ فرصة العيش عيشاً رغيداً، ولو لفترة قصيرة، هي بالنسبة لبعض الأشخاص، إغراءٌ لا يُقاوَم.

ليست «عيادات القتل الرَّحيم» على أيّة حال السبيل الأوحد لابتياع موتك. فهناك أيضاً «نوادي الاغتيال»، وهذه تتفاقم شعبيّتها حاليّاً. يقوم شخصٌ راغبٌ بالموت ولكنْ به فزع من تنفيذ رغبته بمفرده، بالانضمام إلى «نادي الاغتيال» في منطقته السكنيّة مقابل رسمٍ متواضعٍ نسبيّاً. ويعيّن قاتلٌ لمهمَّة قتله. ولا يُطْلَعُ الزبون على أيّ شيء بشأن التّرتيبات، ويبقى كلُّ ما يتعلّق بمقتله سرّاً ابتداء من الموعد والمكان والأسلوب المستخدم، وانتهاءً بهويّة القاتل. وبمعنىً من المعاني فإنّه يمكن القول إنّ الحياة تستمرّ كما كانت على الدّوام. يظلّ الموت في الأفق، يقيناً مطلقاً ولكنْ غامضاً في ما يختصّ بهيئته المحدّدة. فبدلاً من الشيخوخة والمرض والحوادث يُتاح لعضوٍ في

«نـادي الاغتيال» أن يتـطلّع إلى ميتة سريعـة وعنيفة في المستقبـل غير البعيد. رصاصةٌ في الدِّماغ، خنجرٌ في الـظّهر، يـدان حول العنق في منتصف اللّيـل. يبدو لي أنّ الـوقع المقصـود من كلٍّ هـذا هـو جعـل الواحد أشدّ حذراً. يتوقّف الموت عن أن يكـون لا شيء سوى فكـرةٍ مجرّدة. ويمسي احتمالاً حقيقيّاً وهاجس كلّ هُنَيْهة من هُنَيْهات الحياة. وبدل الاستسلام ببـلادة للمحتوم، يسعى أولئـك المعيَّنون للقتـل إلى أن يصبحـوا أشدّ يقـظة، وأكثر نشـاطـاً في تحـرُّكـاتهم وامتـلاءً بحسٍّ الحياة ـ كما لو أنّهم تبدّلوا بفعلِ فَهْمٍ جديدٍ لـلأمور. فكثـيرون منهم يرتدّون ويُؤْثرون الحياة مجدّداً. ولكن هذه مسألة معقّـدة. لأنّه مـا إن تنضمّ إلى «نادي الاغتيال» حتّى يصبح غير مسمـوح لك أن تغـادره. وإن قُدِّر لكَ من جهة أخرى قَتْلُ قاتلك أمكن إعفاؤك من التزامـك ـ وإن شئت أمكن استخدامك أنت نفسـك كقاتـل. هذه هي خـطورة وظيفة القاتل ولهذا السبب بالذات يكـون أجرهـا مرتفعـاً. ونادراً مـا يُقْتَلَ قاتل، لأنّه بالضّرورة أكثر خبرة من الضحيّة المقصـودة، بيد أنّ هذا يحدث أحياناً. بين الفقراء، وخصوصاً الشبّان، إذ يقوم كثـيرون بالادّخار على مدى أشهر، وحتّى سنوات، للتمكّن فقط من الانضـمام إلى «نـادي الاغتيـال». والهـدف هـو أن يُستخـدمـوا كقتلة ـ وهكـذا يـرتفعون إلى مستـوى حياة أفضـل. وقلّة هم الّذين نجحـوا بـذلـك عمـوماً. ولـو حكيت لك قصص هؤلاء الفتيـان لَمَا استـطعت النّـوم طوال أسبوع.

كلّ هذا يُفضي إلى عددٍ كبيرٍ من المشـاكل العمليّـة. مسألـة الجثث عـلى سبيل المثـال. النّاس لا يمـوتون هنـا كما كـان يحصل في المـاضي لافـظين أنفـاسهم الأخـيرة بسكـونٍ في أسرّتهم، أو في جنـاح بهـو مستشفى نظيف ـ إنّهم يموتون أينما اتّفق أن وُجـدوا، وهذا يعني عـلى

الأغلب في الشّارع. ولست أتحدّث فقط عن العدّائين، والواثبين، وأعضاء نوادي الاغتيال (لأنّهم لا يشكّلون سوى جزءٍ ضئيل)، بل عن أجزاء ضخمة من عدد السكّان. نصف عدد السكّان بالتّمام مشرّدون، وليس لديهم إطلاقاً أيّ مكان يقصدونه. وهكذا تجد الأجساد الميتة كيفما التفتّ ـ على الأرصفة وأمام الأبواب وفي الشارع بالذات. لا تسألني أن أخبرك التّفاصيل. يكفي بالنّسبة إليّ أنّ أقوله، وإنّه لعمري أكثر من كافٍ. لا أهميّة لِما قد يخطر لك، فالمعضلة الأساسيّة ليست البتّة أزمة الشّفقة. لا شيء ينكسر هنا بسرعة تفوق انكسار القلب.

معظم الجثث عارية. يطوف كنّاسو الشّوارع طوال الأوقات، وسرعان ما يجرِّدُ الشّخص الميّت من مقتنياته. وما يسلب أولاً هو الأحذية، لأنّ الطّلب على هذه مرتفع، ويصعب العثور عليها. ويجذب الانتباه في الدرجة الثّانية الجيوب، ولكنّ كل ما هنالك يكون عادةً تالياً للأحذية. الملابس ومطلق ما تحتويه. يحضر أخيراً رجال مع كمّاشات وأزاميل، وينتزعون الأسنان الفضّيّة والذهبيّة من الفم. ولأنّه لا مناص من حصول هذا فإنّ عدداً كبيراً من العائلات تعمل على تجريد موتاها غير راغبة بتركهم فريسة للغرباء. وفي بعض الحالات يفعلون ذلك رغبة منهم في حفظ كرامة أعزّائهم، وفي حالات أخرى تكون ببساطة مسألة أنانيّة. لكنّ هذه ربّما كانت نقطة دقيقة جدّاً. فإذا كان ذهب ضرس زوجك يمكن أنّ يَقُوتك لمدّة شهر، فمن ذا الّذي سيقول إنّ انتزاعه فعلة شنيعة؟ هذا النّوع من التّصرُّف شائنٌ ومنافٍ للطّبع السّليم، أعرف هذا، ولكنْ إنْ كنت ترغب في البقاء هنا، فيُفترض فيك أن تكون قادراً على تناسي مسألة المبادئ.

كلّ صباح تبعث المدينة شاحنات لالتقاط الجثث. هذه هي وظيفة الحكومة الرئيسيّة، والأموال المنفقة على هذا هي أكثر منها على أيّ أمر آخر. محارق الجثث تكتنف كافّة أطراف المدينة ـ وهي ما يسمّى بمراكز التحوّل ـ وفي وسعك ليلاً ونهاراً مشاهدة الدخان المرتفع إلى السماء. ولكن كون الطرقات الآن في حالة مزرية، وقد تدنّى بعضها إلى مجرّد دبش، فهذه المهمّة تصبح أكثر صعوبة يوماً بعد يوم. يُجْبَر الرِّجال على إيقاف الشّاحنات والخروج طائفين على أقدامهم، وهذا يبطِّئ العمل إلى حدٍّ بعيد. وعلاوة على ذلك هناك الأعطال الميكانيكيّة المتكرِّرة للشّاحنات، والهيجانات العرضيّة للمتفرِّجين. إنّ رمي الحجارة على عمّال شاحنات الموت عملٌ شائعٌ بين المشرّدين. ومع أنّ العمّال مسلّحون ومعروف عنهم تصويب بنادقهم الرشّاشة نحو الحشود، فإنّ بعض رماة الحجارة بارعون جدّاً في الاختباء، وغالباً ما تنجح تكتيكاتهم في الكرّ والفرّ في إيقاف عمل التجميع نهائيّاً. ليس هناك أيّ حافز منطقيّ وراء هذه الهجمات. إنّها ناجمة عموماً عن الغضب والامتعاض والضّجر؛ ولأنّ عمّال التّجميع هم رسميّو المدينة الوحيدون الّذين يظهرون أبداً في الجوار، ويشكّلون بالتّأكيد أهدافاً ملائمة فإنّ في وسع المرء القول إنّ الحجارة تمثّل اشمئزاز النّاس من الحكومة التي لا تقدّم لهم أيّة خدمة إلى أنّ يقضوا. لكن هذا غَوْصٌ عميقٌ في الموضوع. إنّ الحجارة هي تعبيرٌ عن التّعاسة، وهذا كلّ ما في الأمر. لأنّه لا وجود لمفاهيم سياسيّة من هذا النّوع في المدينة. والنّاس أشدُّ جوعاً، وأكثر ذهولاً، وإنّ نزاعاتهم فيما بينهم لأعظم بكثير من أن يكترثوا لذلك.

***

استغرق العبور عشرة أيّام، وكنت المسافر الوحيد. ولكنّك تعلم هذا. لقد التقيتَ القبطان والطاقم، ولا حاجة إلى تكرار ذلك مجدّداً. قضيت وقتي متطلّعة إلى المياه والسّماء، وبالكدّ فتحت كتاباً طوال الأيّام العشرة. أدركنا المدينة ليلاً وآنذاك فقط بدأت أشعر قليلاً بالفزع. كان الشاطئ أسود بكليّته، لا ضوء في أيّ مكان، وأحسست وكأنّنا ندخل عالماً غير مرئيّ، مكاناً لا يعيش فيه غير العميان. ولكن كان بحوزتي عنوان مكتب ويليام، وذلك طمأنني مجدّداً بطريقة ما. كلّ ما كان عليّ أن أفعله هو التوجّه إلى هناك، هكذا فكّرت، وبعدها سوف تسوّي الأمور نفسَها بنفسها. بأقلّ تقدير أحسستني واثقة بأنّي سأتمكّن من التقاط أثر ويليام. ولكنّي لم أكن قد أدركت أنّ الشّارع يمكن أن يكون اختفى. لم يكن الأمر أنّ المكتب كان فارغاً، أو أنّ ذاك المبنى كان مهجوراً. لم يكن هنالك لا مبنى، ولا شارع، ولا شيء على الإطلاق. لا شيء سوى حجارة وقذارة على امتداد عدّة فراسخ.

عرفت لاحقاً أنّ هذه كانت المنطقة السكنيّة الثالثة، وأنّه قبل سنة تقريباً من وصولي انتشر وباء هناك. تدخّلت حكومة المدينة فسوّرت المنطقة وأحرقت كلّ ما فيها. أو هكذا بالأحرى انتشرت القصّة. ولقد اكتشفت مذاك أنّه لا ينبغي أنّ أحمل كلّ ما أسمعه على محْمَل الجدّ. ليست المسألة أنّ النّاس يتعمّدون الكذب عليك، بل مجرّد الأمر أنّه حيثما يكون للماضي علاقة بالأمور، تميل الحقيقة إلى الغموض بسرعة كبيرة. تنبت الإشاعات في غضون ساعات، تنتشر قصص مضخّمة، وسرعان ما تُدفن الوقائع تحت جبل من النظريّات الغريبة. وأفضل طريقة لفهم الأمور في المدينة هي أنّ تصدّق فقط ما

تُطْلِعك عليه عيناك. ولكن حتّى هذا ليس معصوماً. لأنّه نادراً ما تكون الأشياء كما تبدو، خصوصاً هنا، حيث تكثر الأشياء المثيرة مع كلِّ خطوة، وكذلك الأشياء المنافية للمنطق. فأيُّ شيءٍ تراه قادرٌ على أذيّتك، على تحجيمك، وكأنَّ مجرَّد رؤية شيءٍ ما تسلبك جزءاً منك. تشعر غالباً أنَّ التطلّع سيكون خطراً، وأنَّ لديك مَيْلاً إلى تحويل عينيك، وحتّى إلى إغماضهما. ولهذا السبب فإنَّه من السّهل أن تتشوّش، وأن تمسي غير واثق من كونك تشاهد حقيقة الشّيء الّذي تخال أنّك تنظره. وقد يكون أنّك تتخيّل ذلك، أو أنَّ الأمور تختلط عليك، أو أنّك تتذكَّر شيئاً ما كنت رأيته من قبل - أو حتّى أنّك ربَّما كنت قد تخيَّلته من قبل. أترى كم هي الأمور معقّدة. لا يكفي أن تنظر ببساطة وتحدّث نفسك قائلاً «أنا أنظر إلى ذلك الشّيء». لأنّه أمر مختلف أن تفعل هذا حين يكون الشّيء الموجود أمام ناظريك قلماً على سبيل المثال، أو كسرة خبز. ولكن ما الّذي سيحصل حين تجد نفسك مُحَدِّقاً في طفلٍ ميِّت، في فتاة ممدَّدة في الشارع من غير ملابس، محطّمة الجمجمة ومكسوَّة بالدماء؟. ماذا ستقول لنفسك عندئذٍ؟. إنّها ليست بالمسألة البسيطة. في الواقع أن تتلفّظ بفتور وبغير مواربة: «أنا أنظر إلى طفل ميّت». وكأنّما يعجز دماغك وهو يشكّل هذه الكلمات، وتُخفِق أنت بطريقة ما في أن تفعل ذلك. هذا ما أقصد بالأذيّة. ليس بوسعك أنّ ترى بتجرّد، إذ إنّ كلّ شيء يخصّك بمعنى من المعاني، وهو جزء من القصّة المترعرعة في أحشائك. أظنُّ أنّه سيكون أمراً حسناً لو جعلت نفسك بمنتهى القسوة إلى درجة أنّ لا يؤثّر فيك أيّ شيء بعدها. ولكنّك ستمسي عندها وحيداً، ومقطوعاً نهائيّاً عن الجميع لتصبح الحياة مستحيلة. هناك أولئك الّذين يفلحون في القيام بذلك هنا. الّذين يمتلكون الطّاقة على تحويل

أنفسهم إلى وحوش، ولكنّك ستفاجأ إذا علمت كم هو قليل عددهم. أو بتفسيرٍ آخر: لقد أصبحنا كلّنا وحوشاً، ولكن ليس ثمّة واحد تقريباً من غيرٍ أثر في داخله للحياة كما كانت يوماً.

ولعلّ ذلك هو أعظم مشكلة على الإطلاق. الحياة كما نعهدها انتهت، ولا أحد قادرٌ على الرّغم من ذلك على إدراك ما حلّ محلّها. والّذين نشأوا منّا في مكان آخر، أو المعمّرون بدرجة كافية تجيز لهم تذكّر عالمٍ مختلفٍ عن هذا، يجدون مشقّة عارمة في مجرّد الاستمرار من يومٍ لآخر. لست أتحدّث فقط عن المشقّة. ففي مواجهة أكثر المناسبات ابتذالاً، تفقد كلّياً كيفيّة التصرّف، ولأنّه لا يسعك التصرّف فإنك تجد نفسك غير قادر على التّفكير. الدّماغ وَسْطَ تشوّش. وحولك في كلّ الجهات تغيير يلي الآخر، فكلّ يوم يحدث ثوران جديد، والافتراضات القديمة تؤول إلى هواءٍ وفراغ. هنا المُعْضِلة. فأنت من جهة ترغب في الاستمرار، في التّأقلم، في استخلاص أفضل ما في الأمور كما هي بالضّبط. ولكن يبدو من الجانب الآخر أنّ إنجاز ذلك يستلزم القضاء على كلّ تلك الأشياء التي جعلتك تظنّ في يوم من الأيّام أنّك آدميّ. هل تدرك ما الّذي أحاول قوله؟ من أجل أن تعيش، ينبغي أن تجعل نفسك تموت. ولهذا استسلم كثيرون، لأنّهم مهما ناضلوا بشدّة فإنّهم يعرفون أنّ الخسارة أمر محتوم. وانطلاقاً من هذه النّقطة تصبح المقاومة بالتّأكيد أمراً لا فائدة منه على الإطلاق.

إنّ الأمور تستحيل الآن إلى ضباب في ذهني: الّذي جرى والّذي لم يجرِ. مشهد الطرقات للمرّة الأولى، الأيّام، اللّيالي السماء فوقي، الحجارة المنتشرة تحتي. يبدو أنّي أذكر تحديقي الطّويل إلى أعلى، كما

لـو أنّي أفتّش عن نَقْصٍ في السماء، أو عن فـائض، أو عن شيءٍ مـا جعلها مختلفة عن السماوات الأخرى، كـما لو أنّ السـماء كانت قـادرة على تفسير الأشياء التي كنت أشاهـدها حـولي. وفي مطلق الأحـوال، قد أكون مخطئة. يحتمل أنيّ أنقل ملاحظات مـرحلة لاحقة وأسقـطها على تلك الأيّام الأولى. غير أنّي أشكّ في أن يكـون لهذا أهميّـة، الآن على الأقلّ.

بعد تأمُّل دقيق وشديد، بوسعي أن أعلن بطمأنينـة أنّ السماء هنـا هي نفسها السماء التي تعلوك. عندنا الغيوم نفسها، والانقشاع عينه، والعواصف ذاتها، والصفـاءات نفسها، والـرياح الّتي تنقـل كلّ شيء معهـا هي هي. وإذا كانت التّـأثيرات مختلفـة بعض الشّيء هنا فهـذا يعود سببه بـدقّة إلى مـا يحدث في الأسفـل. اللّيالي عـلى سبيل المثال ليست البتّـة ما هي عليـه في ديارنـا. هناك العتمـة نفسهـا والاتّسـاع عينــه، ولكن من غـير شعــور بـالسّكــون، مجـرَّد دفقٍ تحتســطحيّ متـواصل، همهمـة تشدّك إلى الأسفـل وتـدفعـك إلى الأمـام، بـدون استكانة. وبعدئذٍ، خلال النّهارات، ينهمر انقشاعٌ يصبح أحيانـاً غير محتمل. إشراق يبهرك وكأنّه يبيّض كلّ شيء، لتلتمع كـلّ الصَّفحات المحـزَّزة، ويصير الهـواء بالـذات كالـومض تقريبـاً. يتشكّـل الضّـوء بطريقة مغـايرة تصبـح عبرهـا الألوان مشـوّهة أكـثر فأكـثر كلّما دنوت منها. وحتّى الظّلال تصبح مخضوضة بذبذبةٍ محمـومةٍ حـول أطرافهـا. ينبغي أن تحاذر في هذا الضّوء ولا تفتح عينيك على مَداهما، أن تنـظر بعينـين نصف مغمضتين وبـدرجةٍ دقيقـةٍ تسمـح لـك بـالحفـاظ عـلى تـوازنك. وإلاّ تعـثّرت في مشيتك، ولست بحـاجة إلى تعـداد أخطار السّقـوط. أشعر أحيـاناً أنّ السّـماء سوف تنـدلع نـاراً، لـولا العتمـة

واللّيالي الغريبة الّتي تهبط علينا. تنتهي النّهارات حين ينبغي أن تفعل، في اللّحظة ذاتها حين يظهر أنّ الشّمس أنهكت الأشياء الّتي تلقي عليها أشعّتها. ولم يعد في مقدور أيّ شيء الالتحام مع الإشراق بتاتاً. سوف يذوب العالم غير القابل للاحتمال برمّته، وسيكون هذا نهاية الأمر.

تبدو المدينة وكأنّها تستهلك ذاتها ببطء وبثبات، حتّى بما تبقّى منها. ولا سبيل إلى تفسير هذا. أستطيع فقط تدوين ذلك، ليس بوسعي ادّعاء الفهم. كلّ يوم تسمع انفجارات في الشّوارع، وكأنّ عمارة تسقط في مكانٍ ما بعيداً عنك، أو كأنّ رصيفاً ينهار. لكنّك لا ترى حدوث ذلك البتّة. ومهما تناهت إلى سمعك أصوات كهذه، وبشكل كثيف، فإنّ مصدرها يبقى خفيّاً. قد يخالجك أنّ انفجاراً سوف يقع في حضورك عاجلاً أو آجلاً. ولكنّ الوقائع تتوارى في مواجهة الاحتمال. لا يجب أن يخطر لك أنّي أتخيّل هذا ـ هذه الأصوات لا تبدأ البتّة داخل رأسي. الآخرون يسمعونها أيضاً، حتّى وإن كانوا لا يعيرون الأمر أيّ اهتمام. أحياناً يتوقّفون للقيام بملاحظاتٍ تتعلّق بها، ولكنّهم لا يبدون أبداً قلقين. قد يتلفّظون بأنّها أفضل بعض الشّيء الآن. أو أنّها تبدو بعد الظّهيرة هذه حربيّة بعض الشّيء. كنت أطرح أسئلة كثيرة عن هذه الانفجارات، ولكنّي لم أحظَ البتّة بجواب. لا شيء سوء حملقة بكماء، أو هزّة كتفين. وقد تعلّمت في الواقع أنّ هناك بكلّ بساطة أشياء ممتنعة على السؤال، وأنّه حتّى هنا ثمّة مواضيع لا يرغب أحدٌ في نقاشها.

لأولئك الّذين هم في الحضيض، هناك الشّوارع والحدائق العامّة ومحطّات المترو القديمة. الشّوارع هي الأسوأ لأنّها مشرّعة على كلّ

طـارئ أو سوء. الحـدائق العامّـة هي بشكلٍ مـا مسألـة أكثر هـدوءاً بعيداً عن مشاكل الازدحام والعبور المتواصـل، ولكن إن لم تكن أحدَ المحـظوظـين الّـذين يمتلكـون خيمـة أو كـوخـاً، فلن تنجـو أبـداً من الـطّقس. فقط في محطّات المـترو يمكنك أن تـطمئنّ وتنجـو من قسـوة الطّقس، ولكن ستكون مُجْبَراً هنالك أيضاً على جمهرة من الإزعـاجات الأخـرى، ومنها العفـونـة، والحشـود، والضّجيـج المتـواصـل لنـاس يزعقون وكأنّهم مسحورون بأصداء أصواتهم بالذّات.

خـلال تلك الأسابيـع الأولى، كان المـطر أكثر مـا أفزعني من بـين باقي الأمور. حتّى إنّ البرد بدا مسـألة تـافهة بـالمقارنـة. بالنّسبـة إلى ذلك كان الأمر يحتاج ببسـاطة إلى معـطفٍ دافئ (وهذا كنت أمتلكـه) وإلى التحرُّك بسرعة للحفاظ على نشاط دمك وتحفّـزه. عرفت كـذلك الفوائد المستخـرجة من الصحف، فهي بـالتأكيـد أبخس وأفضل أداة لجعـل ثيابـك عازلـة. في الأيّـام البـاردة، ينبغي أن تنهض بـاكـراً في الصّباح لتكون واثقاً من إيجاد مكان جيِّد في الصفوف الّتي تحتشد أمام أكشـاك الصحف. يجب أن تقيس فترة الانتـظار بحكمة، إذ لا شيء أكثر ضرراً من الوقوف خارجاً في هواء صباحٍ باردٍ لوقتٍ طويـل. إن كنت تعتقـد أنّ ذلك سيقتضيـك أكـثر من عشرين أو خمس وعشرين دقيقة، فمن أبسط الحِكَم عندئذٍ أن تبتعد وتتناسى الأمر.

ما إن تبتاع الصحيفة، هذا إذا سلّمنا جدلاً أنّه قُدِّر لـك الحصول على واحدة، فإنّ أفضل ما يمكن أن تقوم به هو اقتطاع ورقة منها، ثمّ تمزيقها إلى قصاصات ومن ثمّ لـولبتها إلى رزمٍ صغـيرة. هذه العقـد تصلح لأن تحشر في مقدّم حذائـك، لرأب الفـراغات الهـوائيّة حـول كاحليك، ولخياطة الثّقـوب في ثيابـك. من أجل الأطـراف والجذع،

تشكِّل صفحات بأكملها ملفوفة حول عددٍ من العقد المحشورة المتفاسحة أفضل ما يمكن من إجراء. يمنحك هذا التّرتيب مظهراً منتفخاً محشوّاً فيه ميزة تجميليّة وهي حجب الهزال. بالنسبة لأولئك المهتمّين بالعناية بمظهرهم فإنّ «وجبة الورق» هذه كما يطلق عليها، تنفع كنوعٍ من التقنيّة لإنقاذ ماء الوجه.

أناس على شفير الهلاك فعليّاً من الجوع، بمعداتٍ مجوّفةٍ وأطرافٍ كالعيدان، يتجوّلون في الأرجاء ساعين إلى الظهور وكأنّهم يَزِنون مئتين أو ثلاثمئة باوند. ليس ثمّة من يُخدع بهذا التنكّر على الإطلاق ـ في وسعك أن تميّز هؤلاء الأشخاص من مسافة نصف ميل ـ غير أنّ هذه قد لا تكون النقطة الحقيقيّة. لعلّ ما يقصدونه في الواقع هو أنّهم يفقهون ما حلّ بهم، وأنّهم يخجلون به. إنّ أجسادهم المنتفخة هي، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، شارة وعي، علامة وعي ذاتيّ مرّ. يجعلون أنفسهم محاكاةً تهكّميّة كاريكاتوريّة للأغنياء وللمتخمين. وفي هذه المحاولة العديمة الجدوى وشبه المخبولة، يثبتون أنّهم لا شيء سوى نقيض ما يدّعونه ـ وأنّهم يعلمون ذلك.

إلّا أنّ المطر من ناحية أخرى ظاهرة لا تقهر. إذ إنه إذا حصل وتبلّلت فإنّك ستدفع غالياً ثمن ذلك لساعات أو حتّى لأيّامٍ بعدها. لا خطأ أعظم من الوقوع في شرك هطولٍ غزيرٍ ومفاجئٍ للمطر. إنّك لا تواجه إذ ذاك خطورة الإصابة بالزكام وحسب، ولكنّك ستعاني من عدد لامتناهٍ من المتاعب. سوف تشبّع ملابسك بالرطوبة، وتمسي عظامك وكأنّها متجلّدة، بالإضافة إلى خطر إتلاف حذائك الماثل أبداً. إن كان البقاء واقفاً على قدميك هو أهمّ المهامّ على الإطلاق، فتصوّر العواقب المتأتّية عن انتعالك حذاء غير ملائم. ولا

شيء يؤثّر في الأحذية بكوارثيّة أكثرُ من انتقاعٍ مشبعٍ يصيبها. يمكن أن يؤدّي هذا إلى شتّى أنواع المتاعب: مثل التقرّح، وورم الالتهابات، والبثور، والمسامير الداخليّة، والآلام والتشويهات. وحين يصبح السَّير موجعاً فأنت لا بدَّ هالك. خطوة واحدة، وخطوة أخرى، ثمَّ أخرى: هذه هي القاعدة الذهبيّة. إن لم يكن في مقدورك بأقلّ تقدير القيام بذلك، فإنّه يستحسن عندئذٍ أن تكتفي بالاستلقاء على الفوْر حيث أنت، وتمنع نفسك من متابعة التنفّس.

ولكن كيف السّبيل إلى تجنّب المطر إذا كان من الممكن أن ينقضّ في أيّة لحظة؟. هنالك أوقات، أوقات كثيرة، حين تجد نفسك في العراء، متنقّلاً من مكانٍ لآخر، في طريقك إلى مكانٍ ما ولا خيار لديك بشأن ذلك، وفجأة تعتكر السَّماء، تلتحم الغيوم، وها أنت مبلّل حتّى الجلد. وحتّى لو نجحت في إيجاد ملاذٍ لحظة شروع المطر بالهطول، وتجنّبته منقذاً نفسك هذه المرّة، فإنّه يجدر بك على الرَّغم من ذلك أن تكون حذراً إلى أقصى الحدود بعد توقّف المطر. إذ إنّه يتوجّب عليك بعدها أن تنتبه إلى البُرَيْكات الموحلة الّتي تتشكّل في تجويفات الرّصيف، والبحيرات الّتي تنبثق أحياناً من الصّدوع، وحتّى إلى الوحول الّتي ترشح من الأسفل مخادعة وإلى مستوى الرّسغ. ولّما كانت الطرقات في حالتها التّعسة تلك، بكثرة تصدّعها، وحفرها، وندوبها، وشقوقها، فلا سبيل للنجاة من هذه المآزق. وسوف يتحتّم عليك عاجلاً أو آجلاً بلوغ مكانٍ لا خيار لك فيه، حيث تمسي مطوّقاً من جميع الجهات. وليس سطح الأرض وحده هو الذي يستوجب حذرك، ولا العالم الذي يمسّ قدميك، فهناك أيضاً التقطّر من الأعلى المنزلق من الأفاريز، وبعدئذٍ، وبصورةٍ أردأ، الرّياح العاصفة الّتي

تلي المطر غالباً، ودوّامات الهواء العنيفة التي تقشّر صفحات البحيرات والبُرَيْكات وتسوط المياه معيدة إيّاها إلى الجوّ، وتسوقها في الأرجاء كدبابيس صغيرة، كرماحٍ تخزّ وجهك وتدوّم حولك جاعلة الرّؤية أمراً مستحيلاً. وحين تهبُّ الرّياح بُعَيْد المطر يتصادم النّاس أكثر من المألوف، وتندلع في الشّوارع معارك كثيرة، ويبدو الهواء عينه مشحوناً بالوعيد.

لو كان في المقدور التنبُّؤ بحالة الطقس بأيّة درجة من الدّقة لاختلف الأمر. إذ يتسنّى آنئذٍ للمرء التّخطيط ومعرفة متى ينبغي تجنُّب الشّوارع، والتّحضير للتغيّرات مقدّماً. غير أنّ كلّ شيءٍ يحدث بسرعةٍ كبيرة هنا، التبدّلات مفاجئة جدّاً، وما هو صحيحٌ في دقيقةٍ ما، لا يعود كذلك في الّتي تتبعها. لقد ضيّعت وقتاً كثيراً متشوّفة لعلاماتٍ في الهواء، محاولة تأمّل الجوّ بحثاً عن إشارات لما سيتبع ومتى، ومنها لون الغيوم وثقلها، وسرعة الرّيح واتّجاهها، والروائح في أيّ ساعة من السّاعات، وتركيبة السّماء في اللّيل، وانبساط مغيب الشّمس، وكثافة النّدى عند الفجر. لكن أيّاً من هذا كلّه لم يسعفني البتّة. فالرّبط بين هذا وذاك، وإقامة علاقة بين غيمة مرّت بعد الظهر وريحٍ مسائيّة، أشياءُ تقودِ فقط إلى الجنون. تدور في دوّامة حساباتك وبعدها، تماماً في الهنيهة الّتي تقتنع فيها بأنّها ستمطر، تتابع الشّمس متألّقة يوماً بأكمله.

وما يتوجّب عليك عمله بعدئذ هو البقاء على استعداد لأيّ احتمال. غير أنّ الآراء تتنوّع بتطرّف بشأن أفضل وسيلة للشروع في هذا. على سبيل المثال هناك أقلّيّة ضئيلة تعتقد أنّ الطّقس السّيّء تجلبه الأفكار السّيئة. هذه في الواقع مقاربة صوفيّة للسؤال، إذ إنّها

تدلّ ضمناً على أنَّ الأفكار يمكن أن تتحوّل مباشرة إلى حدوث في العالم المادِّيّ. فإذا خالجت عدداً كافياً من الأشخاص في الوقت نفسه أفكارٌ كئيبة، فإنّ المطر سينهمر عندها. ويدّعون أنّ هذا هو مسبِّب كلّ تغيّرات الطقس المذهلة، وهو سبب عدم تمكّن أيّ كان من تقديم تفسيرٍ علميٍّ لظواهر مناخنا الشاذّ. والحلّ الّذي يقدّمون هو الإبقاء على حالة مرح راسخة مهما تفاقمت أسباب الغمّ حولهم. فلا تجهّم، ولا تنهّدات عميقة، ولا دموع. ويُعرف هؤلاء الأشخاص بالمبتسمين، فلا نِحلة في المدينة تفوقهم براءة أو طفوليّة. إنّهم على قناعة بأنّه لو تحوّلت أكثريّة من السّكان إلى معتقدهم، فإنّ الطّقس سيبدأ أخيراً بالاستقرار، وأنّ الحياة ستتحسّن بعدها. إنّهم يبشّرون إذاً باستمرار، ويبحثون بشكل مستديم عن مشايعين جدد، غير أنّ لطافة السلوك الّذي يفرضونه على أنفسهم تضعف إلى حدٍّ بعيد قدرات الإقناع لديهم. ونادراً ما يفلحون في كسب مؤيِّد واحد، وبناءً على ذلك فإنّ أفكارهم لم تخضع مرّة للاختبار ـ لأنّه بدون عدد كبير من المؤمنين، لن تتوافر كميّة كافية من الأفكار الطيّبة لإحداث اختلاف. غير أنّ انعدام وجود البرهان هذا لا يفعل سوى زيادة تمسّكهم بإيمانهم. وفي مقدوري أن أراك تهزّ رأسك هازئاً، أجل، أوافقك الرّأي في أنّ هؤلاء النّاس سخفاء ومضلَّلون. إلّا أنّه في سياق حياة المدينة اليوميّة، ثمّة بعض القوّة في حجّتهم، وقد لا تكون أكثر سخفاً من أيّ حجّة أخرى. وكأشخاصٍ عاديِّين يميل «المبتسمون» إلى أن يكونوا صحبة مبهجة، إذ إنّ لطافتهم وتفاؤلهم ترياق مرحَّب به إزاء المرارة الغاضبة الّتي تجدها في معظم الأمكنة الأخرى.

وخلافاً لهذا فإنّ هناك مجموعة أخرى تدعى «الزاحفين». وهؤلاء

الأشخاص يعتقدون أنّ الأحوال ستمضي إلى أسوأ إلى أن نعبّر متظاهرين - في أسلوبٍ فائق الإقناع - عن عظيم خجلنا من أسلوب حياتنا في الماضي. والحلّ الذي يقترحونه هو طرح أنفسهم على الأرض والامتناع عن الوقوف مجدّداً إلى أن تعلن لهم إشارة ما أن كفّارتهم قد اعتبرت كافية. وكيف يُعقل أن تكون هذه الإشارة موضوع سجالٍ نظريٍّ طويل؟ يقول البعض إنّه سيكون شهراً من المطر المتواصل، ويقول آخرون شهراً من الطّقس الجيّد، كما يقول آخرون إنّهم لن يعرفوا إلى أن يُوحى إليهم بذلك في قلوبهم. وهناك شقّان رئيسيّان في هذا التشيّع - وهما «الكلاب» و«الأفاعي». يؤكّد الأوّل أنّ الزّحف على اليدين والركبتين يُظهر ندماً كافياً، فيما يتمسّك الثّاني بفكرة أن لا شيء أقلّ من الزحف على البطن يمكن أن يفي بالغرض. وتندلع غالباً في الشّوارع معارك دمويّة بين المجموعتين - غير أنّ أيّاً من الشقّين لم يستطع الحصول على كثير من الأتباع، وأظنّ أنّ هذه الفرقة هي على شفير الانقراض الآن.

في النّهاية، ليس لدى معظم هذه الفرق أيّ رأيٍ محدّد في ما يختصّ بهذه القضايا. وإنّ جمعت المجموعات المختلفة الّتي تمتلك نظريّات متماسكة بشأن الطّقس (الطبّالون، جماعة نهاية العالم، الاتحاديّون الأحرار) فإنّي أشكّ في أن يخلصوا إلى أكثر من نقطةٍ في دلو. وما يختصر الأمر على الأرجح، حسب اعتقادي، هو مجرّد الحظّ. السماء تحكمها الصّدفة، وقوى بالغة التعقيد وغامضة إلى درجةٍ يعجز مطلق شخصٍ عن تفسيرها. وإن حدث وتبلّلت بالمطر، فأنت غير محظوظ، وهذا كلّ ما في الأمر. وإن صدف وبقيت جافّاً، فَنِعْمَ الأمر. ولكن لا علاقة لهذا بسلوكك أو معتقداتك. المطر لا

يقوم بأيّ تمييز. في وقت أو آخر يهطل فوق الجميع. وحين يهطل فالكلّ مساوٍ للكلّ ـ لا أحد أفضل ولا أسوأ من الآخر. الكلّ متساوٍ ومتشابه.

أرغب في إخبارك الكثير. ثمَّ أشرع في قول شيء ما، وأدرك فجأة ضآلة معرفتي بالحقائق والأرقام، أعني، المعلومات الدقيقة عن طريقة عيشنا في المدينة. كانت هذه ستكون مهمّة ويليام. كانت الصحيفة أرسلته إلى هنا للحصول على القصّة، وكان ينبغي أن يبعث كلّ أسبوع تقريراً جديداً عن الخلفيّة التاريخيّة، مقالات ذات طابع إنسانيّ، المسألة برمّتها. لكنّه لم يصلنا الكثير، أليس كذلك؟. بضع برقيّات قصيرة وبعدها الصّمت. إن كان وليام لم ينجح في تدبّر أمره فلا أرى كيف يمكن أن أتوقّع في نفسي أن أحقّق أفضل من ذلك. لا أعرف أبداً كيف تفعل هذه المدينة لتستمرّ، ولو قمت حتّى بالتّحرّي بشأن هذه الأمور، فقد يقتضي ذلك وقتاً طويلاً، وقد يتغيّر الوضع برمّته في هذه الأثناء. على سبيل المثال، أين يقع المكان الّذي تزرع فيه الخُضَر، وكيفيّة نقلها إلى المدينة. وأنا لست قادرة على إعطائك الأجوبة، ولم ألتقِ قطّ بمن باستطاعته ذلك. يتحدّث النّاس عن مناطق زراعيّة في البقاع الخلفيّة إلى جهة الغرب، ولكن هذا لا يعني أنّ هناك أيّة صحّة في هذا الكلام. النّاس على استعداد هنا للتّحدُّث عن أيّ شيء، وخصوصاً عن أمورٍ لا يفقهون أيّ شيء عنها.

وما يلفتني كحالة شاذّة هنا ليس أنّ كلّ شيء يتداعى، بل إنّ الكثير الكثير يستمرّ موجوداً. إنّ تلاشي العالم يقتضي وقتاً مديداً، يفوق بأضعافٍ ما قد يخطر لك. الحيوات تتابع معيشة، ويبقى كلّ واحدٍ منّا شاهداً على مأساته الضئيلة الخاصّة. صحيح أنّه لم تعد

هنـاك أيّة مـدارس، صحيح أنّ آخـر عرض سينـمائي قد جـرى منذ خمس سنـوات، صحيح أنّ النبيـذ نادر جـدّاً الآن، ولا يقـدر سـوى الميسـورين على ابتيـاعـه. ولكن أهـو هـذا مـا نعنيـه بكلمـة حيـاة؟ فلْيتلاشَ كلّ ما هو موجود، وهيّا بنا نكتشف ماذا هناك بعـدها. قـد يكون هذا هو أهمّ سؤال على الإطلاق: كي نرى ماذا سيحدث حين لا يبقى أيّ شيء. وإذا كنّا سنستمرّ على قيد الحياة إذ ذاك، أو لا.

يمكن أن تأتي العواقب غريبة بمـطلق الأحوال، وغـالباً مـا تعارض وجهـة توقُّعـاتك. وقـد يوجـد جنباً إلى جنب يـأسٌ خالصٌ واختـراعٌ مذهلٌ إلى أقصى الحـدود، وتندمـج الأنثروبيـا بالتّـطور. لأنّ ما تبقّى قليل جدّاً، لم يعد يُرمى أيّ شيء تقريباً، واكتشفت استخدامات لموادٍ كانت مرّة محتقرة كالقمامة. كلّ هذا مرجعه أسلوب جديد في التّفكير. والقِلّة توجّه ذهنك نحو حلولٍ جديدة، وتجد نفسك مستعدّاً للتأمُّـل في أفكارٍ ما كانت لتخطر في بالك من قبل. خذ مثلاً موضـوع الغائط البشريّ، الغائط البشريّ بالمعنى الحَرْفي للكلمة. لم يعـد هناك تقـريباً من وجودٍ لما يسمّى بالسمكريّة. الأنابيب أصابها التآكل، المـراحيض تصـدّعت وانفجرت في تسرُّبـات. شبكة المجـارير أصبـح معـظمهـا مقضيّاً عليه. وعـوض أن يقوم النـاس بصون أنفسهم والتّخلُّص من فضـلاتهم بـطرقٍ عشـوائيّـة ـ ممـا قـد يؤدّي بسرعـة إلى الفـوضى والأمراض ـ جرى ابتكار نظام متقن حيث لكل حيٍّ من الأحياء فريق يقوم بدوريّات لجمع الوسخ اللّيليّ. يجولون عبر الشّوارع ثلاث مرّات في اليوم، جارّين ودافعين قاطراتهم الصدئـة فوق الـرصيف المفسَّخ، يـرّنون أجـراسهم لسكّـان الجـوار كي يخـرجـوا ويفـرغـوا دلاءهم في الصهريج. الرّائحة تكون بالتّـأكيد قـاتلة، وحين وضـع هذا النـظام

لأوّل مرّة كان الأشخاص الوحيدون الّذين ارتضوا القيام بالعمل هم السجناء ـ الّذين خُيّروا بشكلٍ مريب بين الحصول على عقوبة ممدَّدة إن رفضوا، وعقوبة أقصر إن هم وافقوا. وتبدّلت الأمور منذ ذاك، على أيّة حال، ولعمّال البراز الآن وضع قانونيّ كموظّفين مدنيّين، ويؤمَّن لهم السكن شأنهم شأن رجال الشرطة. ويبدو الأمر محقّاً، أعتقد هذا. وإذا لم تكن ثمّة فائدة إضافيّة من هذا العمل، فما الّذي سيدفع أيّ شخص إلى القيام به؟ يمكن فقط أن يكشف هذا كم في وسع الحكومة أن تكون فعّالة إبّان ظروف معيّنة. جثث وبراز ـ عندما يتعلّق الأمر بإزالة مخاطر صحّية، فإنّ رجال إدارتنا شديدو الصّرامة في تنظيمهم. مثال في التفكير السليم والفعالية.

غير أنّ الأمر لا ينتهي هنا. فبعد أن يجمع عمّال البراز الأوساخ، لا يكتفون بالتّخلّص منه والسّلام. فقد أضحى البراز والنفايات موارد حيويّة أساسيّة هنا، ومع تضاؤل احتياطيّ الفحم الحجريّ والبترول إلى درجات منخفضة خطيرة، فإنّ هذه الموارد هي ما يؤمّن لنا معظم الطّاقة التي لايزال في مقدورنا إنتاجها. ولكلّ منطقة سكنيّة مصنع طاقة خاصّ بها، وهذه تُشغَّل كلّياً بواسطة الوسخ. وقود لتشغيل السيّارات، وقود لتدفئة المنازل ـ كلّ هذا مصدره غاز الميثان الذي تنتجه هذه المصانع. أدرك أنّ الأمر قد يبدو لك مضحكاً، لكن لا أحد يمزح بشأن هذا الأمر هنا. فالبراز مسألة جدّيّة؛ وإنّهم يعتقلون أيّ واحد يقبض عليه ملقياً إيّاه في الشوارع، كما يحكم عليه فوراً بالموت إن ارتكب هذه الجريمة ثانية. ويسعى نظامٌ كهذا إلى كبح أيّ تلاعب. فأنت تتعاون في ما هو مطلوب منك، وسرعان ما تتوقّف كلّياً عن مجرّد التّفكير بذلك.

الأمر الأساسيّ هو البقاء على قيد الحياة. فإذا نويت البقاء هنا، فإنّه ينبغي أن تعثر على طريقة لكسب المال. ولذلك فهي قليلة جدّاً الوظائف المتبقّية، تلك الّتي بالمعنى القديم للكلمة، ليس بمقدورك من دون علاقاتٍ التقدّمُ حتّى إلى أحقر المراكز الحكوميّة (كاتب، حاجب، موظّف مركز تحويل، إلخ...). يصحُّ الشّيء نفسه في العديد من المهن الشرعيّة وغير الشرعيّة في كلِّ أرجاء المدينة، (عيادات «القتل الرَّحيم»، عمليّات الطّعام غير الشرعيّة، الملاّكون الأشباح). وإن لم يكن لديك أحد المعارف سابقاً، فلا مندوحة عن طلب وظيفة من أيّ من هؤلاء الأشخاص. وبالنسبة إلى سافلة القوم فإنَّ الكناسة هي إذاً أكثر الحلول شيوعاً. هذا هو عمل المتبطّلين، وأعتقد أنّ ما بين عشرة وعشرين بالمئة من السّكّان يعملون فيه. ولقد قمت به أنا نفسي لفترةٍ من الوقت. والوقائع بمنتهى السّهولة، فما إن تبدأ حتّى يغدو تقريباً من المستحيل التوقّف. إنّه عمل يستنفدك إلى أقصى الحدود، ولا وقت لديك لتفكّر في القيام بشيءٍ آخر.

يقع كلُّ الكنّاسين في فئتين أساسيّتين، وهما: جامعو القاذورات وصيّادو الأشياء والمتاع. والفئة الأولى أكبر بكثير من الثانية. وإن عمل المرء بكدٍّ مثابراً باجتهاد في العمل على مدى اثنتي عشرة أو أربع عشرة ساعة يوميّاً، فإنَّ لديه فرصة مساوية لكسب عيشه. ومنذ سنوات ليس هناك الآن من تنظيم بلديّ لجمع القاذورات. وعوض ذلك يتقاسم المدينةَ عددٌ من سماسرة القاذورات ـ من القطاع الخاصّ ـ واحدٌ لكلِّ منطقة سكنيّة ـ وقد ابتاعوا حقوق جمع القاذورات في مناطقهم من حكومة المدينة. ولكي تتمكّن من الحصول على عمل كملتقط قذارات يتوجّب عليك أوّلاً الحصول على

إجازة من أحد السماسرة ـ ويجب أن تدفع ثمناً لها أجراً شهريّاً يصل أحياناً إلى خمسين بالمئة من دَخلك. والعمل من غير إجازة أمر مغرٍ بالتّأكيد، ولكنّه أيضاً بمنتهى الخطورة، إذ إنّ لكل من السماسرة طاقماً خاصّاً من المفتّشين لخفر الشّوارع، وللتحقُّق من أيّ واحد يرونه ملتقطاً قاذورات. فإن لم تستطع تقديم الأوراق المناسبة فللمفتّشين الحقّ القانوني بتغريمك، وإن لم يكن بمقدورك دفع الغرامة فإنّهم يعتقلونك. وهذا يعني التّرحيل إلى أحد معسكرات العمل الإلزاميّ غرب المدينة ـ وتمضية السّنوات السّبع التالية في السِّجن. ويقول بعض الأشخاص إنّ الحياة في المعسكرات هي أفضل منها في المدينة، ولكنّ هذا مجرَّد تخمين. وإنّهم لقلّة الّذين غالوا بذلك إلى درجة جعل أنفسهم يعتقلون عن سابق قصد، غير أنّ أحداً لم يرهم من جديد.

وعلى افتراض أنّك جامع قاذورات قانونيّ مسجّل، وأنّ كلّ أوراقك مضبوطة، فإنّك تكسب مالك بجمع قدر ما استطعت والذّهاب به إلى أقرب مصنع للطّاقة. وهناك يدفع لك حسب ما تحمل من كيلوغرامات ـ وهو مبلغ تافه ـ ثمّ تلقى القاذورات في أحد أحواض الصّهر. والوسيلة المفضّلة لنقل القاذورات هي عربة التسوّق ـ وهي مماثلة لتلك الموجودة حيث أنت. وقد أثبتت هذه السلال المعدنيّة ذات العجلات أنّها أدوات صلبة، ولا ريب أنّها تعمل بفاعليّة تفوق كلّ وسيلة أخرى. فعربة أكبر حجماً ستغدو بالتّأكيد أكثر من منهكة لدى دفعها مملوءة بقدر استيعابها. في حين تتطلّب واحدة أصغر حجماً قيامك بعدّة رحلات إلى المستودع، (لقد نُشر كرّاس بخصوص هذا الموضوع منذ بضع سنوات، وأثبت صحّة هذه الافتراضات). ونتيجة لهذا فإنّ الطّلب على هذه العربات هائل.

فالهدف الأوَّل لكلّ ملتقط مهملات جديد هو الحصول على واحدة. ويمكن أن يستغرق هذا شهوراً، وحتّى سنوات أحياناً ـ غير أنّه من المستحيل أن تنجح أو تحاول، قبل أن تتمكّن من امتلاك عربة. وهناك معادلة ماثلة في عمق هذا كلّه. فلمّا كان العمل يدرّ عليك مدخولاً ضئيلاً فمن النادر أن يُتاح لك إدّخار أيّ شيء ـ وإن تمكّنت، فهذا يعني عادة أنّك تحرم نفسك من شيء ما أساسي: الطّعام على سبيل المثال، وبدونه لن تستحوذ على الطّاقة للقيام بالعمل الضروري لكسب المال لابتياع العربة. هل اتّضح لك المأزق. إنّك كلّما جهدت أكثر في العمل غدوت أضعف، وغدا العمل أشدّ وطأة. ولكنّ هذه مجرَّد بداية. إذ إنّه حتّى لو تمكّنت من الحصول على عربة فإنّه يتوجّب عليك الحذر لإبقائها بحالة جيّدة. فالشّوارع مهلكة للمعدّات، وينبغي على الأخص إيلاء عناية بالغة ومستمرّة للعجلات. وحتّى لو قدّر لك تحقيق هذه الأمور، فهناك واجبٌ إضافيّ، وهو عدم إغفال بصرك عنها لحظةً واحدة. ولمّا كانت العربات قد أصبحت على هذا القدر من القيمة، فقد أمست تجتذب اللّصوص على وجه أخصّ ـ ولا فاجعة أعظم من فقدانك عربتك. ولذلك يطوّق الكنّاسون خصورهم بجهاز ما يشبه النّطاق معروف باسم «الحبل السُّرّي» ـ وهذا يعني حبلاً، أو رسن كلب، أو سلسلة، تربطها ببساطة حول خصرك ثم تعلّقها بالعربة. إنَّ هذا يجعل المشي مسألة مرهقة، غير أنّ الأمر يستحقُّ هذا العناء. وبسبب الضجيج الّذي تصدره هذه السّلاسل عندما تتخبّط العربة عبر الشّارع، فإنّه غالباً ما يُلقَّب الكنّاسون «بالموسيقيّين».

يتوجّب على صائد الأغراض أن يخضع لإجراءات التّسجيل

عينها، كمثل ملتقط المهملات، وهو هدف كذلك للتّفتيش الرسميّ العشوائيّ نفسه. ولكن عمله هو من نوعٍ مختلف. فملتقط القاذورات يبحث عن الفضلات، في حين يفتّشُ صائد الأشياء عن مستردَّات. إنّه يبحث عن أدوات معيّنة وأغراض يمكن استعمالها مجدَّداً، وعلى الرغم من أنّه حرّ في التّصرف بالأشياء الّتي يعثر عليها، فهو يبيعها عموماً إلى واحدٍ من عملاء التّرميم في أرجاء المدينة ـ وهم متعهّدون من القطاع الخاص يعملون على تحويل هذه البقايا إلى سلعٍ جديدةٍ تُباع آخر الأمر في السوق، ويقوم العملاء بمهنة مضاعفة ـ قسم منهم تجّار خردة، وقسم آخر مصنعُّون والقسم الأخير أصحاب متاجر. ومع انقراض أشكال الإنتاج الأخرى في المدينة انقراضاً تامّاً تقريباً فإنّ هؤلاء هم من بين أكثر النّاس ثراء وأوسعهم نفوذاً بشكلٍ عامّ. ولا ينافسهم غير تجّار القاذورات بالذّات. وهكذا فإنّ في مقدور صائد خردة ناجح كسب معيشة مقبولة من جرّاء عمله. ولكن ينبغي أن تكون سريعاً، وأن تكون ذكيّاً، ويجب أن تعرف أين تفتّش. يميل الشبّان عموماً إلى تحقيق أفضل الإنجازات في هذا المجال، ويندر أن تصادف صائد خردة يفوق عمره العشرين أو الخمس وعشرين سنة. ويجدر بأولئك الّذين يفشلون في تحقيق إنجازٍ مُرْضٍ التّفتيشُ عاجلاً عن عمل آخر، إذ لا ضمانة بأنّك ستحصل على أيِّ شيء مقابل جهدك. وملتقطو القاذورات هم نوعٌ أكبر عمراً وأشدُّ تحفّظاً، وراضون بكدحهم في عملهم لأنّهم يعرفون أنّه سيؤمّن لهم عيشهم ـ على أن يعملوا بقدر استطاعتهم. غير أنَّ أيّ أمرٍ ليس مؤكّداً بشكلٍ نهائيّ، لأنّ المنافسة أضحت مخيفة على كلّ مستويات الكناسة. وكلّما تفاقمت ندرة الأشياء في المدينة اشتدّ امتناع الناس عن رمي أيّ شيء. وخلافاً لما مضى عندما لم تكن تفكّر مرّتين بشأن

رمي قشرة برتقالة في الشّارع، فحتّى هذه القشور صارت الآن تلتقط وتفتّت ويأكلها بعض النّاس. قميص تي شيرت بالٍ، سروال تحتيّ ممزّق، إبريم قبّعة - كلّ هذه الأشياء صارت تحفظ الآن، كي ترقّع معاً لتؤلّف ثياباً جديدة. وترى النّاس مرتدين أشدّ أنواع الأزياء تنافراً وعجباً، وكلّما مرّ بك شخص مرقّع المظهر، عرفت على التّوّ أنّه قد يكون طَرَدَ صائد خردة آخر.

على أيّة حال، هذا ما انغمست فيه، صيد الخردة. وكنت محظوظة كفاية لأبدأ قبل أن ينفد مالي. فحتّى بعد أن اشتريت الرّخصة (١٧ غْلوطة) والعربة (٦٦ غْلوطة) ورسناً وزوج أحذية (خمس غلوطات و٧١ غلوطة) بقي معي أكثر من مئتي غْلوطة. وكان هذا حظّاً حسناً، إذ إنّه منحني هامشاً ما للخطأ، وفي ذاك الحين كنت بحاجة ماسّة لكلّ عون ممكن. وكان الأمر سيؤول بي عاجلاً أو آجلاً إمّا إلى الغرق وإمّا إلى العوم - ولكنْ كان بحوزتي في تلك اللّحظة ما أتمسّك به: قطعة خشب عائمة، حطبة حطام سفينة أتّكئ عليها بثقلي.

في البداية لم تجرِ الأمور على ما يرام. كانت المدينة لاتزال جديدة بالنّسبة إليّ آنذاك، وبدوت تائهة على الدوام. وقد بدّدت الوقت في غزوات أثمرت هباء، حدس سيّئ لشوارع قاحلة، وجود في البقعة الخطأ في الوقت الخطأ. وإن حدث وعثرت على شيء ما، فإنّما كان ذلك على الدّوم لأنّي تعثّرت به بطريق الصّدفة. كان الحظّ أسلوبي الأوحد، الفعل المجّانيّ الخالص لرؤية شيء ما بعينيّ الاثنتين ثمّ الانحناء لالتقاطه. ولم يكن لديّ أيّ أسلوب كالّذي يبدو أنّ الآخرين يملكونه. فلا سبيل لمعرفة مسبّقة لوجهة الذهاب، ولا إدراك لكلّ ما يجري وما سيكون، أو حتّى، أو أين. وينبغي العيش سنوات

في المـدينة لإدراك هـذه النّقطة، وكنت مجـرّد مبتدئـة، وافدة جـديـدة جـاهلة، تكاد بشقٍّ النّفس تكتشف طـريقهـا من منـطقـة سكنيّـة إلى أخرى.

غير أنيِّ لم أكن فاشلة كلّياً. كانت لديّ في النّهاية قدماي، وحماسـة فتيّة تبقيني مستمرّة، حتّى حين كانت الاحتـمالات أقلّ من مشجّعـة. وقد عدوت في الأمكنـة بانـدفاعٍ لاهث، متنقّلة بـين الطّرق الفـرعيّة الخطرة، ومتاريس الجـزيات، منعـطفة بتـوثّب من شارع لآخـر، غير فاقدة الأمل البتّة بلقية خارقـة عند المنعـطف التّالي. وأعتقـد أنّه أمـر عجيب أن تنــظر في الأرض بـاستمــرار، في بحث دائم عن أشيــاء محطّمة ومنبوذة. فلا بدّ أن يؤثّر ذلك بعد مدّة من الزّمن على الدّماغ. إذ إنّه لم يعد أيّ شيء هـو حقيقة ذاتـه أبداً. هنـاك أجزاء من هـذا، وأجـزاء من ذاك، ولكنّ أيّاً منهـا لا يناسب الآخـر، وعلى الـرّغم من ذلك، فإنّه في أوجّ هذا التشوُّش يبدأ كـلّ شيء بالالتحـام مجدّداً. إنّ تفاحة مهروسة، وبرتقالة مهروسة هما في النّهـاية الشّيء نفسـه، أليس كـذلك؟. لا يمكنـك أن تفرّق بـين ثوبٍ جيّدٍ وثوبٍ بـالٍ إن كـانـا كلاهما ممزّقين، أوَتستطيع؟. وعند نقطةٍ معيّنـة، تنحلُّ الأشيـاء لتغدو وحلاً، أو غباراً، أو فتـاتاً، وتجـد نفسك أمـام شيء جديـد، جُسَيْمٍ ما، أو تكتُّل مادّة ليس بالمقدور تحديـدها. إنّها كتلة، ذرّة، جـزءٌ من العالم لا موضع له: صِفْرٌ من اللّاموجودات. وكونك صـائد أغـراض يُوجِب عليك إنقاذ الأشياء قبل أن تبلغ حالـة الانحلال الكـلّي هذه. وليس بمقدورك أن تتوقّع البتّة أن تجد شيئاً كاملاً ـ لأنّ هـذه صدفـة، غلطة من جانب الشّخص الّذي فقـده ـ ولكن ليس بوسعـك كذلـك أن تقضي وقتـك باحثـاً عمّا هـو بـالٍ كلّيـاً. تحـوّم في مكـان مـا بـين

الاثنين، في إثر أشياء لا تزال تحتفظ بتشابهٍ ما مع شكلها الأصليّ ـ حتّى ولو كان قد انتهى نفعها. والّذي وجده آخر صالحاً للرّمي، يفترض فيك أن تتفحّصه، وتشرّحه، وتعيده مجدّداً إلى الحياة. قطعة سلك، غطاء قنينة، لوح خشبي غير محطّم من صندوقٍ مسحوق ـ إنّه لا ينبغي إهمال أيّ من هذه الأشياء. كلّ الأشياء تتداعى، ولكن ليس كلّ جزء من كلّ شيء، على الأقلّ ليس في الوقت ذاته. عملك هو التّصويب بدقّة في جُزُر الأشياء السليمة هذه الضئيلة، وتخيُّلُها منضمّة إلى جُزر أخرى، وهذا لخلق أرخبيلات جديدة للمادّة. وينبغي أن تنقذ ما هو قابل للإنقاذ، وأن تتعلّم أن تتجاهل البقيّة. والبراعة هي في القيام بذلك بأسرع ما يمكن.

شيئاً فشيئاً أصبحت غنائمي ملائمة تقريباً. بقايا بالطّبع، ولكن بعض أشياء غير متوقّعة كلّياً كذلك، مثل تليسكوب قابل للطيّ بعدسة محطَّمة، قناع مطاطيّ لفرانكشتاين، عجلة درّاجة، آلة كاتبة سيريليّة فاقدة خمسة مفاتيح ووحدة الفسحات، وجواز سفر لرجل يُدعى كوين. هذه الكنوز عوّضت عن بعض الأيّام السّيِّئة، ومع تقدُّمِ الزّمن تحسّن عملي إلى درجة مرضية عند وكالات التّرميم، وتسنّى لي إبقاء مدّخراتي غير ممسوسة. وكان من الممكن أن أنجز عملاً أفضل، على ما أظنّ، إلاّ أنّه كان ثمّة خطوط لم أتخطّها، حدود رفضت تجاوزها. منها لمس الموتى على سبيل المثال. إنّ تجريد الجثث من ملابسها ومقتنياتها أحد أكثر العوامل مربحاً في الكناسة، وقلّة بين صائدي الأشياء هم الّذين لا ينقضّون مغتنمين الفرصة. ولطالما خالجني شعور بأنّي غبيّة، فتاة صغيرة ثريّة وموسوسة لم تعد ترغب في الحياة، غير أنّ شيئاً لم ينفع في الواقع. حتّى إنّي لمرّة أو اثنتين أوشكت أن أفعل ـ ولكن حين وقفت فعلاً في مواجهة الأمر افتقدت

الشَّجاعة. أذكر امرأة عجوزاً وفتاة مراهقة انحنيتُ بخوفٍ فوقهما مُذْنِبة يديّ من جسديهما، محاولة إقناع نفسي بأنّ الأمر غير ذي أهميّة. وبعدها في شارع لامبشايد في أحد الأيّام باكراً في الصباحِ كان طفلٌ صغيرٌ في حوالَيْ السَّادسة من العمر. كلُّ ما في الأمر أنّي لم أستطع إجبار نفسي على القيام بذلك. ليس الأمر أنّي كنت فخورة بأن اتخذت قراراً أخلاقيّاً عميقاً. كلّ ما في الأمر أنّي لم أكن أمتلك في ذاتي ما يمكّنني من الابتعاد إلى ذاك الحدّ.

شيء آخر سبّب لي الأذيّة، هو أنّي انزويت فلم أختلط بالكنّاسين الآخرين، ولم أقم بأيّ جهد لأصادق أيّ واحد. أنت بحاجة إلى حلفاء على كلٍّ حال، وخصوصاً لحماية نفسك من الصّقور الجشعة - وهم الكنّاسون الّذين يكسبون عيشهم بالسّرقة من الكنّاسين الآخرين. المفتّشون لا يعيرون أيّ اهتمام لهذا السلوك القذر، مركّزين فقط على أولئك الّذين يكنّسون من غير إجازة. فبالنّسبة إذاً للكنّاسين الأصليّين فإنّ هذا العمل مشاع، وفي حال مستديمة من الانقضاضات، والانقضاضات المضادّة، يخالجك شعور بأنّه يمكن أن يصيبك أيّ مكروه في أيّ وقت كان. كانت غنائمي تسلب بمعدّل ما يقارب المرّة في الأسبوع، ووصل بي الأمر إلى درجة أنّي بدأت أحسب هذه الخسارات مسبّقاً، كما لو أنّها كانت جزءاً طبيعيّاً من العمل. وبمعيّة بعض الأصدقاء كان يمكن أن أتحاشى بعض هذه الغارات. ولكن على المدى الطّويل لم يبدُ لي أنَّ الأمر يستحقّ ذلك. كان الكنّاسون زمرة منفِّرة، الصّقور الجشعة منهم وغير الجشعين على حدٍّ سواء. وكان مجرّد الاستماع إلى خططهم، إلى تبجّحهم وكذبهم، يشعرني بالغثيان. والشّيء المهمّ هو أنّي لم أفقد قطّ عربتي. تلك كانت أيّامي الأولى في المدينة، وكنت لاأزال قويّة كفاية لأحتملها، وسريعة

بما يكفي لأندفع كالسّهم هاربةً من المخاطر كلّما اضطررت لذلك.

أصغِ إليّ بأناة. أعرف أنّي أشرد أحياناً عن الموضوع، ولكن إذا لم أكتب الأشياء كما تحدث لي أحسستُ أنّي سأفقد أثرها للأبد. لم يعد دماغي تماماً ما كان عليه سابقاً. إنّه الآن أبطأ، بليد وأقلّ فطنة، وصار ينهكني حتّى التتبّع العميق لأبسط الأفكار. هكذا يبدأ الأمر، وبعدئذ، وعلى الرّغم من جهودي، تحضر الكلمات فقط عندما يراودني أنّي لن أتمكّن من إيجادها البتّة، في اللّحظة الّتي أيأس فيها من استرجاعها. كلّ يوم يجلب معه العناء نفسه، الفراغ عينه، والرّغبة ذاتها في النّسيان، وبعدها في عدم النّسيان. وحين يبدأ، لا يبقى البتّة أيّ مكان غير هنا، لا مكان إطلاقاً إلّا هذا الحدّ الّذي يشرع القلم بكتابته. تبدأ القصّة وتتوقّف، تتقدّم ثمّ تتيه، وبين كلّ كلمةٍ وأخرى، كم من سكنات، وكم من كلمات تنفلت وتضمحلّ ولا تُشاهد مجدّداً أبداً.

لزمنٍ طويل حاولت أن لا أتذكّر أيّ شيء، حاجزةً أفكاري في الحاضر. كنت قادرة بشكلٍ أفضل على التدبّر، وقادرة بشكلٍ أفضل على تحاشي العبوس. إنّ الذّاكرة هي الفخّ الأعظم، أتفهم، وقد بذلت قُصارى جهدي لأمسك نفسي، لأبعدها، لأتأكّد من عدم تسلُّل أفكاري إلى الأيّام الغابرة. ولكنّي كنت أنزلق بعد ذلك كلّ يومٍ أكثر قليلاً على ما يبدو، وهناك الآن أوقات ما عدت أصرفها فيها عن ذهني: ذكريات عن والديّ، عن ويليام، وعنك. لقد كنت شابّة جامحة، أوَلم أكن كذلك؟. لقد كبرت سريعاً جدّاً وبشكلٍ غير مناسب لي، ولم يكن في وسع أيّ شخص أن يخبرني شيئاً لم أكن أعرفه من قبل. أستطيع الآن أن أفكّر فقط كيف سبّبت الأذيّة

لـوالديّ، وكيف بكت أمّي حين قلت لها إنيّ راحلة. وكـأنّـه لم يكن يكفيهـما أن فقـدا ويليـام من قبـل، حتّى يفقـداني أنـا الآن أيضـاً. أرجـوك ـ إذا شاهـدت والديّ فقـل لهما إنيّ آسفـة. أنا بحـاجـة لأن أعرف أنّ أحداً سيفعل ذلك من أجـلي، وليس من أحدٍ أعتمـد عليه سواك.

أجل، هناك أشيـاء كثيرة أنـا خجلة من قيامي بهـا. في أوقاتٍ مـا تبدو حياتي لا شيء سوى سلسلة من النّدم، من الخيـارات الخاطئـة، من الأغلاط المتعذّرة الإلغاء. وهذه هي المشكلة حين تبدأ بالتأمُّـل في الماضي. ترى نفسك كما كنت، وتنفـر. غير أنّ زمن الاعتـذارات قد فـات الآن، وأنـا أدرك ذلـك. لقـد فـات الأوان لكـلّ شيء ســوى الانسجام مع هذه الأمور. هـذه هي الكلمات إذّاك. وسوف أحـاول عاجلاً أو آجلاً قول كلّ شيء، ولا يهمّ كيف سيكون تسلسل الزمن، أو إذا كان الأمر الأوّل هو الثاني، أو كان الأمر الثاني هو الأخـير. كلّ هذا يدوّم معاً في رأسي، وبالكدّ تثبت عند أمرٍ واحدٍ وقتاً كافياً لتعتبره انتصاراً. وإذا كان هذا يربكك فأنا آسفة. ولكن لا خيار لديّ. عليّ أن أتعامل مع هذه الأمور بأكثر ما بوسعي من دقّة وصرامة.

وتابعت تقول: لم أعثر أبداً على ويليام. وقـد يكون هـذا من نافلة القول. لم أجده البتّة، ولم ألتقِ قطّ أحداً في استـطاعته أن يـدلّني على مكان وجوده. المنطق يقول لي إنّه ميِّت، ولكن ليس بوسعي أن أكون واثقـة من هذا. ليس هنـاك أيّ إثبات ليـدعم حتّى أكثر التخمينـات جموحاً، وإلى أن أحصل على إثبـاتٍ ما فـإنيّ أفضّل أن أبقى منفتحـة الذهن. فمن غير معرفة لا يستـطيع المـرء لا أن يأمـل ولا أن ييأس.

وأفضل ما في وسع المرء أن يفعله هـو الشّك، وإنّ الشّـك تحت وطأة هذه الظروف لهو نعمة عظيمة.

وحتّى لو كان ويليـام في المدينـة، فمن الممكنّ أن يكون في مكـانٍ غير هذا. هذه البلاد شـاسعة كـما تعرف، ولا يمكن أن تحـزر إلى أيّ مكان كان قد توجّه. وراء المنطقة الزراعيّة في الغرب، هناك كما يُظَنّ بضع مئات الأميال الصحراويّة. ويُحكى على أيّة حال عن مدن أخرى وراء ذلك، عن سلاسل جبال، عن مناجم ومصانع، عن مقاطعـات شـاسعة تنبسط عـلى طول الـطّريق إلى محيطٍ ثـانٍ. ربّمـا هنـاك بعض الحقيقة في هذا الكلام. وإن كان كذلك، فلربّما حاول ويليام امتحان حظّه في واحدٍ من تلك الأمكنـة. لست أنسى كم هي شاقّـة الحياة في المدينة، غير أنّنا نعـرف كلانـا تمامـاً كيف كان ويليـام. فلو كان ثمّـة احتمال ضئيل بالإفلات، فسوف يجد الطّريقة بالتأكيد.

أنا لم أخبرك هذا قطّ، ولكن في وقتٍ ما خـلال آخر أسبـوع لي في الدِّيار، التقيت رئيس تحرير صحيفة ويليام. لا بدّ أنّ ذلك كـان قبل ثلاثة أو أربعة أيّام من توديعي لك، وكنت قـد تجنّبت إطلاعـك على ذلك، لأنّي لم أرغب في أن نتشاجر من جديد. كانت الأمور سيِّئة بمـا فيه الكفاية كما كانت، وكان ذلك سيفسد تلك اللّحظات الأخيرة الّتي كـانت لنـا معـاً. لا تغضب منّي الآن، أرجـوك. أخشى أن ليس بمقدوري تحمُّل هذا.

اسم رئيس التّحـرير كـان بوغـات. رجل أصلع الـرأس، منتفـخ البـطن، يتّخذ حمّـالتي بنطال قـديمتي الطراز، ويعلّق سـاعـة في جيب بنطلونه. لقد ذكّرني بجدّي: كان منهمكاً، يلعق أطراف أقلامه قبـل أن يكتب، ينضح صَدَقة متفانية تشوبها الحذاقة، لطافة حجبت قسوة

خفيّة. انتظرت ساعة تقريباً في غرفة الانتظار. وحين أصبح أخيراً مستعدّاً لاستقبالي قادني بمرفقي إلى داخل غرفته وأجلسني على كرسيّه واستمع إلى قصّتي. لعلّي تحدّثت طوال خمس أو عشر دقائق قبل أن يقاطعني. قال إنّ ويليام لم يبعث أيّ برقيّة منذ أكثر من تسعة أشهر. أجل كان يعرف أنّ الأجهزة معطّلة في المدينة، ولكن هذا كان أمراً آخر. فالصّحافيّ الجيّد يتمكّن في جميع الظّروف من إرسال تحقيقه - وكان ويليام أفضل مراسل صحفي لديه. إنّ صمت تسعة أشهر لم يكن يعني سوى شيء واحد، وهو أنّ ويليام في مأزقٍ ولن يعود. قال ذلك بفظاظة ومن غير مراوغة. وهززت كتفيّ وقلت له إنّ كلامه مجرَّد افتراض.

قال: «لا تفعلي ذلك أيّتها الفتاة الصغيرة، فمن الجنون أن تذهبي إلى هناك».

أجبته: «لست فتاة صغيرة. عمري تسع عشرة سنة، وفي مقدوري تدبُّر أمري أفضل ممّا تظنّ».

«لا آبه إن كنت في المئة. لا أحد ينجو من هناك. إنّها نهاية هذا العالم الملعون».

كنت أعلم أنّه محقّ. ولكنّني كنت قد عقدت النّيّة، ولم يكن شيء ليجبرني على تبديل قراري. وإزاء عنادي أخذ بوغات يُعَدِّل تكتيكاته.

قال: «اسمعي. أرسلت رجلاً إلى هناك قبل حوالي خمسة أشهر. ومن المفترض أن تصلني أنباء منه قريباً، فلماذا لا تنتظرين إلى ذلك الحين؟. قد تحصلين على كلّ الأجوبة من غير أن تضطرِّي إلى الرحيل.

«ما علاقة ذلك بشقيقي؟».

«إنَّ ويليام هو جزء من المسألة أيضاً. فإذا أنجز هذا المراسل مهمّته، فسوف يكتشف ما حصل له».

لكنّ ذلك لم يكن لينجح، وكان بوغات يعرف ذلك. وتشبَّثت برأيي مصمّمة على مواجهة سلوكه الأبويّ المعتدّ. وبدا وكأنَّه يستسلم شيئاً فشيئاً. أفصح لي عن اسم الصحافيّ الجديد من غير أن أسأله ذلك. وبعد ذلك قام بخطوة ودودة أخيرة، إذ فتح درج خزانة أرشيف خلف المكتب، وأخرج منه صورة شاب.

ألقاها على طاولة المكتب قائلاً: «ربَّما ينبغي أن تأخذي هذه معك. قد تحتاجينها».

كانت صورة المراسل الصحفيّ. ورمقتها سريعاً، ثمَّ دسستها في حقيبتي لأرضيه. وكان هذا خاتمة حديثنا. كان اللّقاء مبارزة متساوية، لم يستسلم فيها أيّ منّا للآخر. وأظنّ أنّ بوغات كان حانقاً ومعجباً بي في آنٍ واحد.

قال: «تذكّري فقط أنّي أنذرتك».

قلت: «لن أنسى. وعندما أرجع بويليام سأزورك وأذكّرك بحديثنا هذا».

كان بوغات على وشك التلفّظ بشيء آخر، ثمّ بدا وكأنّه آثر الصّمت. وأطلق تنهّدة وضرب برفق براحتيْه على الطّاولة ووقف أمام كرسيّه وقال: «لا تسيئي فهمي. أنا لست ضدّك. كلّ ما في الأمر أنّي أعتقد أنّك ترتكبين خطأ. هناك فرق كما تعرفين».

«قد يكون هناك فرق في الواقع. ولكن يبقى خطأ في جميع

الأحوال عدم القيام بأيّ شيء. النّاس بحاجة إلى وقت ليتصرّفوا. ولا ينبغي أن تعجّل بالاستنتاجات قبل أن تفقه ما تتحدّث عنه».

قال بوغات: «هنا المعضلة. أنا مدرك تماماً ما أتحدّث عنه».

لعلّنا عند تلك النّقطة بالذّات تصافحنا، أو ربّما حدّق أحدنا بالآخر فقط عبر الطاولة. ثمّ رافقني عبر غرفة الصحافة وللخارج إلى المصاعدِ في الرّواق. وانتظرنا هناك ساكنيْن، حتّى من النّظر أحدنا إلى الآخر. وكان بوغات يتأرجح جيئة وذهاباً على كعبيه مُهَمْهِماً من غير نغم بخفوت. وما إن انفتحت البوّابتان ووطأت داخل المصعد حتّى قال لي بسأم: «أتمنّى لك حياة طيِّبة يا فتاتي الصّغيرة». وقبل أن يتسنّى لي إجابته انقفل البابان، وكنت أنحدر نزولاً.

في النّهاية، كان لتلك الصّورة الفوتوغرافيّة أعظم الأهميّة. لم أكن حتّى مصمِّمة على حملها معي، غير أنّي دسستها بين حاجياتي في الدّقيقة الأخيرة. وكانت تقريباً فكرة تَلَوِيّة. إلى تلك اللّحظة لم أكن أعلم بالطّبع أنّ ويليام اختفى. وكنت أتوقّع أن أجد بديله في مكتب الصحيفة، وأن أبدأ بحثي انطلاقاً من هناك. إلاّ أنّ شيئاً لم يجرِ كما خطّطت. وإذ وصلت إلى المنطقة السكنيّة الثالثة وشاهدت ما كان قد حدث لها، فقد أدركت أنّ هذه الصورة أضحت بغتة الشّيء الأخير المتبقّي. لقد كانت صلة الوصل الأخيرة بويليام.

كان اسم الرجل صموئيل فار، وسوى ذلك لم أكن أعرف أيّ شيء عنه. كنت قد تصرّفت بغطرسة بالغة مع بوغات إلى حدّ منعني من سؤاله عن أيّة تفاصيل أخرى، والآن ليس بحوزتي غير القليل النفيس لأتابع. اسم ووجه، كان هذا كلّ شيء. وكنت وفّرت على نفسي عناءً كبيراً لو أنّي تصرّفت بتواضعٍ وسلوكٍ لائق. وفي النّهاية

قدّر لي أن ألتقي سام، غير أنّ الفضل في ذلك لا يعود البتّة إليّ. كان نتيجة ضربة حظّ مجرّدة، واحدة من لقيات الحظّ الّتي تهبط عليك من السّماء. وكان قد مضى زمن طويل قبل حدوث ذلك ـ زمن أطول من أن أرغب في تذكّره.

الأيّام الأولى كانت هي الأقسى. جلت في الأرجاء مثل مُسَرْنم، غير عارفة أين أنا، لا أجرؤ حتّى على التّحدث إلى أحد. وفي مرحلة ما بعت حقائبي إلى وكيل ترميم، وقد أمّن لي ذلك العملُ الطّعامَ لمتّسعٍ غير قليل من الوقت، ولكن حتّى بعد أن بدأت العمل ككنّاس لم يكن لديّ مسكن أعيش فيه. نمت في العراء في مختلف أنواع الطّقس، مفتّشةً كلّ ليل عن مكان مغاير للنّوم. ويعلم الله كم استمرّت تلك الحقبة، ولكنّها كانت بدون أدنى ريب الأسوأ، وهي الّتي أوشكت أكثر ما يمكن أن تقضي عليّ. أسبوعان أو ثلاثة بأقلّ تقدير، وربّما ما يضارع بتقدير آخر عدّة أشهر. كنت شديدة البؤس إلى حدٍّ بدا معه دماغي وكأنّه توقّف عن العمل. كنت متلبّدة الحسّ، كلّي غرائز وأنانيّة. أمورٌ مخيفة حدثت لي عندئذ، ولاأزال أجهل كيف قدّر لي عبور تلك المرحلة والبقاء على قيد الحياة. كدت أتعرّض للاغتصاب من قبل أحد رجال عصابات الجزية عند منعطف محلّة ديكشيناري وبولڤار مالدون. وسرقت طعاماً من رجل عجوز حاول سلبي في إحدى اللّيالي في ردهة مسرح «المنوّم المغناطيسيّ» القديم. انتزعت العصيدة من يديه ولم أشعر بأيّ أسف حيال الأمر. لم يكن لديّ أصدقاء، لا أحد أحدّثه، لا أحد أشاركه طعاماً. ولا أعتقد أنّي كنت نجوت لولا صورة سام. فمجرّد علمي بوجوده في المدينة منحني أملًا ما. وبقيت أردّد لنفسي، هذا هو الرّجل الّذي سيعينك، وسوف

يتغيّر كلّ شيء حالما تلتقينه. ولا ريب أنّي كنت قد انتزعت الصّورة من جيبي مئة مرّة في اليوم الواحد. وبعد فترة أمست متجعّدة وملتوية إلى درجة أضحى معها الوجه غائباً تقريباً. ولكن خلال ذلك الوقت كنت أعرفها عن ظهر قلب، والصّورة نفسها لم تعد ذات أهمّيّة. لقد حفظتها معي كتعويذة، كترسٍ صغير جدّاً لصدّ اليأس.

ثمّ تبدّل حظّي. حصل ذلك بأقرب تقدير بعد شهر أو اثنين من شروعي بالعمل كصائدة أشياء، على الرّغم من أنّ هذا مجرّد افتراض. في أحد الأيّام كنت ماشية عبر ضواحي المنطقة السكنيّة الخامسة، قرب الموضع الّذي كانت فيه ساحة فيلامنت ذات مرّة. وإذ بي أشاهد امرأة طويلة في أواسط العمر تدفع عربة تسوّق فوق الحجارة، متخبّطة عبرها ببطء وارتباك، وكان واضحاً أنّ أفكارها لم تكن مركّزة على ما كانت تفعله. كانت الشّمس متلألئة ذاك النّهار، وكانت من النّوع الّذي يبهرك ويجعل الأشياء غير مرئيّة، وكان الهواء ساخناً، أذكر ذلك، ساخناً جدّاً إلى درجة التّسبُّب بدُوار. وما إن استطاعت المرأة الوصول بعربتها إلى وسط الشّارع حتّى هجمت بصورة مفاجئة فرقة من العدّائين من وراء المنعطف. كانوا اثني عشر أو خمسة عشر منهم، وكانوا يركضون بسرعة فظيعة، متلاصقين بعضهم إلى بعض، وزاعقين لحن الموت المفعم بالنّشوة الخاصّ بهم. ورأيت المرأة ترفع نظرها مُحدِّقة فيهم، كما لو أنّها انتزعت بغتة من حلم يقظتها، ولكن بدل أن تندفع معجّلة مبتعدة عن طريقهم، تجمّدت في موضعها، واقفة مثل غزالة منذهلة وقد سمّرتها كشّافات سيّارة. ولسببٍ ما، وحتّى الآن أجهل لِمَ فعلت ذلك، حللت قيد «الحبل السُّرّيّ» من خصري، وانطلقت من حيث كنت وأمسكت المرأة مثبّتة إيّاها بذراعي. ثمّ جررتها إلى خارج الطّريق قبل ثانية أو

اثنتين من مرور العدّائين. وكان الأمر سريعاً إلى هذا الحدّ. فلو لم أقم بذلك فلربّما كانت سحقتها الأقدام حتّى الموت.

وهكذا التقيت إيزابيل. ومهما يكن فإنّ حياتي الحقيقيّة في المدينة بدأت عند تلك اللّحظة بالذّات. كلّ الأشياء الأخرى ليست سوى تمهيد، حشد خطوات مترنّحة، من النّهارات واللّيالي، ومن أفكار لم أعد أذكرها. فلو لم تكن تلك اللّحظة المنعدمة المنطق في الشّارع، لما كانت القصّة الّتي أرويها لك الآن هي إيّاها. ونظراً للحالة الّتي كنت فيها خلال ذاك الوقت، فإنّي أشكّ في أنّه كان سيكون هناك قصّة على الإطلاق.

تمدّدنا هناك في القناة، ونحن مانزال متعلّقتين إحدانا بالأخرى. وإذ توارى آخر العدّائين وراء المنعطف فقد ظهر أنّ إيزابيل كانت قد استوعبت تدريجيّاً ما حدث لها. قعدت، تطلعت حولها، تطلّعت إليّ، وبعدئذٍ وببطء شديد بدأت تبكي. وكانت تلك لحظة إدراك فظيعة بالنّسبة إليها. لأنّها كانت قد أوشكت أن تُقتل، ولكن لأنّها لم تعرف أين كانت. وشعرت بالأسف تجاهها، وبخوف قليل أيضاً. فمن كانت هذه المرأة النّحيلة المرتعدة ذات الوجه الطويل والعينين الغائرتين. وما الّذي كنت أفعله منبطحةً إلى جانبها في الشّارع؟ لقد بدت نصف مجنونة، وما إن التقطت أنفاسي حتّى كان أوّل حافزٍ اعتراني هو الفرار.

قالت مادّة يدها بحذر نحو وجهي: «آه يا طفلتي العزيزة. آه يا عزيزتي الطّيّبة، يا طفلتي الصّغيرة، لقد جرحت نفسك. تهبّين لمساعدة امرأة عجوز وأنت من يُصاب بالأذى أَوَ تعلمين سبب هذا؟ لأنّني طالعُ شُؤم. الجميع يعرف هذا، غير أنّهم يكرهون أن يقولوا لي

ذلك. لكنّي أعرف. أعرف كلّ شيء، حتّى لو لم يقل لي أحد.»

كنت قد انخدشت بحجرٍ ما حينما سقطت، وكان الدّم يسيل من صدغي الأيمن. ولكن لم يكن ذلك خطراً، ولا داعياً للجزع. وكنت على وشك التلفّظ بكلمة وداع والمغادرة حين أحسست بشيء من وخز الضّمير حيال تركها. ربّما وَجَبَ أن أصحبها إلى منزلها، هكذا تبادر لي، لأتأكّد من عدم تعرضّها لحادث آخر. وأعنتُها لتقف على قدميها واستردَدْتُ العربة من وسط السّاحة.

انبرت قائلة: «إن فرديناند سوف يستشيط غضباً منّي. هذا ثالث يوم على التّوالي أعود صفر اليدين. بضعة أيَّام كهذه، وسوف ينتهي أمرنا».

قلت: «أظن أنّه ينبغي أن تعودي إلى المنزل على كلِّ حال. فلستِ الآن في حالة تسمح لك بالتّجوال دافعة العربة».

«ولكن فرديناند، سوف يجنّ جنونه حين يراني خالية الوفاض».

قلت: «لا تجزعي، سوف أشرح له ما حدث».

لم تكن لديّ أيّة فكرة عمّا كنت أقوله، ولم يكن بمستطاعي السّيطرة على ذلك: ثمّة فورة مباغتة للشّفقة، حاجةٌ ما غبيّة للاعتناء بهذه المرأة. قد تكون القصص القديمة عن إنقاذ حياة شخص ما صحيحةً. يُقال إنّه ما إن يحدث أمرٌ حتّى تصبح مسؤولاً عن الشّخص، وسواء رضيت بذلك أو لم ترضَ فإنّ أحدكما يصبح ملك الآخر، وإلى الأبد.

اقتضتنا العودة إلى منزلها ثلاث ساعات تقريبا. وفي ظروف اعتياديّة كان يمكن أن يستغرق ذلك نصف الوقت فقط. ولكنّ

إيزابيل كانت تسير ببطء شديد، بخطى مضطربة بحيث وصلنا وكانت الشّمس قد غربت. لم تكن تمتلك ما يسمّى بـ «الحبل السُّري» (قالت إنّها فقدته قبل بضعة أيّام)، وكانت العربة تفلت من يديها بين حين وحين وتندفع منحدرة في الطّريق. وفي إحدى المرّات كاد أحدهم ينتزعها منها. وعند ذلك قرّرت أن أبقي إحدى يديّ على عربتها والأخرى على عربتي، وهذا أبطأ تقدّمنا أكثر فأكثر. تقدّمنا عبر تخوم المنطقة السكنيّة السادسة منحرفتين ومتجنّبتين جماعات متاريس الجزية عند جادّة «الذاكرة»، ودلفنا بعدئذ عبر منطقة «الوزارة» في شارع «الهرم» حيث ثكنات الشّرطة. وقد روت لي إيزابيل أشياء كثيرة عن حياتها. كان زوجها يوماً رسّام إعلانات تجاريّة، وأضافت أنّه بسبب توقّف العديد من المؤسّسات، أو عدم قدرتها على تغطية مصاريفها، فقد مرّت سنوات عديدة وفرديناند بدون عمل. ولقد أدمن الشّراب بشكلٍ كثيفٍ لفترة، وكان يسرق المال من حقيبة إيزابيل أثناء اللّيل لتأمين نفقة إسرافه، أو يتسكّع عوضاً عن ذلك حول معمل التّقطير في المنطقة السكنيّة الرابعة متسوّلاً جرعات من العمّال مقابل الرّقص لهم وإخبارهم النّكات - إلى أن قامت مجموعة من الرّجال في أحد الأيّام بضربه، ولم يعد يخرج بعدها أبداً. وهو الآن يرفض التزحزح، قاعداً في شقّتهما الصّغيرة طوال الأيّام، يتكلّم نادراً، ولا يأبه البتّة بمسألة استمرارهما. وقد ألقى تبعة الأمور العمليّة على كتف إيزابيل، إذ إنّه ما عاد يعتبر هذه التفاصيل مثيرة للاهتمام. والشّيء الوحيد الّذي يهتمُّ به الآن هو هوايته، وهي صنع سفن مصغّرة ووضعها داخل قَنانٍ.

قالت إيزابيل: «إنّها بمنتهى الروعة، وتكادين ترغبين بمسامحته على سلوكه. سفن صغيرة رائعة، بارعة الصّنع وصغيرة. إنّها تجعلك

ترغبين بـالتّقلص أنت نفسك إلى حجم دبُّـوس، ثمَّ التّسلُّق إلى متنها والإبحار إلى البعيد».

تابعت تقول: «إنَّ فرديناند فنَّان. ولقد كان مزاجيّاً حتّىً في الأيّـام الغابرة، رجـلاً من الصّنف الّذي لا يمكن تـوقُّع ردّات فعله. مـرتفعَ المعنويَّات في دقيقة ما، ومحطّماً في الدّقيقة التّالية، هناك على الدّوام مـا يمكن أن يحـوّل قـراره إلـى اتّجـاهـات مغـايـرة. ولكن كـان ينبغي أن تشـاهدي الإعـلانات الّتي كـان يرسمهـا!. الجميـع كـان يـرغب في استخدام فرديناند، ولقد قام بأشغالٍ لمختلف أنواع المتاجـر، متاجـر مشروبات، محلاّت بقالة، محلاّت جواهـر، حانـات، مكتبات، كـلّ شيء. كـان يمتلك وقتذاك مكـاناً للعمـل خاصّـاً به، هنـاك تمامـاً في منطقة المستودع أسفل المدينة، وهي بقعة صغيرة بـديعة. غـير أنّ كل هـذا ضـاع الآن، المناشر، فـراشي الـطلي، دلاء الألـوان، روائـح الـورنيش والنّشارة. كـلّ هذه حُصِـدتْ إبّـان حملة التّـطهـير الثـانيـة للمنطقة السكنيّة الثامنة، وكان هذا خاتمة الأمر.

لم أفقه نصف ما قالته إيزابيل. ولكن عبر قراءتي ما بين السّـطور، ومحاولة ملء الثّغرات بنفسي، استنتجت أنّها كانت قد أنجبت ثـلاثة أو أربعـة أطفال انتهى بهم الأمـر إمّا بـالموت وإمّـا بالفـرار من المنـزل. وبعدما فقد فرديناند عمله تحوّلت إيزابيل إلى كنّاسـة. وقد تتـوقّع من امرأة في سنِّها أن تعمل كملتقطة قاذورات، غير أنّ الأمر يبدو عجيبـاً لأنّها اختارت صيد الأشياء. وقد فاجأني ذلك لأنّه أسوأ احتمالٍ بـين الاختيارات. فلم تكن سريعة، ولا حذقة، ولا كـانت تمتلك الطّاقـة الضروريّة. أجل، قالت، كانت تعرف كلّ هذا، ولكنّها استعـاضت عن كلّ نواقصهـا بميّزات أخـرى مغايـرة ـ ومنها مـوهبة غـريبة لمعـرفة

أمكنة التوجّه، وغريزة لاكتشاف أشياء في أماكن مهملة، ومغناطيس داخليّ كان يوجّهها بطريقة ما إلى البقعة المناسبة. وليس بمقدورها هي نفسها تفسير هذا، والواقع أنّها استطاعت العثور على لقيات مذهلة، منها كيس ملابس داخليّة بمشدّات ملآن، فاستطاعت أن تعيش هي وفرديناند بواسطته قرابة الشّهر. وأيضاً آلة ساكسوفون بحالة ممتازة، وعلبة كرتون مختومة ومليئة بالأحزمة الجلديّة الجديدة (مباشرة من المعمل كما بدا عليها، على الرّغم من أنّ آخر معمل لصناعة الأحزمة أقفل منذ أكثر من عشر سنوات)، وكذلك إنجيل قديم مطبوع على ورق الرّز، جِلْدته من جلد العجل، وصفحات ذهبيّة الأطراف. ولكن هذا كان منذ زمن بعيد، هكذا فسّرت، وقد فقدت لمستها السّحريّة طوال الأشهر السّتة الفائتة. كانت منهكة، وأشدّ تعباً من أن تستطيع البقاء واقفة على قدميها طويلاً. وإن عقلها يجول حاليّاً وباستمرار، شارداً بعيداً عن عملها. تجد نفسها تقريباً يوميّاً عابرة شارعاً لا تعرفه، أو ملتّفة حول منعطف من غير أن تفقه أين كانت للتّو، أو داخلة حيّاً ظانّة أنّه موجود في مكانٍ آخر. «كانت صدفة وجودك معجزة»، انبرت قائلة بينما توقّفنا لتستريح أمام إحدى البّوابات. وأردفت: «غير أنّ ذلك لم يكن مجرّد صدفة. كنت قد صلّيت للربِّ فترة مديدة، وكان لا بدّ أن يبعث إليّ أحداً ما لينقذني. أعرف أنّ النّاس ما عادوا يتحدّثون عن الرّبّ، لكنّني لا أستطيع أن أتمالك نفسي عن أن أفكّر فيه كلّ يوم، أصلّي لأجله ليلاً حين يغفو فرديناند، أتحدّث إليه في قلبي طوال الوقت. ولمّا لم يعد فرديناند يتحدَّث إليّ الآن إطلاقاً، فإنّ الربَّ هو صديقي الوحيد، الشّخص الوحيد الّذي يستمع إليّ. أعرف أنّه مشغول جدّاً، ولا وقت لديه لامرأة عجوز مثلي، غير أنّ الله رجل نبيل، ولقد سجّلني على

لائحته. اليوم، وبعد مدى طويل، قام بزيارتي. أرسلكِ إليّ كعلامة على حبّه. أنت الطفلة العزيزة الطّيبة الّتي أرسلها الرّبّ إليّ، والآن سوف أرعاكِ، سوف أقوم بكلٍّ ما بمقدوري من أجلك. لا نوم في العراء بعد اليوم لا طواف في الشّوارع من الصّباح إلى المساء بعد اليوم، لا كوابيس... كلّ هذا انتهى الآن، أعدك. ومادمتُ على قيد الحياة فسيكون لك مكان تسكنين فيه، ولا آبه لما سيقول فرديناند. من الآن فصاعداً سيكون لك سقف فوق رأسك وطعام لتأكلي. هكذا سوف أشكر الله على فعله.

لقد استجاب لصلواتي، والآن أنت طفلتي الصّغيرة العزيزة الطّيِّبة، حبيبتي حنّة القادمة إليّ من عند الرّب.

كان منزلهما يقع في زقاق سيركوس، في العمق داخل شبكة أحياء صغيرة، وممّرات قذرة تنشقّ داخل قلب المنطقة السكنيّة الثانية. وكانت هذه أقدم منطقة في المدينة، وكنت قد زرتها مرّة أو مرّتين فقط من قبل. كنّاسو وصيّادو الجوار كانوا هزيلي البنية. وطالما ضايقني أن آتيه في شوارعها الأشبه بالمتاهة. كانت معظم البيوت مصنوعة من الخشب وقد نتج عن ذلك عدد كبير من المظاهر المثيرة للاهتمام. وبدلَ حجارة القرميد المتآكلة، والحجارة المتفتّتة، بركامها المغلول وفضلاتها المغبرّة، بدت الأشياء هنا مائلة متدلّية، ملتوية بفعل وطأة ثقلها هي نفسها، وكأنّما تلوي نفسها بنفسها بطيئاً باتّجاه الأرض. وإن كانت الأبنية الأخرى تتقشّر متحوّلة فتاتاً، فإنّ هذه الأبنية كانت تذوي كرجالٍ هَرِمين فقدوا قواهم، ومفاصل ما عادت تقوى على الاحتمال. سقوفٌ كثيرة سقطت، ألواحٌ خشبيّة تآكلت لتمسي نسيجاً إسفنجيّاً، وكان في وسعك أن تشاهد بين مكان وآخر بيوتاً برمّتها

منحنيـة في اتّجاهـين متعاكسـين، منشعبة بشكـل متقلقل مثـل أحجام متوازية الأضـلاع عملاقـة ـ تكاد تقف عـلى أقدامهـا الأخيرة وتكفي لمسة إصبع واحدة، تنفُّس ضئيل، لرميها متحطّمة على الأرض.

العـمارة الّتي سكنتها إيـزابيل كـانت على أيّـة حال مبنيّـة بحجـارة القـرميد. كـانت مؤلّفـة من ستّ طبقـات، في كـلّ منهـا أربـع شقق صغيرة، ودرج قائم بدرجات بالية متهـادية، وطـلاء جدران متقشّر. النـمال والصّراصير جـالت غير منـزعجة، وعبق المكـان برائحـة طعام متعفّن، وملابس غير مغسولة، والغبـار. ولكنّ البناء بحـدّ ذاته بـدا متيناً إلى حدٍّ مـا، ولم أستطع التّفكـير بغير حـظّي السّعيد. لاحظ كم أنّ أحوالنا تتبدّل بسرعة خارقة. لـو كان أحـدهم قال لي من قبـل إنّ هذا سيكون موضع سكني، لما كنت صدّقتـه. غير أنّي الآن شعـرت بأنّه مُنْعِم عليّ، وكأنّما هو هديّة عـظيمة مُنِحْتُهـا. القذارة والـرّاحة في النّهـاية مصـطلحان متّصـلان. بعـد ثـلاثـة أو أربعـة أشهـر فقط من وصولي إلى المدينة، كنت قد غدوت مستعدّة لقبول منزلي الجـديد من دون أدنى تردّد.

لم يثر فرديناند ضجّـة كبيرة حـين أعلنت إيزابيـل أنّي سوف أنتقـل للسّكن معهـا. تكتيكيّاً، أعتقـد أنّها تطرّقت إلى المسـألـة بـالـطّريقـة الصّائبة. لم تطلب منه إذناً للسّماح لي بالإقامة هناك، لقد أبلغته بكـلّ بساطة أنّ هناك ثلاثة أشخاصٍ في المنزل الآن عوضـاً عن اثنين. ولّما كان فرديناند قد تخلّى عن كـلّ القرارات العمليّـة لمصلحة زوجتـه منذ وقت طـويل، فقـد كانت مسـألة فـرض سلطته في مجـال واحـد أمـراً صعباً، إن لم يسلّم ضمناً بضرورة تولّي مسؤوليّات إضافيّة في مسـائل أخرى. ولم تأتِ إيزابيل على ذكر الله في تطرّقها للموضوع، كما كانت

قد فعلت معي. قدَّمتْ له رواية تقريريّة للواقائع، مُخْبِرة إيّاه كيف أنقذتها، مضيفة التّفاصيل المتعلّقة بالمكان والزَّمان، ولكن من غير توابل ولا أيّ تعليق. وأنصت إليها فرديناند بصمت، متظاهراً بعدم الانتباه، مصوِّباً إليّ بين الأحايين اختلاسة نظر، ولكن محدِّقاً معظم الوقت فقط إلى الأعلى باتّجاه النّافذة، متظاهراً كما لو أنْ لا شيء من هذا يعنيه. حين فرغت إيزابيل من الكلام، بدا وكأنّه يتأمّل المسألة لبرهة، ثمَّ هزّ كتفيه بغير مبالاة. نظر إليّ مباشرة للمرّة الأولى وقال: «شيء مؤسف أنّك بذلت كلّ هذا الجهد، إذ إنّه من الأفضل لكيس العظام القديمة أن تموت». ثمّ من دون أن ينتظر جوابي انسحب إلى كرسيّه في زاوية الغرفة وجعل يتابع شغله على أنموذج السّفينة الضئيل.

لم يكن فرديناند سيّئاً إلى الدّرجة الّتي خيّل إليّ أنّه سيكون عليها، وفي مطلق الأحوال فإنّه لم يكن على الأقلّ كذلك في البداية. شخص غير متعاون، هذا بالتّأكيد، غير أنّه لم يكن فيه أيّ خبث مباشر كنت أتوقّعه. نوبات الغضب الشَّديد كانت تعتريه قصيرة الأمد، جزئيّات انفجارات، غير أنّه لم يكن يقول شيئاً معظم الوقت، رافضاً بعناد التّحدث مع أيّ كان، مكتئباً في زاويته كمخلوقٍ شاذّ وحقود. كان فرديناند رجلاً قبيحاً، ولم يكن بشأنه ما يجعلك تنسى قباحته - لا جمال، ولا كرم أخلاق ولا كياسة مُعوِّضة. كان نحيلاً كهيكلٍ عظميّ، محدودباً، يتقدّم وجهَه أنفٌ معقوف، تحت رأس نصف أصلع. الشّعر القليل المتبقّي له كان جعداً وأشعث، منتصباً بجنون وإلى جميع الجهات، وكان لبشرته امتقاع بشرة رجل مريض - بياض غير أرضيّ، وقد جعل الشّعر الأسود الّذي يكسوها كلّياً هذا البياضَ يبدو أكثر

بياضاً. شعر على ذراعيه، وعلى قدميه، وصدره. كان غير حليق الذّقن على الدّوام، ويرتدي أسمالاً، ولم أره مرّة منتعلاً حذاء. كان يبدو وكأنّه الصورة الكاريكاتوريّة لأحد متسكّعي الشواطئ. كان الأمر تقريباً وكأنّما جعله هوسه بالسّفن يلعب دور رجل منفيّ في جزيرة مقفرة. أو ربّما كان العكس. ولمّا كان متروكاً أساساً فلعلّه كان قد شرع في صنع السّفن كعلامة حزن داخليّ ـ كنداء نجدة سرّي. لكن هذا لا يعني أنه اعتبر أنّ نداءه سيستجاب. لم يكن فرديناند ليذهب مجدّداً إلى أيّ مكانٍ على الإطلاق، وكان يعرف هذا. وإبّان أحد أمزجته الأشدّ عذوبة اعترف لي مرّة بأنّه لم يَخْطُ خطوة واحدة خارج الشّقّة منذ أكثر من أربع سنوات. قال: «لا شيء غير الموت في الخارج»، وأشار صوب النّافذة، وأضاف: «هناك أسماك قرش في تلك المياه، وحيتان في مقدورها ابتلاعك. تمسّكي بالشاطئ، هذه هي نصيحتي لك، تعلّقي باليابسة وارسلي قدر ما تستطيعين من شارات الدّخان».

لم تبالغ إيزابيل في وصفها مواهب فرديناند. ومهما يكن فإنّ سفنه الصّغيرة كانت قطعاً هندسيّة مميّزة، مشغولة ببراعة مذهلة، ومصمّمة ومركّبة بإبداع، مادامت متوفّرة له المواد الكافية، وهي فضلات خشب، وورق، وغراء، وخيطان، وقنينة. بين وقت وآخر ـ كان منغمساً عميقاً في عمله ولم يكن يتسنّى له بالتّالي التسبّب بمشاكل كثيرة في المنزل. اكتشفت أنّ الطريقة الأفضل للسلوك معه كانت التّظاهر بأنّه ليس موجوداً هناك. في البداية، كنت قد تهت عن سبيلي محاولة أن أثبت له نيّاتي الطّيّبة، ولكن فرديناند كان شديد الاستنفار ومشمئزّاً بلا حدود من نفسه ومن العالم، وهكذا لم يُجْدِ سلوكي هذا

نفعاً. الكلمات اللّطيفة لم تكن تعني له أيّ شيء، بل أكثر من هذا فقد كان يحوّلها غالباً إلى تهديدات. فمرّة على سبيل المثال، ارتكبت خطأ التّصريح عن إعجابي بسفنه بصوتٍ مرتفع، وقلتُ إنّها يمكن أن تكسبه الكثير من المال إذا قرّر في أحد الأيّام أن يبيعها. غير أنّ فرديناند استشاط غضباً. قفز من كرسيّه وجعل يطوف في أرجاء الغرفة ملوّحاً بسكّينه الصّغير أمام وجهي. وصرخ قائلاً: «أبيع أسطولي. هل أنت ممسوسة؟ يتوجّب عليك أن تقتليني أوّلاً. أنا لن أتخلّى حتّى عن واحدة منها ـ إطلاقاً! هذا تمرّد، هذا هو واقع ما تقولين. عصيان! كلمة أخرى منك وسوف تطردين خارجاً!

شغفه الآخر الوحيد ظهر أنّه التقاط الفئران التي عاشت بين جدران المنزل. كان في وسعها أن تركض في الأرجاء أثناء اللّيل، قاضمة كلّ ما تعثر عليه من فتات. كانت الجلبة ترتفع أحياناً إلى حدٍّ يقطع نومنا، ولكن كانت هذه فئراناً ذكيّة، فهي ليست عرضة لأن تكون غنيمة سهلة. جهّز فرديناند فخّاً صغيراً من الشّبك السلكيّ والخشب وكان كلّ ليلة يهيّؤه بطواعية مع قطعة من الطّعم. الفخّ لم يكن يقتل الفئران. عندها كانت تطوف بحثاً عن الطّعام، كان الباب ينغلق وراءها، ويُقفل عليها داخل القفص. كان هذا يحدث فقط مرّة أو مرّتين في الشّهر، ولكن في تلك الصباحات، حين كان فرديناند يستيقظ ويكتشف وجود فأر هناك يكاد يجنّ فرحاً ـ واثباً حول الفخّ مصفّقاً بيديه، مطلقاً أصواتاً كالصّهيل الصاخب، وفي انفجار قهقهةٍ غذّانيّ. كان يلتقط الفأر بذيله، وبعدئذ، وبشكل منهجيّ، يشويه فوق لهب الموقد. كانت مشاهدة ذلك أمراً فظيعاً والفأر يتلوّى ويصيء طلباً للحياة، ولكن فرديناند ما كان يفعل غير

الوقوف هناك منهمكاً كلّياً في ما يقوم به، متمتماً ومثرثراً لنفسه عن مباهج أكل اللّحم. كان يعلن بعد انتهاء السّفع، «حفل فطور للقبطان»، وبعدها «شومب.. شومب..» ويلتهم مُرَيِّلاً وعلى وجهه ابتسامة شيطانيّة. يفترس المخلوق كلّياً وبفروته، باصقاً بعناية العظام على أسكفة النّافذة وهو يمضغ. كان يضع العظام على أسكفة النّافذة كي تجفّ. وكان يستخدمها في نهاية الأمر كقطع لإحدى سفنه، كصوارٍ، أو سواري أعلام، أو حربونات. أذكر مرّة أنّه قطّع مجموعة من أضلاع الفئران واستخدمها كمجاذيف لسفينة شراعيّة. مرّة أخرى استخدم جمجمة فأر كتمثال وركّزها فوق مقدم سكّونة للقراصنة. لقد كان ذلك عملاً رائعاً، ينبغي أن أعترف، حتّى ولو كان مجرّد النّظر إليه يثير قرفي.

وفي بعض الأيّام حين يكون الطّقس جيّداً، كان فرديناند يضع كرسيّه أمام النّافذة المشرّعة، ويمدّد وساداته فوق الأسكفة، ويجلس هناك طوال ساعات رابضاً منحنياً إلى الأمام وذقنه بين يديه ناظراً إلى الشّارع في الأسفل. كان من المستحيل أن تعرف بماذا يفكّر، لأنّه لم يكن يلفظ أبداً حرفاً واحداً، ولكنّه بين الفترات، لنقل ساعة أو اثنتين من انتهاء نوبات المراقبة هذه، كان يبدأ بالهذيان بصوتٍ ضارٍ، متقيّئاً أنهراً من الهُراء العداونيّ. كان يلغط قائلاً: «اطعنوهم كلّهم، اسحنوهم كلّهم وبعثروا الرّماد. خنازير حتّى آخر واحد منهم! هَذْهِذْني يا خصمي الجميل الرِّيش، فلن تتمكّن منّي البتّة هنا. «هاف، باف» أنا بأمان حيث أنا». زعقة بعد الأخرى، كان يبثّها متسارعة مثل سمٍّ كان قد تراكم في دمّه. كان يعنّف مهتاجاً هكذا على مدى خمس عشرة أو عشرين دقيقة، وبعدئذ على نحو مفاجئ

ومن غير إنذار على الإطلاق، كان يصمت مجدَّداً، كما لو أنّ العاصفة في داخله قد سكنت بغتة.

خلال الأشهر الّتي عشتها هناك، تضاءلت أحجام سفن فردينانـد تدريجيّاً. من قناني الويسكي وقنـاني الجعة، تقلّص عمله متحـوّلاً إلى زجاجات شراب السُّعال، وأنابيب الاختبـار، ثمَّ انحداراً إلى قـوارير العـطر الفـارغـة، إلى أن انتهى بـه الأمـر مفـبركـاً سفنـاً بـأحجـام ميكروسكوبيّة تقريباً. كان عمله غير قابل للتّصور بـالنّسبة إليّ، غـير أنّ فرديناند ما كان ليبدو متعبـاً إطلاقـاً. وكلّما تقلّص حجم السّفينة، كان يصبح أكثر تعلّقاً بهـا. مرّة أو اثنتـين، مستيقظة في الصّبـاح أبكر بقليـل من المعتاد، رأيت فعليّـاً فردينـاند قـاعداً عنـد النّافـذة، رافعاً إحدى السّفن في الهواء، لاهياً بها مثـل ولد في السّـادسة من العمـر، لافظاً أصواتاً انفجاريّة وهو يدوّمها، مديراً دفّتهـا عبر محيطٍ متخيَّـل، ومتمتماً لنفسه بأصواتٍ مختلفة، كما لو أنّه يلعب أدوار لعبـة ابتكرهـا. يا لفردیناند البائس الغبيّ. «كلّما أصبحت أصغر غدت أفضل»، قال لي هذا في إحدى اللّيالي، متباهياً بإنجازاته كفنّـان. «يومـاً ما سأصنع سفينة لن يستطيع أحد رؤيتهـا. عندئذ ستعرفين مع من تتعاطين، يـا متسكّعتي الصغـيرة المتذاكيـة. سفينة صغـيرة جدّاً ليس بـوسـع أحـد رؤيتها! سوف يكتبون كتاباً عنّي. سأمسي مشهـوراً. عند ذاك سـوف ترين الحقيقة يا فتاتي الصّغيرة الوقحـة الشّرّيرة. لن تعـرفي البتّة مـاذا أصابك. ها، ها! لن تمتلكي حتّى مفتاحاً واحداً!

عشنا في غرفةٍ واحدةٍ متـوسِّطة الحجم، مسـاحتها حـوالي الخمس عشرة إلى العشرين قـدماً. كـان هناك مغسلة، ومـوقد صغـير للطبخ خاصّ بمخيَّمات العطلات، وطاولـة، وكرسيّـان ـ ولاحقاً ثـالث ـ وفي

إحدى الزوايا قِذْرٌ بيتيّـة مفصولـة عن بقيّة الغـرفة بقـماشة رقيقـة. كان فرديناند وإيزابيل ينامان منفصلين، كلّ منهما في زاوية مختلفـة، وأنا في الزاوية الثالثة. لم تكن هناك أيّة سرائر، لا شيء سوى مـلاءة مطويّـة تحتي لِتَوَسُّد الأرض، ولم أكن غير مرتاحة. فبـالمقارنـة إلى الأشهر الّتي قضيتها في العراء كنت جدّ مرتاحة.

جعل حضوري الأمور أقلّ وطأة على إيزابيل، ولفترةٍ من الوقت، بدت وكأنّها استرجعت بعضاً من قواها. كـانت قبل ذلـك تقوم بكـلّ الأعمال بمفردهـا. صيد الأشيـاء في الشوارع، الـرّحلات إلى سـماسرة الـتّرميم، شراء الطّعـام من المتاجـر البلديّة، تحضـير طعام الغـداء في البيت، تفريغ الغائط في الصباح ـ وأمّـا الآن فعلى الأقـلّ هناك أحـد يشاركها هـذا العناء. خـلال الأسابيـع القليلة الأولى قمنا بكـلّ شيء معاً. وإذ أسترجع الآن تلك الفترة، فقد أقول إنّ تلك كـانت أفضل الأيّـام التي عشناهـا: معاً خـارجـاً في الشّـارع قبـل طلوع الشّمس، متجـوِّلتين عـبر فجر النّهـارات في الأزقّة المقفـرة، والجادّات الفسيحـة المحيطة. كان الفصل آنذاك ربيعاً، أواخر شهر نيسان عـلى ما أظنّ، وكان الطقس جيِّداً مخادعاً، جيِّداً جـدّاً إلى درجة أنّـه يخالجـك شعور بأنّها لن تمطر أبداً من جديد، وأنّ الصَّقيع والرِّيح تـواريا إلى الأبـد. كنّا نصطحب عربة واحدة فقط، تاركتـين الأخرى وراءنـا في المنزل، وكنت أدفعها متقدِّمـة ببطء، بما ينـاسب سرعة إيـزابيل، منتـظرة أن تدرك إيقاع مشيتها، وأن نقيّم المعطيـات حولنـا. كلّ مـا أخبرتـه عن نفسها كان صحيحاً. كانت تمتلك مـوهبة خـارقة بـالنّسبة لهـذا النّوع من العمل، وحتّى في حالتها تلك الواهنة، فقد كانت تضاهي بقدرتها أيّ واحـد شاهـدته. وفي بعض الأحـايين كـان يخالجني شعـور بـأنّها

شيطانة، ساحرة بكلّ معنى الكلمة، وأنّها تعثر على الأشياء بواسطة السّحر. لم أتوقّف عن سؤالها أن تشرح لي الأسلوب الّذي تستخدمه، غير أنّها لم تكن أبداً قادرة على قول ما يكفي. كانت تصمت، تفكّر بجدّيّة لبعض دقائق، ثمّ تستعرض بعدها بعض التّعليقات العموميّة بشأن الإصرار وعدم فقدان الأمل - وفي عباراتٍ شديدة الغموض لم تكن لتساعدني على الإطلاق. أيّ شيء تعلّمته منها في النّهاية اكتسبته بالنّظر، لا بالاستماع، واستوعبته بطريقة أشبه بالتناضح، بالأسلوب الّذي تتعلّم فيه لغة جديدة. كنا ننطلق عشوائيّاً، متجوّلتين كيفما كان إلى أن يخالج إيزابيل حدس بشأن الموضع الّذي ينبغي أن نبحث فيه، وبعدها أنطلق أنا مهرولة باتّجاه البقعة، تاركة إيّاها خلفي لحماية العربة. وإذا أخذنا بعين الاعتبار نُدرة ما انتشر على الطرقات آنذاك فإنّ غنائمنا كانت جيّدة إلى حدٍّ بعيد، بل كافية لبقائنا على قيد الحياة في جميع الأحوال، ولم يكن ثمّة شكّ في مسألة نجاحنا بالعمل المشترك. غير أنّنا لم نكن نتحدَّث معاً كثيراً في الشّوارع. لقد كان هذا خطراً طالما حذّرتني منه إيزابيل. قالت، لا تفكّري قطّ بأيّ شيء. انصهري فقط في الشّوارع وتظاهري بأنّ جسمك لم يعد موجوداً. لا مزاح، لا حزن ولا ابتهاج، لا شيء سوى الشّوارع، فراغ تامّ في الدّاخل، ركّزي فقط على الخطوة التّالية الّتي توشكين على القيام بها. وكانت هذه بين كلّ النّصائح الّتي قدّمتها، هي أبداً الوحيدة الّتي قدّر لي فهمها.

حتّى مع مساعدتي، والأميال العديدة الأقلّ الّتي توجَّب عليها مشيها كلّ يوم، فقد بدأت قوى إيزابيل تخذلها. وشيئاً فشيئاً أضحى أصعب عليها التدبُّر خارجاً، وإتمام السّاعات الطوال الّتي تقضيها

على قدميها. وفي أحد الصباحات حدث ما لم يكن في الوسع تحاشيه، وتعذّر عليها بكلٍّ بساطة النّهوض بعدها. كانت أوجاع قدميها بالغة، وخرجت لوحدي. ومن ذاك اليوم قمت بإنجاز كلّ الأعمال بمفردي.

هذه هي الوقائع، وإنّي أخبرك إيّاها واحدة بواحدة.. استلمت الأشغال المنزليّة اليوميّة. كنت المسؤولة، الشّخص الّذي يقوم بكلّ شيء. أنا واثقة من أنَّ ذلك سيجعلك تضحك. أنت تذكر كيف كان الأمر بالنّسبة إليّ في المنزل عندنا: الطّبّاخ، المدبّرة، والغسيل النّظيف المطويّ والموضوع في أدراج خزانتي كلّ نهار جمعة. لم يتوجّب عليّ قط أن أرفع إصبعاً. كان العالم بأسره ملك يديّ، ولم تراودني أبداً أيّة تساؤلات في الموضوع: دروس في البيانو، دروس في الرسم، أصياف قرب البحيرة في الرّيف، أسفار إلى الخارج مع أصدقائي. والآن غدوت كادحة، والمعين الأوحد لشخصين ما كنت لألقاهما البتّة في حياتي القديمة. إيزابيل بطهارتها المجنونة وطيبتها، وفردينانـد باستسلامه من غير هدى لفورات غضبه الفظّة المجنونة. كان الأمر برمّته بمنتهى الغرابة، نادرَ الحدوث. غير أنّ الواقع هو أنّ إيزابيل كانت قد أنقذت حياتي بالتّأكيد، كما كنت فعلت أنا من أجلها، ولم يتبادر إلى ذهني البتّة أن لا أقوم بما في مقدوري. فمن مجرّد لقيطة صغيرة التقطاها من الشّارع، غدوت الفاصل الدقيق الّذي يقف بينهما وبين التّدمير الكلّي. وبدوني ما كانا ليصمدا عشرة أيّام. لا أقصد أن أتباهى بما فعلت، ولكنّ للمرّة الأولى في حياتي اعتمد عليّ أشخاص ما، ولم أخيّب ظنّهم.

في البدء أصرّت إيزابيل بعناد على أنّها بحالٍ حسن وأنْ ليس بها

مكروه، وأنّ بضعة أيّام من الرّاحة ستكون أكثر من كافية لإبلالها. كانت تقول لي وأنا مغادرة في الصّباح: «سوف أشفى وأقف على قدميّ بلمح البصر. إنّها فقط مسألة مؤقّتة». ولكن سرعان ما سقط هذا الوهم. مضت الأسابيع، وحالتها لم تتبدّل. ومع أواسط الرّبيع أصبح واضحاً بالنّسبة إلينا معاً أنّ حالتها لن تتحسّن أبداً. وتلقّيت الصفعة الأسوأ حين اضطررت إلى بيع عربة التسوّق خاصّتها، وإجازة الكناسة إلى سمسارٍ في السّوق السوداء في المنطقة السكنيّة الرّابعة. كان ذلك التّسليم المطلق بحقيقة سقمها، ولكن لم يكن في مقدورنا القيام بأيّ أمرٍ آخر. كانت العربة مركونة يوماً بعد يوم بلا انقطاع في المنزل، وبدون فائدة لأيّ كان، وكنّا بحاجة ماسّة إلى المال إذ ذاك. وإنصافاً للحقيقة فلقد كانت إيزابيل هي نفسها من اقترح في النّهاية أن أقوم بذلك، إلّا أنّ هذا لا يعني أنّ الأمر لم يكن قاسياً عليها.

بعيد ذلك تبدّلت علاقتنا إلى حدٍّ ما. لم نعد شريكتيْن متساويتيْن، ولأنّها شعرت بعقدة ذنب كبيرة بشأن إرهاقي بأعمالٍ إضافيّة فقد أضحت تراعيني بشكل خارق، وهستيريّة تقريباً في موضوع رفاهيتي. وبعد وقتٍ غير طويل من شروعي بالخروج للكناسة بمفردي، شنّت حملة لتبديل مظهري. كنت أجمل من أن أخرج لاتّصال يوميّ مع الشّوارع، هكذا قالت، وأنّه ينبغي القيام بشيءٍ ما حيال هذا. «مجرّد الأمر أنّ لا قدرة لي على تحمّل فكرة رؤيتك خارجة بهذا المظهر كلّ صباح». وتابعت تفسّر: «إنّ حوادث بمنتهى الفظاعة تصيب الفتيات الشابّات بدون توقّف، إنّها أشياء بمنتهى السوء والفظاعة، ليس لديّ حتّى القدرة على التّحدّث عنها. آه يا آنا، يا طفلتي الصّغيرة العزيزة.

إن خسرتك الآن فلن أسامح نفسي إطلاقاً، سأقضي تـوّاً. ليس ثمّة موضع للباطل بعد الآن، يا مـلاكي، يجب أن تتخلّي عن كـلّ ذلك.
كانت إيزابيل تتكلّم باقتناع راسخ، إلى حـدّ أنّ الأمر انتهى بهـا إلى البكـاء، وأدركت أنّه من المفضّـل أن أماشيهـا عوض افتعـال نقاش. والحقّ أنّني كنت مستـاءة جـدّاً. لكن كـان سبق أن شـاهـدت بعض تلك الحـوادث الّتي لم تستطع التكلّم عنهـا، ولم يكن لديّ كـلام كثير أقوله كي أناقضها. أوّل ما فقدتـه كان شعـري ـ وكانت تلك مسـألة مخيفة. استهلكت كلّ قواي كي لا أنفجر دامعة، فيما جعلت إيـزابيل تقصّ شعري معجّلة، مشجّعة إيّاي، بينما كـانت هي نفسها تـرتجف طـوال الوقت، وعـلى وشك الانغـماس في ما يشبـه النّحيب الأمـوميّ الأسود، ولم يحقّق ذلك غـير جعل الأمـر أشدُّ سـوءاً. كان فـردينانـد هناك أيضاً بالطبع، جالساً في زاويته ويـداه مشبوكتـان فوق صـدره، مـراقباً المشهـد بتجرّد قـاسٍ. كان يضحـك وشعـري يتسـاقط عـلى الأرض، وبينـما كان يتـابع تسـاقطه قـال إنّه بـدأ يبدو أشبـه بجدار، وتساءل إن لم يكن مضحكاً أن يكون من يفعل بي ذلك هي إيزابيل، التي جفّ شعر عانتها وأمسى مثل قطعة خشبيّة. لم تتوقّف إيزابيل عن الترداد في أذني «لا تستمعي إليه يا ملاكي؛ لا تعـيري ما يقـوله هـذا الغول أدنى اهتمام». غير أنّ عدم الإنصـات إليه كـان أمراً شـاقّاً، إذ يصعب عـدم التّأثـر بضحكتـه الخبيثـة تلك. وحـين انتهت إيـزابيـل أخيراً، ناولتني مرآة صغيرة وطلبت منّي إلقاء نظرة. الـدّقائق القـلائل الأولى كانت مفزعة. بدوت في غاية البشـاعة إلى درجـة أنّي لم أتعـرّف إلى نفسي. كان الأمر وكأنّي تحولّت إلى شخصٍ آخـر، على مثـل هذه الـدرجة من السّـوء. ما الّـذي أصابني؟ هـذا مـا انتـابني. أين أنـا؟ بعدئذ، في تلك الهنيهة بالذّات انفجر فردينانـد ضاحكـاً من جديـد،

كان فيضاً حقيقيّاً من الحقد، وكان ذلك فوق طاقتي، ولم أعد أحتمل. قذفت المرآة عبر الغرفة وكدت تقريباً أصيبه بها في وجهه. طارت قرب كتفه، وتحطّمت على الجدار، ثمّ تشظّت على الأرض نثاراً. لدقيقة أو اثنتين لم يفعل فرديناند سوى التحديق مذهولاً، غير مصدّق تماماً أنّي فعلتها، ثمّ استدار نحو إيزابيل يرتجف حنقاً، مأخوذاً كلّياً بذاته وقال: «هلّا رأيت هذا؟ لقد حاولت أن تقتلني! العاهرة الملعونة حاولت قتلي!». غير أنّ إيزابيل لم تكن على استعداد للتّعاطف معه، وبعد بضع دقائق أغلق فاه أخيراً. ومذ ذاك الحين توقّف كلّياً عن ذكر الحادث، ولم يأت على ذكر موضوع شَعري مجدّداً.

في نهاية الأمر، اعتدت الحياة معه. والّذي أزعجني كان فكرة الأمر، ولكن حين تواجهه عمليّاً، فإنّي لا أعتقد على أيّ حال أنّه بدا قبيحاً جدّاً. لم تكن إيزابيل تنوي أن تجعلني أبدو كصبي في النّهاية - لا أدوات تنكّريّة، ولا شاربين مصطنعين - سعت فقط لجعل سماتي النسائيّة أقلّ حضوراً، أو نتوءاتي كما سمّتها. لم أكن البتّة فتاة غلاميّة على أيّة حال، وما كان لينجح أن أتظاهر الآن بكوني كذلك. أنت تذكر أحمر شفاهي، وأقراطي الفاضحة، وتنّوراتي الضّيّقة، وحواشي أثوابي الهزيلة. لطالما عشقت ارتداء أجمل الثياب، ولعب دور مغوية الرِّجال، حتّى حين كنّا أطفالاً. وما أرادته إيزابيل كان أن ألفت الانتباه إليّ بأقلّ قدرٍ ممكن، كي تتأكّد من أنّ الرؤوس لن تستدير ملتفّة لدى عبوري. وهكذا بعدما قضي على شَعري، أعطتني قبّعة، وجاكيتة فضفاضة، وسروالاً صوفيّاً، وحذاءين، كانت قد ابتاعتهما من أجلها منذ وقت قريب. كان الحذاء مقياساً أكبر، غير أنّ زوج

جوارب إضافيّاً بدا حلاًّ مناسباً لمشكلة التقرّح. في جسمي المغلّف الآن بهذا الزّيّ، كان نهداي وردفاي مختبئةً بشكل جيّد، وهذا لم يترك سوى القليل الغالي لإثارة رغبة أيّ شخص. كانت رؤيةُ ما لديّ حقيقة تستوجب مخيّلة بارعة، ولئن كان هناك من نقصان في المدينة، ففي المخيّلة.

عشت بهذا النمط. صحوة مبكّرة عند الفجر وإلى الخارج، النّهارات المديدة في الشّوارع، وبعدها إلى البيت مجدّداً عند ابتداء اللّيل. كنت أكثر انشغالاً ليتسنّى لي التّفكير طويلاً في أيّ شيء، وأكثر إنهاكاً من أن أتراجع بنفسي خطوة إلى الوراء، لأعود متطلّعة إلى الأمام، وكان ما أريده كلّ ليلة بعد العشاء هو الانهيار في زاويتي والاستغراق في النّوم.

سبّب حادث المرآة لسوء الحظّ تبدّلاً في سلوك فرديناند، وتفاقم التوتّر بيننا إلى حدٍّ أمسى فيه غير محتمل. وقد ترافق هذا مع واقع يتمثّل في أنّ عليه الآن أن يمضي أيّامه في البيت مع إيزابيل ـ الّتي حرمته من الحرّيّة والعزلة ـ وصرت أنا محور انتباهه كلّما وُجِدْتُ في الجوار. لست بصدد التحدّث فقط عن تذمّره، ولا عن ملاحظاته الصّغيرة الساخرة الّتي كان يطلقها في ما يختصّ بكميّة المال الّتي كنت أكسبها، أو الطّعام الّذي كنت أجلبه لوجباتنا في البيت. لا، كان يمكن توقّع كلّ هذا من قِبَله. كانت المشكلة أشدّ أذيّة من ذلك، أشدّ تدميراً في الغضب القابع في خلفيّتها. أمسيت على حين غرّة فَرَج فرديناند الأوحد، جادّة هروبه الوحيدة من إيزابيل، ولأنّه كرهني، ولأنّ مجرّد حضوري كان بمثابة تعذيب بالنّسبة إليه، فقد اندفع بكلّ قواه ليجعل أموري بمنتهى الصّعوبة. وببساطة دمّر لي حياتي، مضايقاً

إيّـاي عند كـلّ فرصـة تسنح، مهـاجماً إيّـاي بعنف بـآلاف الغـارات الضّئيلة الّتي لم أملك أيّـة وسيلة لردعهـا. وفي بدايـة الأمـر، انتـابني شعـور بـالضّيق ورأيت إلى أين سيؤدّي كـلّ ذلـك، غـير أنّ شيئـاً لم يهيّئني لمواجهة مثل هذا النّوع من الأمور، ولم أعـرف كيف أدافع عن نفسي.

أنت تعـرف كلّ شيء عنيّ. تعـرف مـا يحتـاج ومـا لا يحتـاج إليـه جسمي، أيّة صرخات وأيّ جوع يكمن فيه. تلك الأشياء لا تختفي، حتّى في مكـانٍ كهذا. وأسلّم جـدلاً بأنّ فـرص إطلاق عنـان أفكارك أقـلّ هنا بـالتّأكيـد، وحين تجـول عبر الشّـوارع يجدر بـك أن تتـأهّب لتكون سريعاً، مطهّراً ذهنك من كلّ الاستطرادات الشهوانيّة ـ ولكن على الرغم من ذلك، هنالك هنيهات حـين تكون وحيـداً في الفراش في اللّيل على سبيل المثال، والعالم كامـل الظّلمـة من حولـك، ويغدو شـاقّاً أن لا تتخيّـل نفسك في أوضـاع مختلفة. لن أنكـر كم شعـرت بالعزلـة في زاويتي. أشياء كهـذه في مقدورهـا أن تدفعـك إلى الجنون أحياناً. هناك وجع داخلك، وجع مريـع صاخب، وإذا لم تقم بشيءٍ ما بخصوصه فلن تكون من نهايـة له عـلى الإطلاق. الله وحـده يعلم كم حاولت السّيطرة على نفسي، ولكن مرّت أوقات ما عـدت أحتمل فيها قطّ، أوقات خالجني فيها إحساس بأنَّ قلبي سينفجر. كنت أغلق عينيّ، وأراود نفسي بالاستكانة إلى النّوم، غـير أنَّ عقلي كـان يظلّ في اهتياج عظيم، مجيشـاً صوراً من النّهـار الّذي كنت قـد قضيته للتّـوّ، دافعاً إيّاي إلى جحيم الشّوارع والجثث. وبمساندة إهانـات فردينـاند، وهي ما تزال طازجة في دماغي فيضيفها إلى تلك الفوضى، ببساطة ما كـان النّـوم ليتـأتّى. الأمـر الـوحيـد الّـذي ظهـر أنّ لـه تـأثيـراً كـان

الاستمناء. أعذرني لكوني شديدة الفظاظة، غير أنّي لا أجد ما يـدفع هنـا إلى تصنُّع الألفـاظ. إنّه حـلٌ شائـعٌ إلى حدٍّ بعيـد هنا لمعـظمنا، ونظراً للظّروف فإنّه لم يتوفّر لديّ أيّ خيار آخر. ومن غير أن أعي ما أفعل تقريباً، كنت أشرع في تحسّس جسمي، زاعمة أن يديّ تخصّان شخصاً آخر ـ مـدلّكة راحتيّ بخفّـة فوق بـطني، ممسّدة بـرفق جنبات فخـذي الـداخليّـة، وممسكـة أحيـانـاً حتّى ردفيّ، مـداعبـة لحمهـما بأصابعي، كما لو كان هناك اثنان منّي، وكان أحدنا في حضن الآخر. كنت أفقه أنّ هذه لم تكن سوى لعبة صغيرة وتعيسة، غير أنّ جسدي كان على الرّغم من ذلك يتجاوب مع هـذه الخدع. وفي النّهـاية كنت أشعر بتكاثر رشح بليل في الأسفل. وكان إصبع يدي اليمني الأوسط يقوم بالبقيّة، وحالما كان ينتهي الأمر، كان تراخٍ ينسلّ إلى عـظامي، مُثْقِلاً جفنيّ، إلى أن أسقط أخيراً في النّوم.

ربّمـا كان هـذا كلّه حسناً، جيّـداً. وكانت المشكلة في منـزل ضيّق كـذاك هي أنّ القيام حتّى بـأقلّ جلبـة كان أمـراً خطيـراً، ولا بدّ أنّي هفوت في بعض اللّيالي، لا بدّ أنّه نـدت عنّي تنهّدة أو أطلقت أنّـة في اللّحظة الحاسمة. أقول هـذا لأنّي ما لبثت أن اكتشفت أنّ فـردينانـد كان يتنصّت عليّ، ومع الدّماغ البذيء كالّذي يمتلكه، لم يقتضِه الأمر وقتاً طويلاً ليكتشف ما كنت أقـوم به. وشيئـاً فشيئاً أضحت إهـاناتـه جنسيّة الطّابع ـ وابلاً من التّلميحات، ولغواً بشعاً. وفي لحظةٍ ما كان ينعتني بالعاهرة الصّغيرة القذرة الدّماغ، وفي اللّحظة التّالية كان يقول أنْ لا رجل سيرغب أبداً في لمس وحش بارد جنسيّاً مثلي. كـانت كلّ عبـارة تناقض الأخـريـات، منصبّـة عـليّ من مختلف الجهـات، وبـلا هـوادة. كانت قصّـة حقـيرة من الألف إلى اليـاء، وكنت أعـرف أنّها

ستنتهي بشكل سيّىء علينا جميعاً. ثمّة بذرة كانت قد استقرّت في دماغ فرديناند، ولم يكن من طريقة لانتزاعها. كان يجمّع شجاعته، يعدّ للتصرّف، وكان بمقدوري أن أراه يزداد جرأة، وأكثر ثقة بنفسه، وأكثر تورّطاً في مخطّطه. وكنت قد تعرّضت لمثل تلك التّجربة السّيِّئة مع رجل من عصابات الجزية في جادّة مولدون، غير أنّ ذلك كان خارجاً في العراء، ولقد تمكّنت من الهروب منه. وأمّا هذه فكانت مسألة مختلفة. كانت الشّقّة صغيرة جدّاً، ولو حدث أيّ شيء هناك فإنّي كنت سأقع في فخّ. وإذ كنت مقتنعة بأنّي لن أجد سبيلاً إلى النّوم مجدّداً، فإنّه لم تكن لديّ أيّة فكرة عمّا يتوجّب عليّ القيام به.

كان الوقت صيفاً، نسيت أيّ شهر كان. أذكر القيظ، والنّهارات الطويلة بغليانها في الدّماء، واللّيالي العديمة الهواء. كانت الشّمس تغيب لكنّ الهواء المتّقد كان يثبت محلّقاً فوقك، ثخيناً بروائحه الكريهة. وفي واحدة من تلك اللّيالي قرّر فرديناند في النّهاية التحرّك - زاحفاً ببطء عبر الغرفة على الأربع، متوجّهاً نحو فراشي في تسلّل أبله. ولأسبابٍ مازلت لا أفقهها، غادرني كلّ فزعي حين لمسني. كنت ممدّدة هناك في العتمة، متظاهرة بالنّوم، غير عارفة إن كان ينبغي أن أحاول مقاومته، أو أصرخ فقط عالياً بكلٍّ ما أوتيت من قوّة. وفجأة اتّضح لي أنّه يجب أن لا أفعل أيّاً من هذين الاحتمالين. وضع فرديناند يده على صدري وأطلق ضحكة خفيفة مبكوتة، وكانت واحداً من الأصوات المعتدّة الخسيسة الّتي من الممكن أن تصدر فقط عن أناس أصبحوا في الواقع أمواتاً. وفي تلك الهنيهة بالذّات عرفت بالتّحديد ماذا كنت سأفعل. كان هناك عمق من اليقين لهذه المعرفة لم أكن قد شعرت به قطّ من قبل. لم أقاوم، لم

أصرخ، لم تصدر عنّي أيّة ردّة فعل في أيّ جزء من جسمي كان بوسعي أن أعرّف عنه بأنّه يخصّني. بدا كما لو أنّه لم يعد من أهمّيّة لأيّ شيء بعدئذ، أقصد لا شيء البتّة. كان هنالك هذا اليقين في داخلي، وقد دمّر كلّ شيء آخر. ولحظة مسّني فرديناند أيقنت أنّي سوف أقتله، وكان هذا اليقين عظيماً، فائق السّطوة، إلى درجة أنّي كدت أرغب في التّوقف لأطلعه على ذلك، كي يتمكّن فقط من فهم ما كان رأيي فيه، ولماذا كان يستحقّ الموت. انزلق بجسده مقترباً منّي أكثر، متطاولاً إزاء حافّة الفراش، وجعل يمرّغ وجهه القاسي في عنقي، متمتماً إليّ كيف أنّه كان محقّاً طوال الوقت، وأنّه، أَجَلْ، سيضاجعني، وأنّني أَجَلْ، سأستمتع بكلّ لحظة أثناءها. كانت أنفاسه عابقة برائحة لحم العجل المقدّد واللّفت اللّذين كنّا قد تناولناهما للعشاء، وكنّا كلانا كرتين ناضحتينّ بالعرق، كان جسدانا مكسوّين كلّياً بالعرق. كان الهواء خانقاً في الغرفة، من غير أيّ حركة البتّة. وفي كلّ مرّة كان يلمسني كنت أستطيع أن أحسّ بالمياه المالحة منزلقة فوق بشرتي. ولم أقم بأيّ شيء لإيقافه، بقيت فقط ممدّدة هناك متراخية، غير منفعلة وغير متفوّهة بأيّة كلمة. وبعد قليل بدأ يفقد السّيطرة على نفسه، وكان بوسعي الشّعور بذلك، وبوسعي أن أحسّ به طائفاً حول جسمي. وأخذ يعتليني، ووضعت أصابعي حول عنقه. فعلت ذلك بنعومة أوّل الأمر، متظاهرة باللّعب معه، كما لو أنّني استسلمت أخيراً لمفاتنه. مفاتنه الّتي لا تقاوم، ولهذا لم يخامره الشكّ بأيّ شيء. ثمّ رحت أضغط، ولفظ من حلقه صوتاً ضئيلاً حادّاً كالتّقيؤ. في تلك اللّحظة الأولى، بعدما شرعت أضغط، خالجتني سعادة عارمة، جيشان، إحساس منفلت بالنّشوة. كان الأمر وكأنّني اجتزت عتبة ما داخليّة، وعلى الفور أصبح العالم مختلفاً، مكاناً سهلاً

فوق حدود التصوّر. وأغلقت عينيّ، وبعدها بدأت أشعر كأنّي أطير عبر فضاء شاغر، مندفعة عبر ليل طائل من العتمة والنّجوم. كنت حرّة مادمت ممسكة بزلعوم فرديناند. كنت فوق جاذبيّة الأرض، فوق العتمة، فوق أيّ خاطر عن ذاتي.

حصل بعدها أغرب قسم في القصّة. وحين بدا لي جليّاً أنّ بضع دقائق إضافيّة من الضغط كانت ستنهي المهمّة، عندئذٍ فقط أفلتّه. لم يكن لذلك أيّ علاقة بالضّعف، ولا بالشّفقة. كانت قبضتي حول حلق فرديناند كالفولاذ، وما كان أيّ قدر من الضربات والركلات ليستطيع حلّها. والّذي حدث هو أنّي وعيت فجأة الغبطة الّتي كنت أحسّها. لا أعرف كيف يمكن أن أفسّر الأمر بخلاف هذا، ولكن هناك تماماً في النهاية، وفيما أنا ممدّدة على ظهري في الظّلمة القائظة، ضاغطة ببطء على حياة فرديناند، أدركت أنّي لم أكن أقتله دفاعاً عن النّفس - بل كنت أقتله للمتعة. وعيٌ فظيعٌ للأمر، فظيع، وعي فظيع. أفلتّ حلق فرديناند ودفعته بعيداً عنّي بأعنف ما قدّر لي. ولم أشعر بشيء غير القرف، بشيء سوى الغضب والضغينة. لم يعد مهمّاً تقريباً أنّي توقّفت. كلّ ما احتاجه الأمر كان بضع ثوانٍ، غير أنّي فهمت آنذاك أنّي لم أكن أفضل من فرديناند، ولا أفضل من أيّ واحد آخر.

لفظت رئتا فرديناند لهاثاً عاتياً صافراً، كان صوتاً بائساً، غير بشريّ أشبه بنهيق الحمار. وتلوّى منطرحاً على الأرض ممسكاً حلقه، جائش الصّدر فزعاً، مزدرداً الهواء بيأس، مبقبقاً، مطلقاً سعالاً، متقيّئاً الكارثة فوق كلّ جسمه. قلت له: «أنت ستفهم الآن، أنت

تدرك الآن ما ينتظرك. إن حاولت في المرّة القادمة أيّ شيء من هذا القبيل فلن أكون كريمة النّفس أبداً».

لم أنتظر حتّى يتعافى كلّياً، كان سيعيش وكان هذا كافياً. كان هذا أكثر من كافٍ. وارتديت ثيابي على عجل، وغادرت الشّقّة هابطةً الدّرجات إلى الخارج، إلى جوف اللّيل. حدث كلٌّ ذلك سريعاً جدّاً. وأدركت أنّ الأمر برمّته من البداية إلى النّهاية، كان قد استغرق بضع دقائق فقط. وكانت إيزابيل مستغرقة في النّوم خلال كلّ ذلك الوقت. كانت تلك معجزة بحدّ ذاتها. كنت على مسافة إنشٍ واحد من قتل زوجها، وإيزابيل لم تقم حتّى بحركة ضئيلة في فراشها.

جلت على غير هدى طوال ساعتين أو ثلاث، ثمّ عدت إلى الشّقّة. كان الوقت يقترب من الرابعة فجراً، وكان فرديناند وإيزابيل نائمين كلٌّ في زاويته المعتادة. تصوّرت أنّه يتبقّى لي حتّى السّاعة السّادسة قبل اندلاع الجنون، واندفاع فرديناند العاصف في أرجاء الغرفة، ملوِّحاً ذراعيه، وهو يلغو متّهماً إيّاي بجريمة تلو الأخرى. لم يكن من مفرّ من حدوث هذا. شكّي الأوحد كان في توقّع كيفية ردّ فعل إيزابيل على الموضوع. أنبأني حدسي بأنّها كانت سوف تنحاز إليّ، إلاّ أنّه لم يكن بوسعي أن أكون واثقة. لا أحد يعرف ما يمكن أن يكشفه الولاء في اللّحظة الحاسمة، وأيّ صراعات يمكن أن تنشب وأنت لا تتوقّعها البتّة. حاولت أن أهيّء نفسي للأسوأ ـ مدركة أنّه إذا حدث أن انقلبت عليّ الأمور، فسوف أنتهي خارجاً في الشّارع مرّة جديدة وفي ذلك اليوم بالذّات.

استفاقت إيزابيل أوّلاً، كما كانت تفعل عادة. ولم تكن استفاقتها المبكِّرة بالمسألة السهلة، إذ إنّ أوجاع قدميها كانت عموماً أشدّ حدّة

في الصَّباح، وكانت تحتاج إلى عشرين أو ثلاثين دقيقة قبل أن تجد الشجاعة للوقوف. وكان ذاك الصّباح بوجه خاصّ شاقّاً بالنّسبة إليها، وفيما هي تعمل ببطء على لملمة أحوالها، تشاغلتُ في الشّقّة كالعادة، محاولة التّصرُّف كما لو أنّ شيئاً لم يكن: غليت مياهاً وقطّعت خبزاً، وجهّزت الطّاولة ـ غير منزاحة قيد أنملة عن روتيني اليوميّ. في معظم الصّباحات يستغرق فرديناند في النّوم حتّى آخر لحظة محتملة، ونادراً ما يتزحزح حتّى يستطيع اشتمام رائحة طبخة البودنغ على فرن الطّعام، ولم يكن أيّ منّا يعيره الآن أدنى اهتمام. كان وجهه إلى الجدار، وبدا ظاهريّاً أنّه كان بكلّ بساطة مستغرقاً في النّوم أكثر قليلاً من المعتاد. وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما جرى له في اللّيل الفائت فإنّ ذلك بدا منطقيّاً إلى حدٍّ كبير، ولم أكلّف نفسي عناء التّفكير بالأمر ثانيةً.

غير أنّ صمته أضحى في النّهاية مريباً. أنجزنا إيزابيل وأنا تحضيراتنا المختلفة، وكنّا جاهزتين للجلوس وتناول الإفطار، كانت إحدانا تعمل عادة على إيقاظ فرديناند عندئذٍ، ولكن في هذا الصّباح لم تنبس أيّ منّا بحرف. ولقد حوّم في الجوّ نوعٌ غريبٌ من الممانعة، وبعد فترة بدأت أشعر أنّنا كنّا نتجنّب الموضوع قصداً، وأنّ كلّ واحدة منّا كانت قد قرّرت أن تدع الأخرى تتكلّم أوّلاً. كانت لديَّ بالطّبع أسبابي الخاصّة التّي دفعتني إلى الصّمت، وأمّا تصرّف إيزابيل فكان من غير سابقة. كان ثمّة غرابة في لبّه، بعض تحدٍّ وأعصاب مثارة، كما لو أنّ تحوُّلاً غير متوقّع أصابها في الدّاخل. لم أكن أعرف كيف سأتصرّف. راودني شعور بأنّي ربّما كنت مخطئة بشأن اللّيلة الفائتة. فلربّما كانت مستفيقة، وربّما كانت عيناها مفتوحتين وشاهدتْ كلّ تلك المسألة القذرة.

سألت: «هل أنت بخير يا إيزابيل؟».

قالت مانحة إيايّ واحدة من ابتساماتها المخبولة البريئة: «أجل يا عزيزتي. بالطّبع أنا بحال جيِّد».

«ألا تظنِّين أنّه يتوجّب علينا إيقاظ فرديناند؟ أنت تعرفين كيف يصبح حين نبدأ بدونه. لا أريده أن يظنّ أنّنا نسلبه قسماً من حصّته».

قالت مطلقة تنهّدة هزيلة: «لا، لا أعتقد أنّنا نرغب في ذلك، كلّ ما في الأمر أنّني كنت أستمتع بهنيهة الزمالة هذه. نادراً ما نبقى وحدنا وقتاً طويلاً. ثمّة شيء سحريٌّ بشأن منزلٍ صامت، ألا تظنّين هذا؟».

«أجل يا إيزابيل، أوافقك. ولكنّي أعتقد أيضاً أنّ الوقت حان لإيقاظ فرديناند».

«إن كنت مصرّة فلا بأس. كنت أحاول فقط أن أؤخِّر لحظة الحساب. يمكن أن تكون الحياة بديعة في النّهاية، حتّى في أوقاتٍ كهذه. مؤسف أنّ بعض النّاس يفكِّر فقط في إفسادها».

لم أقل شيئاً جواباً على هذه الملاحظات الخفيّة. كان واضحاً أنّ شيئاً ما لم يكن على ما يرام، وبدأ الشكّ يراودني عن حقيقة ما هنالك. تقدّمت إلى زاوية فرديناند وجثمت قربه، ثمّ وضعت يديّ على كتفه. لم يحدث أيّ شيء. هززت الكتف، وحين لم يتحرّك فرديناند أيضاً قلبته على ظهره. للثانية أو الثانيتين الأوّليّين لم أرَ شيئاً على الإطلاق. كان ثمّة إحساس فقط، اضطراب أحاسيس طارئ اندلع خارج ذاتي. وقلت لنفسي إنّ هذا رجل ميّت. فرديناند رجل ميّت، وأنا أنظر إليه بعينيّ الاثنتين. وبعد ذاك فقط، بعدما حدّثت

نفسي بتلك الكلمات، كان أنْ رأيت فعلاً حالة وجهه، كانت عيناه جاحظتين من محجريهما، ولسانه متدلّياً من فمه، والدّم الجاف متخثّراً حول أنفه. وخالجني أنّه من غير المعقول أن يكون فرديناند ميّتاً. لقد كان حيّاً يرزق حين غادرت الشّقّة، ولا يعقل البتّة أن تكون يداي قد فعلتا ذلك. وحاولت أن أقفل فمه، لكن حنكه كان قد تيبّس، ولم أستطع تحريكه. كان ينبغي أن أحطّم عظام وجهه، ولم تكن لي القوّة الكافية لأفعل ذلك.

قلت بصوت خافت: «إيزابيل. أعتقد أنّه من الأفضل أن تأتي إلى هنا».

سألتْ: «هل من خطب؟» صوتها لم يُنْبِىء بشيء، ولم أستطع أن أحزر إن كانت تعرف مسبّقاً ما كنت سأريها إيّاه أو لا.

«تعالي فقط إلى هنا وانظري بنفسك».

وإذ كانت إيزابيل مجبرة على القيام بذلك بعد وقت فقد جرّت نفسها عبر الغرفة ممسكة كرسيّها للتوكّؤ عليه. وحين بلغت زاوية فرديناند استدارت لتستقرّ على الكرسيّ، مستريحة لالتقاط أنفاسها، ثمّ تطلّعت نزولاً إلى الجثّة. لم تفعل لدقائق كثيرة غير التّحديق بها، وبتجرّد كلّي، غير مبدية أيّة انفعالات. ثمّ بعدها، وبمباغتة حادّة ومن غير أدنى حركة أو صوت بدأت تبكي ـ بدون وعي تقريباً، وبدا كأنّ الدّموع كانت تندلق فقط من عينيها وتسقط منحدرة فوق وجنتيها. كان الأمر كمثلما يبكي الأولاد أحياناً ـ من دون تنهُّد أو انقطاع أنفاس: مجرّد مياه متدفّقة بهدوء من حنفيّتين متشابهتين.

«أعتقد أن فرديناند لن يستفيق بعد الآن». قالت هذا وهي لاتزال محدِّقة في الجثّة. كان الأمر كما لو أنّه ما كان بوسعها التّطلُّع إلى مكان

آخر، وكأنّما سوف تتسمّر عيناها في ذلك الموضع إلى الأبد.

«ماذا تعتقدين أنّه قد حدث؟».

«الله وحده يعرف هذا يا عزيزتي. لن أتجرّأ حتّى على افتراض احتمال».

«لا بدّ أنّه قضى نائماً».

«أجل، أظنُّ أنّ هذا تفسير مناسب. لا بدّ أنّه مات وهو نائم».

«كيف تشعرين يا إيزابيل؟».

«لست أعرف. مازال الوقت مبكّراً ليتسنّى لي أن أعرف. ولكن أعتقد حاليّاً أنّي سعيدة. وأدرك أنّ قول هذا هو أمرٌ فظيع. ولكنّي أظنّ أنّي سعيدة جدّاً».

«ليس هذا بالشعور الفظيع. إنّك تستحقّين شيئاً من السّلام، وأكثر من أيّ كان».

«لا يا عزيزتي، إنّ هذا فظيع. ولكن ليس بمقدوري أنّ أتحاشاه. آمل أن يسامحني الله. آمل أن يجد في قلبه مغفرة، كي لا يعاقبني على الأحاسيس الّتي تنتابني الآن».

أمضت إيزابيل ما تبقّى من الصبيحة معتنية اعتناءً بالغاً بجثّة فرديناند. رفضت السّماح لي بالمساعدة، وطوال سبع ساعات بقيت فقط جالسة في زاويتي مراقبة إيّاها. كان إلباسه ثياباً أمراً غير ذي فائدة بالطّبع، لكن إيزابيل رفضت أن تفعل غير ذلك. أرادته أن يبدو كالرّجل الّذي كانه منذ سنوات عديدة، قبل أن يحطّمه الغضب والشّفقة على الذّات.

غسّلته بالصّابون والماء، حلقت له ذقنه، قلّمت أظافره، ثمّ ألبسته بدلة زرقاء كان قد ارتداها في مناسبات خاصّة في الماضي. وكانت قد

حفظت هذه البدلة سنوات عدّة مخبّأة في صندوقٍ للثياب، خوفاً من أن يجبرها فرديناند على بيعها، إن حدث واكتشف مكان وجودها. كانت البدلة كبيرة المقاس بالنّسبة إلى حجمه الآن، وتوجّب عليها إحداث ثقب جديد في حزامه لتتأكّد من ثبوت السراول حول خصره. عملت إيزابيل ببطء منقطع النّظير، معتنية بكلّ تفصيل بدقّة مسعورة، غير متوقّفة البتّة، وغير معجّلة إطلاقاً، وبعد فترة بدأت تثير أعصابي. أردتُ أن يُنْجَز كلّ شيء بأسرع وقت ممكن، لكن إيزابيل لم تعرني أدنى اهتمام. كانت مأخوذة كلّياً بما كانت تفعله، وأشكّ حتّى في أنّها كانت تعرف أنّي كنت هناك. وفيما كانت تعمل، جعلت تتحدّث مع فرديناند طوال الوقت، موّبخة إيّاه بصوت رقيق، مثرثرة بدون توقّف كما لو كان في وسعه سماعها، أو كأنّه ينصت لكلّ كلمة كانت تقولها. ولا أعتقد أنّه كان يملك بوجهه ذاك الّذي لا يزال مسمّراً في تكشيرة الموت المخيفة تلك، أيَّ خيار غير أن يدعها تتكلّم. وفي النّهاية، لقد كانت هذه فرصتها الأخيرة، ولمرّة واحدة لم يكن في وسعه أن يفعل أيّ شيء لإسكاتها.

أطالت هذا حتّى نهاية الصّباح ـ مشّطت له شعره، نظّفت بالفرشاة النسالة عن سترته. كانت ترتّبه ثمّ تعيد ترتيبه كما لو أنّها تهيّىء دمية للزواج. وحين انتهت أخيراً، كان علينا أن نقرّر ما الذي سنفعله بالجثّة. كنت مع فكرة حمل فرديناند والهبوط به على الدّرج ثمّ تركه في الشّارع، ولكن إيزابيل شعرت أنّ هذا كان قاسياً جدّاً. قالت إنّ أقلّ ما ينبغي أن نفعله هو وضعه في عربة الكناسة ونقله عبر المدينة إلى أحد مراكز التّحويل.

كنت ضدّ تلك الفكرة لأسباب عديدة. أوّلاً، كان فرديناند ضخم

الجثّة، بالإضافة إلى أنّ دفع العربة عبر الشوارع سينطوي على مخاطر شتّى، تخيّلت أن يحدث وتنقلب العربة، ورأيت فرديناند ساقطاً منها، ورأيت فرديناند والعربة وقد انتزعهما منّا الجشعون، الأهمّ من كلّ هذا أنّ إيزابيل لا تمتلك الطّاقة اللاّزمة لهذا النّوع من الرحلات، وكان ما أقلقني هو أنّها كانت ستسبّب لنفسها أذيّة حقيقيّة. كان قضاء يوم مديد على قدميها سيقضي على القليل المتبقّي من صحّتها، وما كنت لأستسلم لها، مهما أمعنت في البكاء وفي مناشدتي.

في النّهاية توصّلنا إلى حلّ رديء بدا وقتذاك منطقيّاً جدّاً، ولكن حين أسترجعه الآن تفاجئني غرابته. فبعد كثير من التردّد والعصبيّة قرّرنا أن نجرّه إلى سطح البناء ثمّ ندفعه من فوق. كانت الفكرة هي أن نجعله يبدو كأحد الواثبين. قالت إيزابيل، هكذا قد يظنّ الجيران على الأقلّ أنّ فرديناند كان لايزال يحتفظ في داخله بشيء من حسّ المقاومة. سوف ينظرون إليه برفعة وقد طار من فوق السّطح، وسيحدّثون أنفسهم قائلين، هذا هو رجل شجاع قادر على إمساك زمام الأمور. ولم يكن بالأمر الصّعب أن يرى المرء إلى أيّ حدّ راقتها هذه الخاطرة: قلت، سوف نعتبر في ذهنينا أنّنا نرمي به من على جانب سفينة. هذا ما يحدث حين يموت بحّار في اليمّ، فإنّ رفاقه يقذفون به في المياه. أجل لقد راقت الفكرة إيزابيل كثيراً. سوف نتسلّق إلى السّطح ونتظاهر بأنّنا واقفتان على ظهر سفينة. سيكون الهواء هو المياه، والأرض هي صفحة المحيط. سوف يحظى فرديناند بدفن بحّار، ومذ ذاك فصاعداً سوف يصبح مِلْكَ البحر. كان هناك شيء ما مناسب جدّاً بخصوص هذه الخطّة حتّى إنّها وضعت حدّاً لأيّ مناقشات أخرى. سوف يوضع فرديناند ليستريح في صندوق

«داڤي جونز»، وفي النّهاية سوف تعتبره أسماك القرش ملكاً لها.

لسوء الحظّ، لم تكن المسألة بالسّهولة الّتي بدت فيها. كانت الشّقّة في الطابق الأعلى من العمارة، إلاّ أنّه لم يكن هناك درج إلى السّطح. كان المنفذ الوحيد عبارة عن سلّم حديد ضيّق يؤدّي إلى فتحة صغيرة في السّقف. وعند ذروته انبرى ما يشبه الباب المسحور الّذي يمكن فتحه بدفعه طلوعاً من الدّاخل. وكان في السّلّم ما يقارب الدّزينة من الدّرجات، ولم يتخطّ ارتفاعه السّبع أو الثماني أقدام. غير أنّ هذا لم ينفِ ضرورة حمل فرديناند صعوداً وبيدٍ واحدة، إذ كان على اليد الأخرى أن تتمسّك للتوازن. ولم تستطع إيزابيل تقديم الكثير من العون، وهكذا أجبرت على تنفيذ ذلك بمفردي. حاولت أن أدفع من الأسفل، ثمّ حاولت أن أسحب من الأعلى، غير أنّه لم يبدُ أنّي أمتلك القوّة المطلوبة. لقد كان وزنه يفوق قدرتي بكثير، كان كبيراً جدّاً، ومُرْبكاً إلى حدّ بعيد، وهناك في الدّاخل الحرّ الصيفيّ الخانق والعرق المتقطّر فوق عينيّ، ولم أر سبيلاً إلى تحقيق ذلك. وجعلت أتساءل عمّا إذا لم يكن في وسعنا تحقيق تأثير مماثل بجرّ فرديناند مجدّداً إلى داخل الشّقّة ودفعه من خلال النافذة. لن يكون ذلك بالطّبع بمثل إثارة الخطّة الأولى، ولكن نظراً للظروف فإنّ ذلك بدا بديلاً ممتازاً. إلاّ أنّه في اللّحظة الّتي كنت فيها على وشك الاستسلام، راودت إيزابيل فكرة. قالت، في مقدورنا أن نلفّ فرديناند بملاءة، ثم نربطها بملاءة أخرى، ونستخدمها كحبل لسحب الحزمة ورفعها. لم تكن هذه بالفكرة السّهلة كذلك، ولكن لم يتوجّب عليّ فيها على الأقلّ أن أتسلّق وأحمل في الوقت نفسه. صعدت إلى السّطح ورفعت فرديناند درجة تلو الأخرى. كانت إيزابيل واقفة في الأسفل، عاملة على توجيه

الحزمة ومتأكِّدة من عدم انغرازها وعلوقها بالدّرجات، وفي النّهاية وصلت الجثّة إلى السّطح. انبطحت بعدها على بطني ومددت ذراعي نزولاً في العتمة، وساعدت إيزابيل لتتسلّق هي أيضاً إلى السّطح. ولن أتحدّث عن الانزلاقات، عن الكوارث الموشكة، وصعوبات التمسّك. وحين زحفتْ في النهاية عبر الفجوة الصّغيرة واقتربتْ ببطءٍ منّي، كنّا كلتانا منهكتين وانهرنا ممدّدتين على السّطح السّاخن المكسوّ بالقطران، غير قادرتيْن على النّهوض لمدى عدّة دقائق، وعاجزتين عن الحركة كلّياً. وأذكرني ممدّدة على ظهري ناظرة إلى الفضاء، يخالجني شعورٌ بأنّي على وشك أن أطوف خارج جسمي، جاهدة في استرجاع أنفاسي، وشاعرة أنّي مسحوقة كلّياً بالشّمس السّاطعة المسعورة المنهِكَة.

لم يكن البناء مرتفعاً بشكلٍ لافت، ولكنّها كانت أوّل مرّة أرتفع فيها عن الأرض إلى هذا الحدّ مذ مجيئي إلى هذه المدينة. وراح نسيمٌ خفيفٌ يشدُّ الأشياء مؤرجِحاً إيّاها، وحين وقفت أخيراً على قدميّ وحدَّقت نزولاً إلى العالم المشوَّش في الأسفل، ذهلت وأنا أكتشف أنّ المحيط خلف مسافة بعيدة عند الحافّة كان شريطاً من الضّوء الأزرق القاتم وامضاً في المسافة القصيّة. كانت رؤية المحيط بهذه الطّريقة أمراً غريباً، وليس بمقدوري أن أصف لك التأثير الّذي بعثه فيّ. ولأول مرّة مذ وصولي، حصلت على إثبات بأنّ المدينة لم تكن في كلّ مكان، وأنّ شيئاً ما كان موجوداً وراءها، وأن ثمّة عوالم أخرى غير هذا العالم. كان الأمر أشبه بالإلهام، مثل فيض أوكسيجين داخل رئتي. ولقد شعرت تقريباً بالدّوار بمجرّد التّفكير بذلك. رأيت السّطوح الواحد تلو الآخر. رأيت الدخان متصاعداً من محرقة الجثث

أو من محطّات توليد الطّاقة الكهربائيّة. سمعت صوت انفجار من الشّارع القريب. رأيت أناساً يمشون في الأسفل، وكانوا بغاية الصغر إلى درجة أنّهم ما عادوا بشراً. شعرت بالهواء فوق وجهي وشممت النتانة في الهواء. بدا لي كلّ ما هنالك غريباً، ووقفت على السّطح إلى جانب إيزابيل الّتي كانت لاتزال منهكة غير قادرة على الكلام، وشعرت فجأة أنّي ميّتة، مشبعة بالموت كفرديناند في بذلته الزرقاء، وكمثل أولئك الأشخاص المحترقين والمتحوّلين دخاناً عند أطراف المدينة. غدوت أكثر هدوءاً ممّا كنت من زمن بعيد، وسعيدة تقريباً في الحقيقة، ولكن سعيدة بطريقةٍ ما غير محسوسة، كما لو أنّه لا علاقة لتلك البهجة بي. وبعدئذ، ومن غير سابق إنذار بدأت أبكي - أعني بكاء حقيقيّاً، نشيجاً عميقاً في صدري، انقطعت أنفاسي، اختنق الهواء كلّياً حولي، كنت أزعق بطريقة لم تنْتَبْني مذ كنت صغيرة. وضعت إيزابيل ذراعيها حولي، وأبقيت وجهي مختبئاً في كتفها لوقت طويل منقّلة رأسي متنهّدة بسرعة لغير سبب على الإطلاق. ليست لديّ أيّ فكرة عن مصدر تلك الدموع، ولكنّني لأشهر عدّة بعد ذلك لم أعد أشعر البتّة بأنّي أنا نفسي. ظللت أعيش وأتنفّس، وأتنقّل من مكان لآخر، لكن لم يكن بوسعي الإفلات من فكرة أنّي كنت ميّتة، وأن لا شيء يمكن أن يعيدني مجدّداً إلى الحياة.

بعد حين عُدْنا إلى مهمّتنا على السّطح. كان الوقت إذ ذاك بداية العصر، وكان القيظ قد بدأ يذيب القطران، ويحلّه محوّلاً إيّاه إلى وسادة سميكة لزجة. بذلة فرديناند لم تُمضِ رحلة سعيدة خلال سفرها صعوداً على السّلّم، وما إنّ حرّرناه من الملاءة حتّى انغمست إيزابيل مرّة جديدة في نوبة مديدة من التحضيرات والتهيئيات. وحين حلّت أخيراً لحظة حمله إلى الحافّة أصرّت إيزابيل على أن يكون جسمه

مستقيماً. وإلا فسوف يضيع هدف اللّعبة. قالت، يتوجّب علينا أن نفتعل الوهم الموحي بأنّ فرديناند كان واحداً من الواثبين، والواثبون لا يزحفون، كانوا يتقدّمون بشجاعة إلى شفا الكارثة مرفوعي الرّأس. كان هذا المنطق غير قابل للنقاش، وهكذا أمضينا الدّقائق العديدة التّالية متصارعتيْن مع جسم فرديناند الجامد. دافعتيْن وشادّتيْن إلى أن جعلناه يقف متقلقلاً على قدميه. لقد كانت بصراحة بعض مسرحيّة هزليّة شنيعة. كان فرديناند الميّت واقفاً بيننا، متهادياً دمية عملاقة بزنبرك ـ شعره متطاير في الهواء، وسرواله منزلق إلى أسفل وركيه، وذاك التّعبير المروّع والرّهيب المسمّر على وجهه. ساندناه وتقدّمنا به باتّجاه زاوية السّطح، وجعلت ركبتاه تلتويان وتنجرّان، وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى هناك كان حذاءاه قد سقطا. ولم تملك أيّ منّا الشّجاعة الكافية للدّنوّ والالتصاق بالحافّة، ولهذا لم يكن بمقدورنا أن نكون أبداً واثقتين من أنّه كان هناك أحدٌ ما في الشّارع في الأسفل ليرى ما قد حدث. كنّا على قرابة ياردة من الحافّة، لا نجرؤ على التّقدّم أكثر، وجعلنا نَعُدّ معاً لنواقت جهودنا، ثمّ قمنا بدفع فرديناند دفعة عنيفة، وسقطنا متراجعتيْن توّاً كي لا يجرّنا زخم الدفعة معه. كان بطنه أوّل ما اصطدم بالحافّة، وقد جعله هذا يتأرجح قليلاً، ثمّ انقلب وسقط. وأذكر أنّي أصخت لأسمع صوت ارتطام جثّته وهي تحطّ على الرّصيف. إلاّ أنّي لم أسمع قطّ غير دقّات نبضي، وهي تضجّ في رأسي. وكانت تلك آخر مرّة شاهدنا فيها فرديناند. لم تنزل أيّ منّا إلى الشّارع طوال ما تبقّى من النّهار، وحين خرجت في الصّباح التالي لأبدأ تجوالي بالعربة، كان فرديناند قد اختفى مع كلّ ما كان يرتديه.

بقيت مع إيزابيل حتّى النّهاية. وهذا يشمل الصّيف والخريف وما

بعدهما لبعض الوقت - حتّى تخوم الشّتاء حين بدأ الصّقيع ينتشر جدِّيّاً. ولم نتكلَّم خلال تلك الأشهر البتّة عن فرديناند، لا عن حياته، ولا عن موته، ولا عن أيّ شيء. صعب عليّ أن أصدّق أنَّ إيزابيل استطاعت جمع قواها، أو شجاعتها لقتله، غير أنّ ذلك كان التّفسير الوحيد الّذي بدا لي منطقيّاً. في أوقات كثيرة أغوتني فكرة أن أسألها بشأن تلك اللّيلة، غير أنّي لم أتمكّن أبداً من جعل نفسي أقوم بذلك. لقد كانت بشكل ما مسألة تخصّ إيزابيل، ولم أشعر بأنّ لديّ الحقّ بسؤالها، إلاّ إذا رغبت هي في التّحدُّث بشأنها.

الأكيد في الموضوع هو أنّ أيّاً منّا لم تكن آسفة على موته. وبعد يوم أو يومين من مراسم السّطح، جمعت كلّ مقتنياته وبعتها، بما فيها نماذج السّفن ونصف أنبوب من الغراء، ولم تنبس إيزابيل بحرف. كان ينبغي أن يُتيح الزّمن إمكانات جديدة بالنّسبة إليها، غير أنّ الأمور لم تجرِ كذلك. واستمرّت صحّتها في التّدهور، ولم يسعها في الواقع أن تستفيد من الحياة بدون فرديناند. والحقيقة أنّها، بعد ذاك اليوم على السّطح، لم تغادر مجدّداً الشّقّة أبداً.

أدركت أنّ إيزابيل كانت تموت، غير أنّه لم يخطر لي أنّ ذلك سيحصل بتلك السّرعة. بدأ الأمر بعجزها كلّيّاً عن المشي، وبعدها شيئاً فشيئاً انتشر الوهن، ولم تعد قدماها وحدهما هما العاجزتين، بل كلّ شيء فيها، من ذراعيها نزولاً حتّى عمودها الفقريّ، وحلقها وفمها في النهاية. وكان ما أصابها هو نوعٌ من تصلّب الأنسجة، هكذا قالت لي وأضافت أنّ ليس من شفاء لهذا. كانت جدّتها قد ماتت بالمرض نفسه منذ زمنٍ طويل، وكانت إيزابيل تشير إليه بكلّ بساطة داعية إيّاه، «الانهيار»، أو «الانحلال». وكان في وسعي محاولة

إراحتها والاهتمام بهـا، ولكن لم يكن في المقدور عمـل أيّ شيء سوى ذلك.

أبشـع قسم في الموضـوع هو أنّـه كان عـليّ أن أتابـع العمـل. أن أنهض باكراً في الصّباح وأنطلق عبر الشوارع بحثاً عن كلّ ما يمكن أن أعثر عليه. وكان قد فارقني الولع بذلك، وازدادت شيئاً فشيئاً بالنّسبة إليّ صعوبةُ العثور على أيّ شيء قيّم. كنت على الدوام متخلّفـة وراء ذاتي، الأفكار إلى اتّجاه، والخطوات إلى آخر، عـاجزة عن إنجـاز أيّ نشاط سريع أو أكيـد. ولم يمضِ وقتٌ طويـل حتّى تغلّب عليّ صيّـادو المتـاع الآخـرون من جـديـد. بـدا وكـأنّهم ينـدفعـون منسلّين من لا مكان، مختطفين الأشياء منّي وأنا على وشك التقاطها. وكان هذا يعني أنّه يتوجّب عليّ أن أقضي أكثر وأكـثر من الوقت خـارجاً من أجـل أن أحصل على حصّتي، ومعـذّبة طـوال الوقت بفكـرة العودة إلى المنـزل والاعتناء بإيزابيل. كنت أتخيّـل باستمـرار أنّ شيئاً مـا سيصيبها أثنـاء غيابي، وأنّها يمكن أن تموت من غير أن أكون هناك، وكان هـذا كفيلاً بعزلي كلّياً، وجعلي أنسى العمل الّذي كان عليّ القيام به. وصدّقني، كان القيام بهذا العمل أمراً ضروريّاً. وإلاّ فلن يكون لدينا ما نأكله.

قبيل النّهاية، أمسى مستحيلاً على إيزابيل التحرّك بمفـردها. وكنت أحـاول أن أرتّب لها أوضـاعها بـأمان في الفـراش، ولكن لأنّها لم تعد تملك السّيطرة على عضلاتها، فقد كانت تـأخذ حتـماً بالانـزلاق مجدّداً بعد بضع دقائق. كانت تلك التنقّلات في موضعها بمثابـة مأسـاة لها، ولقد كان حتّى وزن جسمها الضاغط على الفراش يجعلها تشعر كما لو أنّها تُحـرق حيّة. لكن الألم كـان فقط جزءاً من المشكلة. إذ إنّ انهيـار العضـلات والعظام بلغ أخيـراً حلقهـا، وحـين حـدث ذلـك بـدأت

إيـزابيل تفقـد القدرة عـلى الكلام. إنّ جسـداً منحلاًّ هـو شيء يمكن فهمه، ولكن حين يختفي الصّوت أيضاً فإنّ الأمر يبدو وكأنّ الشّخص لم يعد هناك. بدأ ذلك مـع ارتباك في النّـطق ـ وكانت كلماتهـا تتلعثم بغير وضوح عند مخارجها، وأمست الحروف السّاكنة أقلّ حدّة، وأقـل تمييزاً، وتدريجيّاً بدأت تبدو كالحـروف الليّنة. لم أعـر ذلك في البـداية اهتماماً كبيراً. وكان هناك أمور كثيرة أشدّ إلحـاحاً لأفكّـر فيها، وعنـد تلك النقطة كان لايزال في المقدور فهمهـا بقليل من المجهـود. ولكن زادت حالتها بعد ذاك سوءاً، ووجدت نفسي جاهـدة لفهم ما كـانت تحاول قوله، وقد قُدِّر لي باستمرار أن أفقه ذلـك في النّهايـة وبطريقـة مـا، ولكن بصعوبـة أكثر فـأكثر مـع مضيّ الأيّـام. ثمّ اكتشفت ذات صباح أنّها فقدت القدرة على الكلام كلّياً. كانت تقرقـر وتئنّ ساعيـة إلى أن تقـول لي شيئـاً، ولكن لتفلح فقط في إصـدار بقبقـة غـير متماسكة، ضجّة مقيتة بدت كالتّشويش عينه. كان اللّعاب يسيـل من زاويتي فمهـا، والجلبة تنهمـر بـدون تـوقّف، لحن من اللّفظ والألم لا يمكن تخيّله. بكت إيزابيل حين سمعت نفسها تلك الصبيحة، ورأت النّـظرة المنذهلة عـلى وجهي، ولست أعتقد أنّي شعـرت يومـاً بـأسف كالّذي شعرت به تجاهها بعدئذ. وشيئاً فشيئاً أفلت منها العالم برمّتـه، ولم يكن قد تبقّى الآن أيّ شيء تقريباً.

لكنّهـا لم تكن تمامـاً النهايـة. فعلى مـدى ما يقـارب العشرة أيّـام، كانت إيزابيـل لاتزال تملك مـا يكفي من القوى لتكتب إليّ خـطابات بواسطة القلم، وتوجّهتُ إلى وكالة ترميم وابتعت دفتراً كبيراً بغـلافٍ أزرق. كانت كلّ الصّفحـات بيضاء، وجعله هـذا مرتفـع الثّمن، إذ إنّ إيجاد الدفاتر الجيّـدة كان أمـراً بمنتهى الصعوبـة في المدينـة. ولكنّه

بالنّسبة إليّ كان يستحقّ ذلك تماماً، ومهما كان الثمن. كان العميل رجلاً تعاملت معه سابقاً ـ السيِّد كامبينو، أحدب شارع الصين ـ وأذكر مساومتي إيّاه بأسناني وأظافري، ومماحكتنا ما يقارب نصف السّاعة. ولم أفلح في جعله يخفض سعر الدَّفتر، ولكنّه رمى لي في النهاية ستّة أقلام ومبراة صغيرة بلاستيكيّة مجّاناً.

ها أنذا لغرابة الصّدف أكتب على ذلك الدَّفتر الأزرق نفسه الآن. لم يقدّر لإيزابيل أن تستخدم الكثير منه، ليس أكثر من خمس أو ستّ صفحات، وبعدما ماتت لم أستطع أن أسمح لنفسي بالتخلّص منه. حملته معي أثناء رحلاتي، ومذ ذاك احتفظت به باستمرار ـ الدّفتر الأزرق، الأقلام السّتّة الصفراء، والمبراة الخضراء. ولا أعتقد أنّي كنت لأبدأ الكتابة إليك لو لم أعثر على هذه الأشياء في حقيبتي ذاك اليوم. ولكن كان هناك الدفتر مع كلّ تلك الصَّفحات البيضاء فيه، وفجأة انتابتني تلك الحاجة الطّاغية لتناول واحد من تلك الأقلام والبدء بهذه الرسالة. آنئذ كان الأمر الوحيد الّذي يعني لي شيئاً: أن أقول كلمتي أخيراً، أن أدوّنها على هذه الصّفحات قبل فوات الأوان. أرتعد حين أفكِّر كيف أنّ كل شيء مترابط وملتحم. فلو لم تخسر إيزابيل صوتها، ما كان أيّ من هذه الكلمات موجوداً. ولأنّ الكلمات انعدمت، انبثقت منّي هذه الكلمات المغايرة. أريدك أن تتذكّر هذا. لولا إيزابيل، لما كان أيّ شيء الآن. ما كنت بدأت أبداً.

في النّهاية، كان ما قضى عليها هو الشّيء نفسه الّذي قضى على صوتها. توقّف حلقها أخيراً عن العمل بشكلٍ كلّيّ، ونتيجة لذلك لم يعد بوسعها بعد ذلك ابتلاع الطّعام، الأطعمة القاسية ممنوعة كلياً، وفي الواقع غدا مستحيلاً عليها حتّى ابتلاع الماء.

اختُصر عملي أخيراً إلى مسح بضع نقاط من الرطوبة فوق شفتيها لأمنع عن فمها الجفاف، ولكن عرف كلانا أنّها الآن مسألة وقت فقط إذ إنّها كانت عمليّاً تموت جوعاً، تقضي بسبب نقص التغذية. كان أمراً مثيراً، ولكن حدث أن اعتقدت مرّة أنّ إيزابيل كانت تبتسم لي، إذ ذاك عند النّهاية، فيما كنت جالسة إلى جانبها مبلّلة شفتيها بالمياه. غير أنّه ليس في وسعي أن أكون واثقة كلّياً، إذ إنّها كانت قد أصبحت في ذلك الوقت بالذّات بعيدة جدّاً عنّي، غير أنّي أحبُّ أن أعتقد أنّها كانت ابتسامة، حتّى ولو لم تكن إيزابيل تفقه ما كانت تفعل. كانت شديدة الاعتذار بخصوص سقمها، خجلة جدّاً لاضطرارها إلى الاعتماد عليّ في كلّ شيء، ولكن الحقيقة كانت أنّي كنت بحاجة إليها تماماً بقدر حاجتها هي إليّ. وما جرى بعدئذ، توّاً بعد الابتسامة، هذا إن كانت ابتسامة، كان أنّ إيزابيل راحت تختنق بلعابها، فما عاد في وسعها ابتلاعه، مع أنّي حاولت أن أنظّف لها فمها بأصابعي، فإنّ كثيراً منه كان ينزلق مجدّداً إلى داخل حلقها، وسرعان ما لم يتبقّ لها أيّ هواء لتتنفّس. الصّوت الّذي لفظته بعدئذ كان مريعاً، بيد أنّه كان شديد الوهن، ومنزّهاً للغاية من المعاناة الّتي لم تدم طويلاً.

لاحقاً في ذاك النّهار نفسه، جمعت عدداً من الأغراض من الشّقة، ووضّبتها في عربتي، وحملتها إلى «جادّة التطّور» في المنطقة السكنيّة الثامنة. كان تفكيري مشوّشاً ـ أستطيع حتّى أن أذكر أنّي كنت بعيدة عنه في ذلك الوقت ـ غير أنّ ذلك لم يعارض طريقي. بعت صحوناً وثياباً وبياضات منزليّة وقدوراً ومقالي، ويعلم الله ماذا أيضاً ـ كلّ شيء قدر ليدي أن تبلغه. كان التخلّص من كلٍّ هذه الأشياء بمثابة

فرجٍ لي، وقد حلّ بشكلٍ ما مكان الدموع. لم أعد أقوى على البكاء البتّة، هل تفهم، بعد ذاكَ النّهار على السّطح، وبعدما ماتت إيزابيل، انتابتني رغبة في تحطيم الأشياء، رغبت في قلب البيت رأساً على عقب. حملت الدراهم وقطعت المدينة إلى مُطَلّ أوزون وابتعت أروع فستان وقعت عليه يداي. كان أبيض مع إبريم مخرّم على القبّة والكُمّيْن، ونطاق عريض من السّاتان التفّ حول الخصر. وأعتقد أنّ إيزابيل كانت ستفرح لو عرفت أنّها كانت ترتديه.

بعد ذاك، أمست أموري مشوّشة بعض الشّيء. كنت منهكة، أنت تفهم، وانتابتني تلك الضبابيّة الّتي تغشى الدّماغ، وتدفعك إلى الاعتقاد بأنّك ماعدت أنت نفسك، حين تبدأ بالانحراف من الوعي وإليه، على الرّغم من صحوتك. أذكر أنّي حملت إيزابيل بين ذراعيّ، وارتجفت حين شعرت كم كانت قد غدت خفيفة الوزن. كان الأمر وكأنّي أحمل طفلاً، بتلك العِظام الريشيّة وذاك الجسد اللّينٍ المطواع. ثمّ أصبحت خارجاً في الشّارع دافعة إيّاها داخل العربة عبر المدينة، وفي استطاعتي أن أذكر أنّي كنت خائفة، شاعرة بأنّ كلّ الّذين مررت بهم كانوا يتطلّعون إلى العربة، متسائلين عن السّبيل إلى مهاجمتي وسرقة الثّوب الّذي كانت إيزابيل ترتديه. وفي مقدوري أن أرى نفسي بعد ذلك وقد بلغت بوّابة مركز التّحويل الثّالث، ومنتظرة في الصّف مع آخرين عديدين، وبعدها، حين حلّ دوري، قيام أحد المسؤولين بنقدي الأجر المعهود. هو أيضاً حدّق في ثوب إيزابيل باهتمام يفوق العادة، وكان في وسعي رؤية دوران دواليب الجشع داخل رأسه الضئيل الدنيء. رفعت الدراهم الّتي كان قد ناولني إيّاها للتّو، وقلت له إنّ في مقدوره الحصول عليها إن وعدني بحرق الثّوب

مع إيزابيـل. وافق بالـطّبع ـ بغمـزة سوقيّـة متواطئـة. إلاّ أنّه لم يكن لديّ من سبيل للتّأكُّد من وفائه بالعهد. لقد كان جـزءاً من حياة قـد انتهى، وهأنذا أمام فرصة سانحة لي لأبدأ مسيرة جديـدة، أن أسيطر على حياتي، وأفعل من أجلها شيئاً.

من غير حتّى أن أتوقّف البتّة في طريقي، توجّهت إلى أحد مزوِّري الوثائق في المنطقة السكنيّـة الخامسـة، وبعت إجازة الكنـاسة خـاصّتي بثـلاث عشرة غلوطـة. كـان المـال الّـذي كسبتـه ذاك النّهـار يكفيني لأستمـرّ أسبوعـين أو ثلاثـة عـلى أقـلّ تقـديـر، ولكن لأنّي كنت قـد انـطلقت الآن، فإنّـه لم يكن في نيّتي أن أتوقّف. وعنـدهـا عـدت إلى الشّقـة مـدجّجـة بـالمخـطّطات، وجعلت أحسب كم يمكنني أن أجني مـزيداً من المـال ببيعي مزيـداً من الأغراض المنـزليّـة. عملت طـوال اللّيل، مكوّمة الأغراض كتلة في وسط الغرفة. فتّشت في الخزانة بدقّة عن كلّ غرض مفيد، قالبة الصّناديق، منقّبة في الجواريـر، وبعدئـذ، قـرابة السّـاعة الخـامسة فجـراً استخرجت غلّة غـير متوقّعـة من مخبـأ إيزابيل الواقع تحت الأرضيّـة، ومنها سكّـين وشوكـة فضّيّة، وإنجيـل مؤطّر بطلاءٍ ذهبيّ، ومحفظة صغيرة محشوّة بثمان وأربعين غلوطة فكّة. قضيت معظم النّهار التّـالي وأنا أحشـو الأشياء الصّـالحة للبيـع داخل حقيبة. ثمّ جلت على عدّة وكالات ترميم في أرجاء المدينة لأبيـع دفعة من السّلع وأعود بعدها إلى الشّقّة لتجهيـز دفعة أخـرى. وقدّر لي أن أجمع من ذلك كلّه ما يزيد عن ثلاثمئة غلوطة (السكّين والشوكة كسبا وحدهما ما يقارب ثلث المبلغ)، ومن غـير حسبان ضمنت نفسي لمـدّة خمسة أو ستّة أشهر على أقلّ تقدير. وطبقاً للظروف كـان ذلك يفـوق ما طلبته. وشعرت بأنّي ثريّة، وأنّي معنويّاً على قمّة العالم.

غير أنّ هذه المعنويّات المرتفعة لم تدم طويلاً. فقد توجّهت إلى الفراش تلك اللّيلة منهكة من جرّاء حفلة البيع الّتي قمت بها، وفي صباح اليوم التّالي بالذّات، بعد أقلّ من ساعة على انبلاج الفجر، أيقظتني جلبة طرق مرتفع على الباب. غريب كيف يدرك المرء بسرعة أشياء كهذه، ولكن خاطري الأوّل بعد سماع صوت القرع كان أنّي تمنّيت أن لا يقتلوني. لم يتسنّ لي حتّى أن أنهض. حطّم مقتحمو البيوت الباب وولجوا حاملين كالعادة العصيّ والهراوات. كانوا ثلاثة وتعرّفت إلى الاثنين الأضخم بينهم، فقد كانا ابنا العائلة غاندرسن المقيمة في أسفل البناية. لا بدّ أن الخبر انتشر سريعاً، وهذا ما راودني. إيزابيل كانت قد ماتت منذ يومين فقط، وها قد انقضّ عليّ الجيران.

انبرى أحدهم: «هبّي في الحال يا صغيرة. إنّه وقت الرّحيل. هيّا تحرّكي بلطف وهدوء، ولن تتأذّي».

كان كلّ ذلك مخيّباً لا يمكن احتماله. قلت خارجة من ملاءتي: «أعطوني فقط بضع دقائق لأوضّب حقيبتي». جهدت كي أبقى هادئة، لأقمع سخطي، عارفة أنّ أيّ تلميح بالعنف من طرفي كان كفيلاً بجعلهم ينقضّون عليّ.

حسناً، قال أحدهم: «سنهبك ثلاث دقائق. ولكن لا أكثر من حقيبة واحدة. ضعي أغراضك فيها وانصرفي بسرعة».

كانت الأعجوبة أنّ الحرارة كانت قد انخفضت بشكلٍ متطرّف في اللّيل، وانتهى بي الأمر إلى أن نمت مرتدية كلّ ثيابي. وقد أعفاني هذا من مهانة ارتداء ملابسي أمامهم، ولكن الأهمّ من ذلك ـ وكان هذا في النّهاية ما أنقذ حياتي ـ أنّي كنت قد وضعت الثلاثمئة غلوطة داخل

جيوب سروالي. لست ممَّن يؤمنون بالاستبصار، ولكن بدا وكأنّني كنت أعرف سلفاً ما كان سيحصل. راقبني قطّاع الطّرق بانتباه فيما كنت أملأ حقيبة الظّهر، غير أنّ أيّ واحدٍ منهم لم يكن ذكيّاً إلى درجة الشّك في موضع مخبأ الدراهم. ثمّ عجّلت مولّية الأدبار بأقصى ما بمقدوري، قافزة الدرجات مثنى مثنى. وتوقّفت قليلاً عند أسفلها لالتقاط أنفاسي، ثمَّ دفعت الباب وخرجت. صفعني الهواء كمطرقة. كان هناك ضجيجٌ هائلٌ للرِّيح والصّقيع، صخب الشّتاء ملأ أذنيّ، وفي كلّ الأمكنة من حولي كانت أغراض تتطاير بعنفٍ مجنون، متحطّمة عشوائيّاً في جنبات الأبنية، ومنزلقة في أرجاء الشّوارع، ومتناثرة مثل أكوامٍ من القطع الجليديّة الغليظة. وكان قد مضى على وجودي في المدينة الآن ما يزيد عن السنة، ولم يكن قد حدث أيّ شيء. كان لديَّ بعض المال في جيبي، وكنت متعطّلة، وليس لديّ مكان أسكن فيه. وبعد كلٍّ ما عشته من أفراح الحياة وأتراحها إذا بي أعود إلى حيث بدأت.

على الرّغم ممّا قد تفترضه فإنَّ الوقائع ليست معكوسة البتّة. فمجرّد استطاعتك الدخول لا يعني أنّك ستستطيع بالتّالي الخروج. فالمداخل لا تصبح مخارج، ولا شيء يضمن أنَّ الباب الّذي كنت قد مررت عبره منذ لحظة سوف يظلّ هناك حين تلتفت بحثاً عنه مجدّداً. هكذا تجري الأمور في المدينة. ففي كلّ مرّة تعتقد أنّك تعرف الجواب عن سؤالٍ ما لا تلبث أن تكتشف أنّ لا معنى لذاك السّؤال البتّة.

قضيت عدّة أسابيع وأنا أحاول الفرار. بدا في البداية أنّ هناك عدّة احتمالات، سلسلة كاملة من الأساليب لأتمكّن من العودة إلى

الدّيار، وباعتبار أنّه كان بحوزتي بعض المال لأتصرَّف به، لم يخطر لي أبداً أنّ الأمر سيكون شاقّاً. كان هذا خاطئاً بالطّبع، ولكنّه اقتضاني وقتاً قبل أن قيّض لي التّسليم بذلك. كنت قد وصلت في سفينة خيريّة أجنبيّة، وبدا واقعيّاً أن أفترض أنّه سيكون بإمكاني العودة في واحدة مثلها. وهكذا توجّهت إلى رصيف الميناء، وأنا على استعداد كلّي لرشوة أيّ موظف رسميّ من أجل أن أحجز مقعداً لرحلتي. لم تكن هناك على أيّة حال أيّ سفينة، وحتّى قوارب الصّيد الصّغيرة الّتي كنت قد شاهدتها هناك قبل شهر توارت كذلك. وعوضاً عن ذلك، كان الميناء بأسره يغصّ بالعمّال - مئات ومئات منهم - وبدا لي أنّ هناك رجالاً يفوق عددهم طاقتي على إحصائهم. كان بعضهم يفرّغ دبشاً من شاحنات، وآخرون يحملون طوباً وحجارة إلى تخوم المياه، وغيرهم يهيّئون أساسات كما بدا أشبه بسورٍ بحريٍّ هائل، أو حصن. وقد انتشر حرّاس من الشّرطة بسلاحهم الكامل على الأرصفة مراقبين العمّال، وعجّ المكان بالجلبة والفوضى - هدير المحرّكات، واندفاعات الحشود في جميع الاتّجاهات، وأصوات آمري الفصائل زاعقين بأوامرهم. واكتشفت في النهاية أنّ ذاك كان مشروع الحائط البحريّ، وهو مشروعُ لوزارة الأشغال العامّة كانت الحكومة الجديدة قد أطلقته مؤخّراً. والحكومات هنا تأتي وترحل سريعاً، وغالباً ما يكون من الصّعب التأقلم مع التغييرات. كان هذا أوّل ما سمعته عن تولّي السّلطة الحاليّة، وحين سألت أحدهم عن المقصد من السّور البحريّ قال إنّه حماية ضدّ احتمال الحرب. والتّهديد بحدوث غزوٍ خارجيٍّ كان يتفاقم مؤخّراً، كما قال، وواجبنا كمواطنين هو حماية موطننا. وبفضل الجهود المشكورة للمعظّم كذا وكذا - أيّما كان اسم قائدنا الجديد - فإنّ المواد من الأبنية المنهارة كانت

تجمع الآن بهدف الدّفاع، وسوف يؤمِّن هذا المشروع العمل لآلاف من البشر.

سألته عن نوعيّة الأجر الّذي كانوا يدفعونه. قال إنّهم لا يدفعون مالاً، بل يقدّمون مكاناً للسّكن، ووجبة واحدة ساخنة في اليوم. هل يهمّك أن تتطوّعي؟ لا شكراً، قلت. لديّ أمور أخرى أقوم بها. قال، حسناً وأنا لديّ متّسع من الوقت لتبديل رأيي. كانت الحكومة تقدّر أنّه سيقتضي إنهاء العمل بالسّور خمسين سنة على الأقل. «هنيئاً لهم»، قلت، ولكن في غضون ذلك، كيف السّبيل إلى الخروج من هنا؟. آه لا، انبرى قائلاً هازّاً رأسه، إنّ هذا مستحيل. ما عاد يسمح للسّفن بالقدوم إلى هنا ـ وإن كان لا شيء يصل، فما من شيء يستطيع الخروج. سألت: «ماذا بشأن الطائرات؟» فردّ سائلاً، ما هي الطائرة؟ وهو يبتسم لي مرتبكاً بطريقة ما، كما لو أنّي أخبرته للتوّ نكتة لم يفهمها. قلت، إنّ الطيّارة هي آلة تطير عبر الجوّ، وتحمل النّاس من مكانٍ لآخر. هذا سخيف، قال وهو يرميني بنظرة مشكّكة. ليس هناك شيء كهذا. هذا مستحيل. سألته، ألا تذكر؟. أجاب، لا أعرف عمّا تتحدّثين. قد تتعرّضين للمشاكل إن رحت تنشرين هذا النوع من الهراء. إنّ الحكومة تكره أن يختلق النّاس القصص. هذا ضارٌ بالأخلاق.

أترى ما الذي يواجهك هنا. ليس الأمر مجرّد اختفاء أشياء، ولكن ما إن تتوارى حتّى تتوارى ذكراها أيضاً. تتشكّل مساحات قاتمة في الدّماغ، وإذا لم تبذل جهداً مستمرّاً لاستدعاء الأشياء الّتي اختفت فإنّها ستضمحلّ سريعاً وكلّياً من ذاكرتك. أنا لست أكثر مناعة من غيري ضدّ هذا المرض، ولا شكّ أنّ هناك العديد من هذه الفراغات

داخلي. يتوارى شيء ما، وإن انتظرت طويلاً قبل التفكير فيه فلن يستطيع أبداً أيّ قدرٍ من الجّهد تشكيله من جديد. في النّهاية ليست الذّاكرة فعل إرادة. إنّها شيء يحدث رغماً عنّا، وحين تتبدّل أمورٌ كثيرة طوال الوقت، فلا مفرّ من ارتباك الدّماغ، ويتحتّم أن تفلت منه أشياء. فحين أجد نفسي في بعض الأوقات متلمِّسة سبيلي إلى فكرة تملّصت منيٍ، أندفع منساقة في استرجاع عيشي القديم في دياري، مستذكرة كيف كانت الحياة حين كنت فتاة صغيرة، وتتوجّه العائلة برمّتها شمالاً في القطار إلى العطلات الصيفيّة. كان شقيقي الأكبر ويليام يسمح لي دائماً بالحصول على مقعده الملاصق للنّافذة، وكنت في الغالب لا أحدّث أحداً، بل ألصق وجهي بالزّجاج وأتأمّل المنظر في الخارج، مراقبة السّماء والأشجار والمياه، فيما القطار مسرعٌ عبر البرّيّة. كان ذلك بالنّسبة لي أمراً رائعاً على الدّوام، وأجمل بكثير من الأشياء في المدينة، وكلّ سنة كنت أحدّث نفسي قائلة، يا آنا، أنت لم تَرَيْ قطّ شيئاً أجمل من هذا ـ حاولي أن تتذكّريه، حاولي أن تحفظي بذاكرتك كلّ هذه الأشياء البديعة الّتي تشاهدينها، وبهذه الطّريقة سوف ترافقك دائماً، حتّى حين لا يعود في وسعك مشاهدتها. لا أعتقد أنّي حدّقت إطلاقاً إلى العالم بحدّة تفوق ذاك الّذي كنت أقوم به أثناء رحلاتي إلى الشّمال. كنت أرغب في امتلاك كلّ تلك الأشياء، في أن تصبح كلّ تلك الرّوعة جزءاً من الشّخص الّذي كنته، وأذكر أنّي حاولت تذكّرها، ساعية إلى تخزينها للأوقات اللّاحقة، محاولة التّمسّك بها من أجل الوقت الّذي سأحتاج فيه إليها حقّاً.

غير أنّ الأمر الغريب كان أنّه لم يبقَ أيّ منها معي. حاولت جاهدة، ولكنّني انتهيت بطريقة أو بأخرى إلى خسارتها، وفي النهاية

كان الأمر الوحيد الذي قُدِّر لي تذكّره هـو كم سعيت جاهـدة. كانت تلك الأشياء هي نفسها تجري بسرعة شديدة، وفي الوقت الّذي كنت أراهـا فيه بـالضبط، تكـون قـد طـارت كلّيـاً من رأسي، واستبـدلت بأشياء أخرى تكون قد توارت هي أيضاً قبل أن تتسنّى لي مشاهدتها. الشيء الوحيد المتبقّي لي هو ضبابيّة، مجرّد تشوّش مضيء وجميل. وأمّا الأشجار والسّماء والمياه، فكلّ هـذا توارى. وقـد كانت ضـائعة دائـماً حتّى قبل أن أراها.

لن ينفع إذن مجرّد الشّعور بالاشمئـزاز. الجميع معـرّض للإصـابة بالنسيان، حتّى تحت ظـلّ أفضل الـظروف، وفي مكان كهـذا، حيث يتـوارى عمليّاً الكثـير الكثـير من العـالم المحسـوس، في مقـدورك أن تتصوّر كم من الأشياء تصبح منسيّة على مرّ الـوقت. وفي النهايـة، لا تنحصر المشكلة تماماً في أنّ النّـاس تنسى، المشكلة هي أنّهم لا ينسون دائـماً الشيء نفسه. فـالّذي يبقى مـوجوداً كـذكرى عنـد شخص ما، يمكن أن يكون ضائعاً ومتعذّر الاسـترداد لدى آخـر، وهذا يَنتج عنه بالتّالي صعوبات، حـواجز متـماسكة ضـدّ التفاهم. كيف يمكنـك أن تتحدّث مع شخصٍ مـا عن الطائـرات، على سبيـل المثال، إذا كـان ذاك الشّخص لا يفقـه ما هي الـطائرة؟. إنّها عمليّـة إمّحـاء بـطيئـة، ولكن يتعذّر تجنُّبها. تميل الكلمات لأن تدوم أكثر بقليل من الأشيـاء، ولكنّهـا في النهايـة تضمحلّ أيضـاً، وبمعيّة الصـور الّتي استَحضَـرتْهـا يوماً. أصناف برمّتهـا من الأغراض كـانت تختفي، آنية الأزهـار على سبيل المثال، أو أعقـاب السجائـر، أو الشّرائط المطاطيّـة، وستتمكّن لفترة من الوقت معرفة تلك الكلمات، حتّى لو لم يكن بوسعـك تذكّـر معنـاها. ولكن بعـدئذٍ، تصبـح الكلمات شيئاً فشيئـاً مجرّد أصـوات،

مجموعة عشوائيّة من المخارج الصوتيّة العليا، والحروف الاحتكاكيّـة، عاصفة من الفونيمات المدوّمة، ويغدو الأمر في النّهاية، ركـام بربـرة. كلمة «إناء الزّهور»، لن تعني لك شيئاً أكثر من كلمة «سبلانديغـو». سيسمعها دماغك، ولكنّه سيسجّلها كشيءٍ ما غير مفهوم، مجرّد كلمة من لغة لا تتكلّمها. وفيما يبرز حولك المزيد والمزيد من هـذه الكلمات الغـريبة الـوقع، تغـدو المحاورة في الحقيقـة عسيرة. إنّ كـلّ شخص يتكلّم في الواقع لغته الخاصّة، وفيما تضمحلّ كثافة التّفاهم المشـترك، فإنّ مشقّة التّواصل مع أيّ واحد تغدو أكثر فأكثر حدّة.

اضـطررت إلى التّخلّي عن فكـرة العودة إلى الـدّيار. وبـين معظم الأمور الّتي كانت قد جرت لي حتّى ذلك الوقت، أعتقد أنّ تقبّل هذا كـان الأشـدّ وقعـاً علـيّ. حتّى ذاك الـوقت كنت قـد ضلّلت نفسي بالاعتقاد بـأنّ في وسعي العودة وقتما أشاء. ولكنْ مـع ارتفاع السـور البحـريّ الآن، ومع حشـد هـذا العـدد الكبـير من الأشخـاص لمنـع المغادرة، فإنّ هذه الفكرة المعـزية تحـطّمت واستحالت نثـاراً. فقدت أوّلاً إيـزابيل، ثمّ خسرت الشقّـة. وكان عـزائي الـوحيـد هـو فكـرة موطني، ولقد سلبت الآن على حين غرّة تلك الفكرة كـذلك. ولأوّل مرّة منذ قدومي إلى المدينة كنت مغمورة بالتشاؤم.

راودني أن أنطلق في الاتّجاه المعاكس. كان استحكام فيدلـر يرتفـع إزاء طرف المدينة الغربي، وكان يفترض أنّ كلّ ما تحتـاجه لعبـوره هو إجـازة سفر. أيّ شيء سيكـون أفضل من المـدينة، هكـذا شعـرت، حتّى المجهـول، ولكن بعد كـرّ وفرّ بـين عدد من إدارات الحكـومـة، وانتـظار في الصفوف يـوماً بعـد يوم ليقـولوا لي فقط إن علـيّ أن آخذ طلبي مجـدّداً إلى مكتب آخر، أدركت أخيـراً أنّ بـدل إجـازة السفـر

ارتفع إلى مئتي غلوطة. كان ذلك غير مقبول على الإطلاق، إذ إنّه كان يعني أن عليّ أن أستخدم القسم الأعظم من مدّخراتي دفعة واحدة. وتناهى إلى مسمعي كلام عن منظّمة سفليّة كانت تعمل على تهريب النّاس إلى خارج المدينة مقابل عُشْر هذا المبلغ. غير أنّ قسماً كبيراً من النّاس كان مع الاعتقاد القائل بأنّ هذه كانت في الواقع خدعة، شكلاً ذكيّاً لشَرَكٍ دبّرته الحكومة الجديدة. كان هناك مركز للشرطة عند نهاية النفق البعيدة، هكذا قيل، وكان يجري اعتقالك لحظةَ تزحف خارجاً من الجهة الأخرى، ليقوموا بعدها على الفور بإلحاقك بأحد معسكرات الأشغال الشّاقة الإجباريّة في منطقة المناجم الجنوبيّة. ولم يكن من سبيل لأتأكّد من صحّة هذه الإشاعة أو كذبها، غير أنّ اكتشاف هذا لم يكن يستأهل كلّ المخاطرة. ثُمّ حلّ الشّتاء، وجمّد بالنّسبة إليّ البحث بالمسألة. أيّة نيّة بالرّحيل كان يجب أن تنتظر حلول الرّبيع ـ على افتراض أنّي سأتمكّن بالطّبع من البقاء على قيد الحياة حتّى الرّبيع. ونظراً للظّروف فإنّ أيّ شيء لم يكن أقلّ يقيناً بالنّسبة إليّ من هذا.

كان ذلك الشّتاء هو الأقسى في الذّاكرة ـ الشّتاء الرّهيب كما دعاه الجميع ـ وحتّى الآن، بعد سنوات من حدوثه، فإنّه لايزال قائماً كحدثٍ حاسم في تاريخ المدينة. خطّ فاصل بين حقبة وحقبة تالية.

استمرّ الصقيع طوال خمسة أشهر أو ستّة. وكان يحصل من حين إلى آخر دفءٌ لفترة وجيزة، غير أنّ انبجاسات الدفء القليلة تلك كانت تزيد الصعوبات صعوبة لا غير. كانت تثلج على مدى أسبوع ـ عواصف هائلة مضلّلة كانت تضرب المدينة بالبياض ـ وكانت الشّمس تبزغ بعدئذٍ، محرِقة باقتضاب وبحدّة صيفيّة. كانت تذيب

الثّلج، وعند العصر كانت الشّوارع تمسي أشبه بفيضان. كانت القنوات تفيض بالمياه المنجرفة، وأينما صوّبت بصرك كانت تنبري التماعات مجنونة للمياه والضّوء، كما لو أنّ لون العالم برمّته تحوّل إلى بلّورٍ هائلٍ وذائب. ثمّ كانت السّماء تتجهّم بغتة ليبدأ اللّيل، وتهبط الحرارة إلى ما دون الصّفر مجدّداً، مجلّدة المياه على نحو مفاجئ فيتشكّل الجليد في تصاوير عجيبة. نتوءات، تموّجات وثنيات حلزونيّة، أمواج برمّتها وقد تسمّرت في أثناء تموّجها، لقد كان المشهد برمّته أشبه بجنون جيولوجيّ مصغّر.

وبالطبع فإنّه مع حلول الصباح كان السّير شقيق المستحيل. أناسٌ يتزحلق بعضهم فوق بعض، وجماجم تتحطّم على الجليد، وأجساد تتخبّط بائسة على السّطح الأملس القاسي. وبعدئذ كانت تثلج مجدّداً، وتتكرّر الدورة من جديد. وقد استمرّ هذا طوال أشهر. وإلى أن توقّف كان قد قتل آلافاً وآلافاً من البشر. وكان البقاء على قيد الحياة بالنّسبة إلى المشرّدين أمراً مستحيلاً، ولكن حتّى أصحاب المساكن والمتخمين أصابهم الموت أيضاً وبأعداد ضخمة. العمارات القديمة انهارت تحت وطأة ثقل الثّلج، وانسحقت عائلات بأكملها. أفقد الصّقيع النّاس صوابهم، وفي النّهاية لم يكن الجلوس طوال النّهار داخل شقق سيّئة التدفئة أفضل حالاً من التّجوال خارجاً. كان النّاس يحطّمون أثاثهم ويحرقونه طلباً لقليل من الدفء، ولقد فُقِدت السّيطرة على الكثير من هذه النّيران. كانت عمارات تُباد تقريباً يوميّاً، وأحياناً أحياء برمّتها، ومجموعات سكنيّة. وكلّما كانت تنشب واحدة من تلك الحرائق، كانت أعدادٌ ضخمة من النّاس المشرّدين تحتشد في الجوار، ويقفون هناك مادام البناء يحترق ـ مستمتعين بالدفء،

ومهلّلين للّهب وهو يتصاعد إلى السّماء. وقد قُطعت كلّ أشجار المدينة خلال الشّتاء وأُحرقت طلباً للوقود. واختفت كلّ الحيوانات الأليفة، وصيدت كلّ العصافير. النّقصان في الموادّ الغذائيّة أصبح مأسويّاً إلى درجة أنّهم أجّلوا مشروع بناء السّور البحريّ - بعد ستّة أشهر فقط من ابتداء العمل - كي يمكن استخدام كلّ رجال الشّرطة الموجودين لحراسة شحنات السِلَع إلى المتاجر البلديّة. وعلى الرّغم من ذلك فقد حدث عدد من أعمال الشّغب بسبب الطّعام، الأمر الذي أدّى إلى وقوع المزيد من القتلى والجرحى والكوارث. ولا أحد يعلم كم من النّاس لَقُوا حتفهم خلال الشّتاء، ولكنّي سمعت تقديرات مرتفعة تصل إلى ثُلث الكثافة السكّانيّة أو ربعها.

بطريقة أو بأخرى لازمني حظّي الطيّب. وفي نهاية شهر تشرين الثاني، أوشكتُ أن يقبض عليّ في شغب متعلّق بالطّعام عند جادّة بتوليمي. كان هناك ذاك النّهار وكالعادة صفٌّ لامتناهٍ من النّاس. وبعد الانتظار أكثر من ساعتين في البرد القارس من غير أيّ تقدّم، بدأ ثلاثة رجال وقفوا تماماً أمامي يشتمون أحد رجال الشّرطة الحرّاس. وانتشل الحارس هراوته وتوّجه توّاً باتّجاهنا، وهو على استعداد للطم أيّ واحد سيقف في طريقه. السّياسة المتّبعة كانت الضرب أوّلاً، وطرح الأسئلة في ما بعد، وعرفت أنّني لن أحصل على أيّ فرصة للدّفاع عن نفسي. ومن غير أن أتوقّف حتّى لحظةً للتّفكير، اندفعت خارجةً من الصّفّ، وجعلت أركض بسرعةٍ كبيرة في الشّارع، راكضة بكلّ ما أوتيت من قوّة. وفي لحظة ارتباك تقدّم الحارس خطوتين أو ثلاثاً باتّجاهي ثمّ توقّف، راغباً كما بدا واضحاً في إبقاء انتباهه مشدوداً باتّجاه الحشد. كان تواريَّ عن الأنظار بالنّسبة

إليه خدمة جُلّى. تابعت الرّكض، وما إن أدركت المنعطف حتّى سمعت الحشد ينفجر في صراخٍ عدائيٍّ بشعٍ ورائي. امتلكني من جرّاء ذلك رعبٌ حقيقيّ. لأنّي أدركت أنّه خلال دقائق قليلة سوف تغمر المنطقة بأسرها فرقة جديدة من شرطة الطّوارئ الخاصّة بقمع الشّغب. وتابعت أعدو بأسرع ما في قدرتي، مندفعة كالسّهم من شارع لآخر، خائفة حتّى من الالتفات إلى الخلف. وفي النّهاية، بعد ربع ساعة، وجدت نفسي راكضة نحو عمارة حجريّة ضخمة. لم يكن بوسعي أن أحزر إذا كنت ملاحقة، أو لا، ولكن لحظتئذٍ بالضّبط انفتح بابٌ على بعد بضعة أقدام أمامي، فاندفعت توّاً والجة إيّاه. كان رجلٌ نحيل بنظّارات ووجه شاحب واقفاً عند حافّته، وعلى وشك الخطوَ إلى الخارج، وتطلّع إليّ بهلع وأنا أدلف مجتازة إيّاه. وكنت قد دخلت ما بدا أنّه نوعٌ من مكتب، غرفة صغيرة توزّعت فيها ثلاث طاولات أو أربع وركام أوراق وكتب.

انبرى قائلًا لي فاقداً صبره: «لا يمكنك الدّخول إلى هنا هذه مكتبة».

«لا يهمّني إذا كان منزل الحاكم»، قلت هذا مرتدّة وأنا أحاول التقاط أنفاسي. «لقد دخلت الآن، وما من أحد سيستطيع إخراجي من هنا».

أجاب بصوت أنيق معتدّ: «سأضطرُّ إلى التبليغ عنك، لا يمكنك أن تقتحمي المكان ببساطة هكذا. هذه مكتبة ولا يسمح لأحد بالدُّخول إلى هنا من غير إجازة دخول».

خبلني تصرّفه المتَّهِم الرّادع كلّياً ولم أعرف بماذا أُجيب. كنت منهكة، ومنفعلة إلى أقصى الحدود، وعوض أن أسعى إلى التّفاهم

معـه، كان كـلّ ما فعلتـه أنّي دفعته إلى الأرض بـأقسى مـا أوتيت من قوّة. كان القيام بذلـك أمراً سخيفـاً، ولكنّي لم أقوَ عـلى ردع نفسي. وطارت نظّارات الرّجل من على وجهه واصطدمت بالأرض، ولهنيهـة هجست بعنفٍ أن أدوسها وأسحنها تحت قدميّ.

انـبريت قائلة: «بلّغ عنّي إن كنت تـرغب. ولكنّي لن أغـادر هـذا المكان إلى أن يجرّني أحدٌ ما منه بالقوّة». وبعدئذٍ، وقبل أن يتسنّى لـه النّهوض، استدرت واندفعت عبر البـاب القائم عنـد نهاية الغـرفة في الاتّجاه المعاكس.

ولجت ردهة فسيحة، غرفة واسعـة تسترعي الانتبـاه، ذات سقف مـرتفع ومقبّب، وأرضيّـة رخاميّـة. كان التبـاين المباغت بـين غـرفـة المكتب الضئيلة والإتّساع الهائل مذهلاً. وترامى إليّ صـدى خطواتي، وكان أن استطعت تقريباً سماع تنفّسي مدوّياً على الجـدار. بين مكـان وآخـر كانت مجمـوعات من الأشخـاص تعبر بعجلة ذهـابـاً وإيّـابـاً، متحدّثين بعضهم إلى بعض بهدوء، منغمسين على ما يبدو في حوارات مهمّـة. واستـدار عـدد من الـرؤوس ملتفتـاً بـاتّجـاهي حـين دخلت الغرفة، غير أنّ هذه كانت مجرّد ردّة فعل طبيعيّة، وبعـد هنيهة عـادوا واستـداروا من جديـد. تقدّمت مجتـازة أولئك الأشخـاص بـأكـثر مـا استـطعت من سكون وخفيـة، متطلّعـة في الأرض ومتظاهـرة بمعرفـة مكان توجّهي. وبعد ثلاثين أو أربعين قدماً، وجدت درجاً فصعدته.

كـانت تلك أوّل مرّة دخلت فيهـا المكتبة الـوطنيّـة. ولقـد كـانت صرحـاً بديعـاً، مـزدانـاً بصـورٍ فـوتـوغـرافيّـة عـلى الجـدران لحكّـام وجنـرالات، وصفوف من الأعمـدة الإيطاليّـة الطّابـع، ورخام جميـل مزخرف ـ كانت واحدة من أكثر أبنية المدينة تميّزاً. وكانت أيّام عزّها،

مثل كلّ شيء آخر، مجرَّد ذكرى غابرة. كان أحد السّقوف في الطّابق الثّاني مجوّفاً، بالإضافة إلى أعمدة متصدّعة وساقطة، وكانت الكتب والأوراق منثورة في كلّ الأمكنة. كنت أرى تباعاً جماعات من الأشخاص تجول في الأرجاء، واكتشفت أنَّ معظمهم كانوا رجالاً، غير أنَّ أحداً لم يهتمّ لي، وإلى الجهة الأخرى من رفوف بطاقات القوائم، وجدت باباً مكسوّاً بالجلد الأخضر كان يؤدّي إلى دَرَج مُسيّج. وتسلّقت تلك الدّرجات حتّى مستواها الثّاني فأفضت بي إلى رواقٍ طويل منخفض السّطح تحوطه أبواب عدّة على الجانبين. لم يكن هناك أحد غيري في الرواق، وإذ لم أسمع أيّة أصوات من وراء البوّابات فقد افترضت أن الغرف كانت خالية. وحاولت أن أفتح الباب الأوّل إلى يميني، غير أنّه كان مقفلاً. والباب الثّاني كان مقفلاً أيضاً. ثمّ، وخلافاً لكلّ توقّعاتي، كان الباب الثّالث مفتوحاً. في الدّاخل كان خمسة أو ستّة رجال قاعدين حول طاولة خشبيّة، يتحدّثون عن أمرٍ ما طارئ، أصوات مفعمة بالحيويّة. كانت الغرفة عارية وخالية من النّوافذ، وذات طلاء مصفرّ متقشّر على الجدران، ومياه متقطّرة من السّقف. كان كلُّ الرِّجال ملثَّمين ومرتدين ثياباً سوداء ومعتمرين قبّعات. وروّعني بشدّة اكتشاف وجودهم هناك، فلهثت لهاثاً خفيفاً وجعلت أغلق الباب. غير أنَّ أكبرهم سنّاً استدار من على الطّاولة مبتسماً لي بروعة، ابتسامة مليئة بالحنان واللّطافة فتردّدت.

سألني: «هل من خدمة نستطيع أن نقدّمها لك؟»

كان هناك لكنة ثقيلة في صوته (كانت قد ضاعت منه جميع «الثاءات» وكان يلفظ حرف «الواو» بشكل «ف»)، ولكنّي لم أستطع

أن أحدِّد إلى أيّ بلد ينتمي. وعندها نظرت في عينيه فاعترتني دفقة من التّقدير. وهمست: «ظننت أنّ جميع اليهود قد ماتوا».

قال وهو يبتسم لي ثانيةً: «هناك قلّة منّا ذهبت. وليس من السّهل التخلّص منّا، هل تدرين؟».

قلت من غير تفكير: «أنا يهوديّة أيضاً وأُدعى آنا بلوم، ولقد قدمت إلى هنا من مكان قصيّ. لقد مضى على وجودي في المدينة سنة إلى الآن. إنيّ أبحث عن شقيقي، أخشى أنّكم لا تعرفونه. إنّه يدعى ويليام. ويليام بلوم».

أجابني هازّاً رأسه بأسف قائلاً: «لا يا عزيزتي، أنا لم ألتقِ شقيقك أبداً». وتطلّع إلى رفاقه حول الطّاولة، وسألهم السّؤال عينه، غير أنَّ أحداً منهم لم يكن يعرف ويليام.

قلت: «لقد مضى وقت طويل، وإن لم يكن قد نجح في الفرار بطريقةٍ ما، فأنا على يقين من أنّه مات».

أجاب الحاخام بلطف: «هذا محتمل جدّاً. لقد مات كثيرون كما تعلمين. من الأفضل عدم توقّع الأعاجيب».

قلت: «ما عدت أؤمن بوجود الله، إن كان هذا ما تقصده. لقد تخلّيت عن كلّ هذا حين كنت فتاة صغيرة».

قال الحاخام: «من الصّعوبة أن لا تفعلي، وإذا أخذت بعين الاعتبار الدلائل فهناك سبب وجيه كي يفكِّر كثيرون مثلك».

قلت: «لا تقل لي إنّك تؤمن بوجود الله».

«إنّنا نتحدَّث إليه. وأمّا أن ينصت إلينا أو لا فهذه مسألة أخرى».

تابعت قائلة: «صديقتي إيزابيل كانت تؤمن بوجود الله. لقد ماتت

أيضاً. بعت إنجيلها مقابل سبع غلوطات للسيِّد غامبينو وكيل الترميم. لقد كان هذا تصرُّفاً فظيعاً أليس كذلك؟».

«ليس بالضّرورة. في النهاية هناك أشياء أكثر أهمّيّة من الكّتب، كما تعرفين. الطّعام يأتي قبل الصّلوات».

غريب ما حلّ بي في حضور هذا الرَّجل، ولكن كلّما كنّا نوغل في الحديث كان ما أقوله يشبه أكثر ما يشبه كلام طفل. ربّما ذكّرني بالمفهوم الماضي للأمور الذي وعيته وأنا شابّة، في الماضي في العصور المظلمة حين كنت لاأزال أؤمن بما كان يقوله لي الآباء والمعلِّمون. ليس بمقدوري تأكيد هذا، ولكن شعرت في الواقع أنّي واقفة على أرض صلبة معه، وعرفت أنَّه كان باستطاعتي الوثوق به. وبدون وعي تقريباً، وجدت نفسي أدسّ يدي داخل معطفي لأنشل صورة صموئيل فار.

قلت: «إنّي أبحث أيضاً عن هذا الرجل. إنَّه يدعى صموئيل فار، ويخالجني شعور أكيد بأنَّه يعرف ما الَّذي حلَّ بشقيقي».

ناولت الحاخام الصّورة، ولكنَّه بعد أن تفرَّس فيها عدّة دقائق، هزّ رأسه سلباً وقال إنّه لم يتعرّف إلى الوجه. وما إن بدأت أشعر بالخيبة حتّى تكلَّم رجل آخر عند نهاية الطّاولة. كان أصغر واحد هناك، وكانت لحيته أصغر وأهزل من لحى الآخرين.

انبرى قائلاً بخجل: «يا شيخنا، هل تسمح لي أن أقول شيئاً؟»

أجاب الحاخام: «لا حاجة بك للإذن يا إسحق، يمكنك أن تقول كلّ ما تريد».

«ليس من شيء مؤكّد بالطّبع، لكنّي أعتقد أنّي أعرف من هو هذا الرّجل». وأردف الشّاب قائلاً: «أنا أعرف بأقلّ تقدير واحداً يحمل

هــذا الاسم. قـد لا يكــون الشخص الـذي تبحث عنــه السيِّــدة الصَّغيرة، ولكنِّي أعرف الاسم».

قال الحاخام مناولاً إيّاه الصّورة الفوتوغرافيّة عبر الطّاولة: «ألقِ إذاً نظرة على هذه الصّورة».

حدَّق إسحق، وكان تعبير وجهه بغاية الكآبة، خالياً تماماً من أيِّ ردّة فعل، إلى حدّ أنِّي فقدت الأمل على الفور. وقال في النِّهايـة: «إنّ التشابه قليلٌ جدّاً، ولكن بما أنَّه تسنّى لي الآن تفحصّها فلا أعتقد أنّ هنـاك تساؤلاً عن أن يكـون هـذا هـو الـرّجـل المقصـود بـالـذّات». وانفـرجت أساريـر وجه إسحق الشّـاحب الولّادي مُشكِّلة ابتسـامـة. وتابع: «لقد تحدّثت معه عدّة مـرّات، إنَّه رجـل ذكيّ، ولكنَّه بمنتهى الحدّة. إنّنا لا نتوافق تقريباً بشأن كلّ شيء».

لم أستـطع تصديق مـا كنت أسمعـه. وقبـل أن تتسنّى لي فـرصـة التلفّظ بكلمة، سأل الحاخام: «أين يمكن العثور على هـذا الرّجـل يا إسحق»؟

أجاب إسحق غير قادر على مقاومة سروره: «السيِّد فار ليس بعيداً من هنـا». ثمّ قهقه قليـلاً وأضاف: «إنّـه يعيش هنا بـالذّات داخـل المكتبة».

قلت أخيراً: «أهذا صحيح؟ هل هذا فعلاً صحيح؟».

«بـالـطّبـع صحيـح. يمكنني أن أصحبـك إليـه في الحـال إن كنت تودّين». تردّد إسحق ثمّ التفت إلى الشّيخ وأضاف: «هذا إذا حظيت بإذن منك».

ولكن الشّيـخ بدا قلقـاً بعض الشّيء: «هل هـذا الـرّجـل ملتحق بإحدى الأكاديميّات؟».

أجـاب إسحق، «لا، على مـا أعلم. أعتقد أنّـه حرّ. أخـبرني أنَّه كان يعمل لصحيفة في مكانٍ ما».

قلت: «هذا صحيح، تمام الصحّة، إنَّ صموئيل فار صحفيّ».

وسأل الحاخام متجاهلاً مداخلتي: «وما الَّذي يفعله الآن؟»

«إنَّه يقوم بتـأليف كتاب. لا أعـرف الموضـوع، ولكنِّي أعتقد أنّـه يتعلّق بمفهومٍ ما عن المدينة. وكنّا قد تحـدَّثنا بضـع مرّات في الـرّدهة الأساسيّة في الأسفل. إنّه يطرح أسئلة شديدة النّفاذ».

سأل الحاخام مجدّداً: «هل هو لطيف؟»

أجاب إسحق: «إنَّه محايد، لا مع ولا ضدّ. إنّه رجل قلق، ولكنَّه عادل إلى أقصى الحدود، وخالٍ من الضغينة».

التفت إليّ الحاخام شـارحاً: «يجب أن تعـرفي أنَّ لدينـا الكثير من الأعداء. إنَّ إجازتنـا موضـع أخذ وردّ وهي مهـدَّدة الآن لأنَّه لم يعـد لدينا وضع جامعيّ متكامل. وعليّ أن أستمرّ بحذر شديـد». أطرقت موافقة، محاولة أن أتظاهر بـأنِّي أفهم ما كـان يتحدَّث عنـه. وتابـع: «ولكن نـظراً للظّروف فلسـت أرى مـا يمكـن أن يؤذي إسـحق إذا أرشدك إلى مكان وجود هذا الرّجل».

قلت: «أشكرك أيُّها الحاخام، أنا ممتنّة لك كثيراً».

«سـوف يصحبك إسحق حتّى البـاب، ولكن لا أريده أن يـذهب أبعـد من ذلك. هـل هذا واضـح يا إسحق؟» ونـظر إلى تابعـه نظرة ملؤها السلطة الهادئة.

قال إسحق: «أجل سيّدي».

نهض الحاخام من على كرسيّه وصافحني: «يجب أن تعودي يوماً يا

آنا فتزورينا». وبدا فجأة شديد الكهولـة والإرهاق. وتـابع، «أودّ أن أعرف كيف ستجري أمورك».

قلت: «سأعود، أعدك بهذا».

* * *

كانت الغرفة في الطّابق التّاسع، فوق سطح البناء. انطلق إسحق راجعاً لحظتها وصلنا إلى هناك، متمتماً اعتذاراً غير مفهوم بخصوص عدم تمكُّنه من البقاء. ثمّ وجدت نفسي فجأة وحيدة من جديد، واقفة داخل رواق قاتم الطلاء، وفي يدي اليسرى شمعة ضئيلة تحترق. هناك قانون في حياة المدينة ينصّ على أنّه يمنع البتّة القرع على باب، إلاّ إن كنت تعرف ما يوجد في الجانب الآخر. أَوَهَلْ قطعت كلّ هذه المسافة لكي أضيف نكبة جديدة إلى رأسي؟ لم يك صموئيل فار غير اسم بالنِّسبة إليّ، رمزٍ للرّغبات المستحيلة والآمال السّخيفة. وكنت قد استخدمته كمثير لأتمكّن من الاستمرار، ولكن الآن وقد أدركت أخيراً بابه، شعرت بالهلع. لو لم تكن الشّمعة تحترق بسرعة لما كنت امتلكت قطّ الشّجاعة لأطرق.

هتف صوت خشن عدائيّ من داخل الغرفة قائلاً: «انصرف من هنا».

«أنا أبحث عن صموئيل فار. هل هذا صموئيل فار هناك؟»

سأل الصوت: «من ذا يرغب أن يعرف؟»

أجبت: «آنا بلوم».

أجاب الصوت: «لست أعرف أيّة آنا بلوم. انصرفي».

قلت: «أنا شقيقة ويليام بلوم. إنّي أحاول العثور عليك منذ سنة.

لا يمكنك أن تطردني الآن. وإن لم تفتح الباب فسأظلّ أقرع حتّى تفعل».

سمعت صرير كرسيّ على الأرض، وتبعه صوت خطوات تقترب منّي، ثمّ سمعت انزلاق قفل مفلتاً من لسانه. فُتح الباب، وفجأة غمرني الضّوء، فيضان هائل من نور الشّمس اندلق في الرّواق من نافذة في الغرفة. واحتاجت عيناي إلى عدّة دقائق لتتأقلما. وحين قُدِّر لي أخيراً أن أتبيّن ملامح الشّخص الواقف أمامي، فإنّ أولّ ما رأيت كان مسدَّساً. مسدَّس صغير أسود موجّه مباشرة باتّجاه بطني. لقد كان صموئيل فار هو بالذّات، إلاّ أنّه لم يعد يشبه كثيراً الصّورة. الشّاب القويّ الّذي في الصّورة كان قد تحوَّل إلى شخصٍ هزيل ملتحٍ حول عينيه دائرتان قاتمتان، وبدا كأنّ طاقة عصبيّة لا يمكن السّيطرة عليها تنبعث من جسمه. وقد خلع عليه هذا منظر شخص لم ينم منذ شهر.

سأل: «كيف لي أن أعرف أنّك أنت بالذّات من تدّعين أنّك تكونين؟».

«لأنّني أقوله. لأنّك ستكون أحمق إن لم تصدِّقني».

«أحتاج إلى برهان. لن أسمح لك بالدُّخول ما لم تقدِّمي لي برهاناً ما».

«كلّ ما يتوجَّب عليك أن تفعل هو أن تستمع إليّ متكلِّمةً. إنّ لكنتي هي لكنتك نفسها. إنّنا من بلادٍ واحدة من المدينة نفسها. ولرُّبما ترعرعنا في الحيّ نفسه أيضاً».

«في مقدور أيّ إنسان تقليد صوتٍ ما. ينبغي أن تقدِّمي لي حججاً إضافيّة».

قلت مادّة يدي إلى جيب معطفي ومنتشلة الصّورة الفـوتوغـرافيّة: «ما رأيك بهذه».

تـأمّلهـا لعشر، لعشرين ثـانيـة من غـير أن يلفظ حـرفـاً واحـداً. وتدريجيّاً بـدا جسمه وكـأنّه ينهـار برمّتـه، ليغرق مجـدّداً في ذاته. وفي الوقت الّذي عاد ونظر فيه إليّ من جديد أبصرت المسدّس مترنّحاً إلى جنبه.

قـال بنعومـة، وبهمس تقريبـاً: «كُرمى لله، من أين حصلت عـلى هذه؟»

«من بوغات، كان قد أعطاني إيّاها قبل أن أغادر».

قال: «هذا أنا، هكذا كان شكلي».

«أعرف».

«يصعب تصديق هذا، أليس كذلك؟».

«في الحقيقة لا. يجب أن تتذكّر كم مضى عليك من الوقت هنا».

بدا لبرهة مستغرقاً في التّفكير. وحين حدّق فيّ مجـدّداً، كان ذلـك كما لو أنّه ما عاد يعرفني.

«مَنْ قلتِ إنّـك تكـونـين؟» وابتسم معتـذراً، وتسنّى لي أن أرى غياب ثلاث أسنان أو أربع في فكّه الأسفل.

«آنا بلوم. شقيقة ويليام بلوم».

«بلوم كما في «دوم»، و«غلوم» أوَليس كذلك؟»

«بالضّبط».

«أعتقد أنّك تريدين الدُّخول، أليس هذا ما تريدين؟».

«أجل. أنا هنا من أجل هذا. لدينا الكثير لنتحدّث بشأنه».

كـانت غـرفـة صغـيرة، إلاّ أنّها لم تكن أصغـر من أن تتّسـع

لشخصين. فرشة على الأرض، مكتب وكرسيّ بإزاء النّافذة، موقد على الخشب للتّدفئة، كميّات من الكتب والأوراق مكدّسة بإزاء أحد الجدران، وثياب في صندوق كرتونيّ. ذكّرتني الغرفة بمهجع للطّلاب الدّاخليّين - إلّا أنّها لا تشبه تلك التي كنت تقيم فيها في الجامعة سنة قمت بزيارتك. كان السّقف واطئاً، ومائلاً بحدّة باتّجاه الجّدار الخارجيّ، ولم يكن في إمكانك بلوغ نهاية الغرفة من دون أن تحني ظهرك. إلّا أن النّافذة المشرعة على الجّدار كانت رائعة. كانت شيئاً فتّاناً بشكل مروحة وقد احتلّت معظم المساحة تقريباً. كانت مصنوعة من ألواح زجاجيّة ثخينة ومفصّلة، ومقطّعة بواسطة قضبان دقيقة من الرّصاص، وقد شكّلت أنموذجاً معقّداً كجناح فراشة. كان بالمقدور عمليّاً رؤية أميال عبر النّافذة - كلّ الامتداد حتّى استحكام فيدلر وأبعد.

أشار إليّ سام بالجلوس على السّرير، ثمّ جلس على مقعد المكتب ودار به نحوي. واعتذر لتصويبه المسدّس إليّ، وقال إنّ الوضع محفوف بالمخاطر، وليس في وسعه المجازفة. لقد مضى على إقامته في المكتبة قرابة السنة الآن، ولقد انتشر كلام يقول إنّ لديه مبلغاً مخبّأً في غرفته.

قلت: «حسب منظر الأشياء هنا، ما كنت لأحزر البتّة أنّك غنيّ».

«أنا لا أستخدم المال لحاجاتي الشّخصيّة. إنّه من أجل الكتاب. إنّي أدفع لأشخاص لكي يحضروا إلى هنا ويتحدّثوا إليّ. إنّ كل مقابلة تكلّف مالاً كثيراً، وهذا يتوقّف على مدى الوقت الّذي تستغرقه. غلوطة واحدة للسّاعة الأولى ونصف غلوطة لكلّ ساعة

إضـافيّة. لقـد أجريت مئـات منها، قصّـة تلو الأخـرى. أعجـز عن التّفكير بطريقـة أخرى لأكتشفهـا كلّها. إنّ القصّـة كبيرة جـدّاً، أنت تفهمين، يستحيل على أيّ شخص بمفرده روايتها».

كان من أرسل سـام إلى المدينـة هو بـوغات، وحتّى السّـاعة كـان لايزال يتساءل عمّا تملّكه لكي يقبل بالمهمّة. قال: «كنّا كلّنا نعرف أنّ شيئاً ما فظيعاً أصاب شقيقك. لم تكن قـد وصلتنا منـه كلمة واحـدة لأكـثر من ستّة أشهـر، وكلّ مَنْ سيلحق بـه، كان سيلقى بـالتّـأكيـد المصير نفسه. بوغات بالطّبع لم يشغل نفسه أبداً بهذا. استدعـاني إلى مكتبـه ذات صباح وقـال: «هذه هي الفـرصة التي كنت تتحيّنهـا أيّها الشّـاب، إنيّ أرسلك إلى هناك لتحـلّ مكـان بلوم». كـانت تعليـماتي واضحة وهي: أكتب التقارير الصحفيّة، أكتشف ما حدث لـويليام، حـافظ على حيـاتك. بعـد ثلاثـة أيّام، أقـامـوا لي حفـل رحيـل مـع الشمبـانيا والسِّيكـار. طلب بـوغـات شرب نخبي، واحتسى الجميـع نخب صحّتي، وصافحوني، وربّتوا على ظهري.

شعرت آنذاك وكـأنّني ضيف في جنازتي الخـاصّة. غـير أنّه لم يكن لديّ على الأقلّ ثلاثة أطفال، وإناء مليء بالأسماك الذّهبيّة في انتظاري في المنزل مثل ويليام. وعلى الرّغم من كلّ مآخذك عليـه فإنّ الـرّئيس رجل حسّاس بالتّأكيد. لا أكنّ له أيّة ضغينة لأنّه اختارني أنا بالـذّات للرِّحلة. الواقع أنيّ ربّمـا كنت راغباً في ذلـك. ولو لم أكن لاستـطعت الانسحاب بكلّ سهـولة. هكـذا إذاً بدأت الأمـور. وضّبت متاعي، بريت أقلامي، وودّعت الجميع. كان هـذا منذ سنـة ونصف السّنة. ولا حاجة بي إلى تصريح بأنيّ لم أبعث البتّـة أيّة رسـائل صحفيّـة، ولم أعثر أبداً على ويليام. وفي الـوقت الحاضر يبـدو أنّني استطعت البقـاء

على قيد الحياة. غير أنّي لن أراهن إطلاقاً على مدى استمرار هذا».

قلت، «كنت آمل أن تستطيع أن تقدِّم لي شيئاً أكثر تحديداً عن ويليام، بطريقة أو بأخرى».

هزّ سام رأسه سلباً، «لا شيء محدّد في هذا المكان. وإذا أخذت بعين الاعتبار الاحتمالات المتوافرة فإنّه يجدر بك أن تفرحي بهذا».

«أنا لن أتخلّى عن الأمل. ليس قبل أن أتأكّد يقيناً».

«هذا من حقّك. ولكنّي لا أحسب أنّه من ضروب الحكمة توقّع أيّ شيء سوى الأسوأ».

«هذا ما كان قد قاله لي الشّيخ».

«هذا ما سيقوله لك أيّ شخص متوازن».

تحدَّث سام بصوت عصبيّ ساخراً من نفسه، منتقلاً بسرعة من موضوع إلى آخر، بأساليب تعذّر عليّ أن أماشيها. وراودني شعور بأنّه رجل على شفا الانهيار - رجل كابد بقسوة شديدة، ولا يكاد يستطيع بَعْدُ التحمّل. كان قد جمع ما يفوق الثّلاثة آلاف صفحة من الملاحظات كما روى لي. ولو ظلّ يعمل على هذه الوتيرة لشعر أنّه بمقدوره إنهاء عمله التّمهيدي على الكّتاب خلال خمسة أشهر إضافيّة أو ستّة. وكانت المشكلة أنّ مبلغ المال الذي امتلكه كان يتضاءل، بالإضافة إلى تفاقم النّزاعات من حوله. لم يعد يستطيع تحمّل دفع نفقات الحوارات، وإذ أمست مدّخراته الآن على هذه الدّرجة من الانحسار الخطير، فقد أصبح يأكل مرّة فقط كلّ يومين. وهذا دفع بالطّبع الأمور إلى الأسوأ. وقد استُنفدت قواه، وكان أحياناً يُصاب بالدُّوَار، إلى درجة لا يستطيع معها رؤية الكلمات التي كان يكتبها.

قال إنّه في بعض الأحايين كان يخالجه النّوم فوق مكتبه من غير أن يدرك.

قلت له: «سوف تقضي على نفسك قبل أن تنتهي. وما الّذي ستثبته من وراء ذلك؟ ينبغي أن تتوقّف عن تأليف الكتاب لتبدأ الاعتناء بنفسك».

«ليس بوسعي أن أتوقّف. إنّ الكتاب هو الأمر الوحيد الّذي يبقيني مستمّراً. إنّه يمنعني من التّفكير بذاتي والانجراف حتّى الذّوبان في حياتي الخاصّة. وإذا حدث أن أوقفت العمل عليه فسأضيع كلّياً. وأخشى إذ ذاك أن لا أعيش حتّى الصّباح التّالي».

قلت حانقة: «ما من أحد ليقرأ كتابك اللّعين هذا، ألا ترى ذلك؟ لا يهمّ إطلاقاً كم ستكتب من الصّفحات. لن يرى أحد البتّة ما أنجزته».

«أنت مخطئة. سوف أحمل المخطوطة معي إلى ديارنا. وسوف ينشر الكتاب ويكتشف الجميع ما يحدث هنا».

«أنت تجهل ما تتحدّث عنه. ألم تسمع عن مشروع السّور البحريّ؟ من المستحيل الخروج من هنا بعد الآن».

«أعرف قصّة السّور البحريّ. لكن هذا فقط مكان واحد. صدّقيني هناك أمكنة أخرى. هناك صعوداً على طول الشّاطئ ناحية الشمال. وبعيداً نحو الغرب عبر المقاطعات المهجورة. وحين يحلّ الوقت سأكون جاهزاً».

«لن تحتمل حتّى ذلك الوقت. فمع انتهاء الشّتاء لن تكون جاهزاً لأيّ شيء».

«سوف يحدث شيء ما. وإن لم يحصل، حسناً، عندها لا فرق على كلٍّ حال».

«كم تبقّى لديك من المال؟»

«لست أعرف. ما بين ثلاثين وخمس وثلاثين غلوطة، أعتقد ذلك».

صعقت لدى سماعي عن ضآلة المبلغ المتبقّي. فحتّى لو اتّخذت كلّ الاحتياطات الممكنة، مُنفقاً فقط عند الضرورة القصوى، فإنّ الثّلاثين غلوطة سوف تنفقها في ثلاثة أسابيع أو أربعة على أبعد تقدير. وأدركت فجأة خطورة وضع سام. كان يتوجّه مباشرة نحو هلاكه، ولم يكن يعي الأمر مع ذلك.

عند تلك النّقطة، جعلت الكلمات تخرج من فمي. ولم يكن لديّ أيّة فكرة عمّا تعنيه حتّى سمعتها بنفسي. ولكن آنذاك كان قد فات الأوان. قلت «لديّ بعض المال. ليس بالمبلغ الكبير، ولكنّه يزيد كثيراً عمّا تمتلكه».

قال سام: «مبروك عليك».

انبريت قائلة: «أنت لا تفهم، فحين أقول إنّ لديّ مالاً فأنا أعني أنّي مستعدّة لمشاركتك فيه».

«نتقاسمه؟ ولماذا بحقّ الله؟»

قلت: «لنبقى حيّين. أنا بحاجة إلى مكان أعيش فيه، وأنت بحاجة إلى المال. وإن اقتسمنا مواردنا فقد يكون لنا حظّ في الخروج سليمين من هذا الشّتاء. وإن لم نفعل فسوق يُقضى علينا. إنّ هذا سيحصل بدون أدنى ريب. سوف نموت، ومن السّخف أن تموت حين تكون غير مجبر على ذلك».

صعقتنا كلينا فظاظة كلماتي، ولم ينبس أيٌّ منّا لدقائق ببنت شفة. كان كلّ ذلك صارخاً للغاية، منافياً للعقل إلى أقصى الحدود، غير أنّي نجحت بطريقةٍ ما في قول الحقيقة. وأردت للوهلة الأولى أن أعتذر، ولكنّ الكلمات بدت وهي تواصل تمركزها في الهواء بيننا منطقيّة أكثر فأكثر، ووجدت نفسي غير راغبة في التّراجع عنها. وأظنّ أنّنا أدركنا كلانا ما كان سيحصل، غير أنّ هذا لم يسهّل قطّ التلفّظ بالكلمة التّالية. كان من المعروف أنّ النّاس في هذه المدينة يقتل بعضهم بعضاً في مواقف كهذه وكان القيام بقتل شخص داخل غرفة من أجل حفنة من الفكّة، أمراً بمنتهى التّفاهة، ولربّما امتنع أحدنا عن قتل الآخر، لأنّنا وبكلٍّ بساطة لم نكن من أهل هذا المكان. لم نكن من ناس المدينة. كنّا قد ترعرعنا في مكانٍ آخر، ولربّما كان هذا كافياً لأن يجعلنا نشعر بأنّ كلاً منّا يعرف مسبّقاً أشياء عن الآخر. لست متأكّدة من هذا. فالحظّ كان قد قذف بأحدنا إلى الآخر بطريقة مجهولة إلى حدٍّ ما، وبدا أنّ ذلك كان يُسبغ على اللّقاء منطقاً خاصّاً به، بقوّة لم تكن تتوقّف على أيّ منّا. طرحت اقتراحاً غير مألوف، قفزة متهوّرة إلى الحميميّة، ولم يلفظ سام كلمة واحدة. كان واقع صمته ذاك مجرّداً، أمراً خارقاً، هكذا شعرت، وكلّما كان يطول به الوقت، كان يضفي على الكلام الّذي كنت قد قلته مزيداً من الشّرعية. ومع انتهاء صمته، لم يكن قد تبقّى شيء نناقشه.

قال سام متطلّعاً إلى أرجاء الغرفة الضئيلة: «إنّ المكان ضيِّق بشكل مخيف. أين تقترحين أن يكون مضجعك؟»

أجبت: «لا يهمّ، سوف نخرج بشيء ما».

قال: «كان ويليام يتحدّث عنك أحياناً» ردّد هذا وقد ارتسمت علامة هشّة لابتسامة عند طرفي فمه. «حتّى لقد حذّرني منك، كان

يقول: «احذر أختي الصّغرى، إنّها طائرة حربيّة». هل أنت كذلك يا آنا بلوم، طائرة نفّاثة؟»

قلت: «لا أعرف ما الّذي يخالجك. ولكن لا عليك، لن أكون أبداً عقبة في سبيلك. لست غبيّة على كلٍّ حال. أعرف الكتابة والقراءة. وفي استطاعتي أن أفكّر. سوف تنجز الكتاب بسرعة أكبر وأنا بجوارك».

«لستُ قلقاً يا آنا بلوم. تدخلين إلى هنا قادمة من الصّقيع، وتنغرزين في فراشي، وتعرضين أن تجعلي منّي رجلاً غنيّاً ـ وتتوقّعين منّي أن أقلق؟»

«لا ينبغي أن تبالغ. إنّ المبلغ يقلّ عن ثلاثمائة غلوطة، بل لا يكاد يصل إلى مئتين وخمس وسبعين».

«هذا ما قُلتُه للتوّ ـ رجل غني».

«كما تشاء».

«أجل هذا ما أقوله. وأقول أيضاً هذا: «لحسن حظّنا كلينا أنّ المسدّس لم يكن محشوّاً».

هكذا قدّر لي أن أبقى على قيد الحياة خلال ذاك الشّتاء الرّهيب. عشت في المكتبة بمعيّة سام، وطوال الأشهر السّتّة الّتي تلت، وكانت تلك الغرفة الصّغيرة مركز عالمي. لا أظنّ أنّه سيصدمك سماع أنّنا انتهينا إلى النّوم معاً في السّرير نفسه. ينبغي أن يكون الواحد مصنوعاً من الحجر ليقاوم شيئاً كهذا، وحين حدث ذلك أخيراً في اللّيلة الثّالثة أو الرّابعة، شعرنا كلانا بالحماقة لأنّنا انتظرنا كلّ ذلك الوقت. كان الأمر أوّل مرّة فعلاً جسديّاً خالصاً، ولعاً مجنوناً وتشابك أوصال، واندلاعَ توقٍ مكبوت. كان الإحساس بالتحرّر هائلاً، وعلى مدى الأيّام القليلة التّالية تابعنا على هذا المنوال إلى حدّ الإنهاك. ثمّ

همـد شغفنا كـما كان ينبغي في الـواقع، وبعـدها شيئـاً فشيئـاً خـلال الأسابيع الّتي تبعت، أغرم كلّ منّا بالآخـر فعلاً. لست أتحـدّث فقط عن الحنـان أو عن عزاء العيش المشـترك. وقعنا عميقـاً وبشكل نهائيّ في الغرام. وفي النّهاية كان الأمـر وكأنّنـا متزوّجـان، وكأنّنـا لن نفترق أبداً من جديد.

كانت تلك أفضلَ أيّام عشتها. ليس هنـا فحسبُ، أنت تفهمني، بـل في أيّ مكان أفضـل أيّام حيـاتي. غريب أن يتسنّى لي هـذا القدر من السّعادة في أثناء ذاك الـوقت البشع، ولكن العيش مـع سام بـدّل كـلّ شيء. في الخارج لم تتبـدّل الأمور كثيـراً. المعانـاة نفسهـا كـانت ماتزال، وكان ينبغي مواجهة المشاكـل ذاتها كـلّ يوم، غـير أنّي أوتيت الآن إمكان الأمل، وبدأت أؤمن بأنّ متاعبنا كانت ستنتهي عاجلاً أو آجلاً. كان سام يعرف عن المدينة أكثر من أيّ شخص آخر كنت قـد التقيتـه. وكان يستـطيع سرد قـائمة كـلّ الحكومـات الّتي توالت عـبر السّنـوات العشر الفائتـة. ويستـطيـع أن يعـدّد لـك أسـماء الحكّـام، ورؤسـاء البلديّات، وعـدداً لا يحصى من المسؤولين الصّغـار، كان في مقدوره أي يروي لـك تاريـخ عصابـات الجزيـة، ويصف لك كيف شيّدت محطّات توليد الطّاقة الكهـربائيّـة. أن يعطيـك تقريـراً مفصّلاً حتّى عن أصغر فرقة أو شيعة. ولأنّـه كان يعـرف الكثير، ولايـزال في وسعه الشّعور بالثّقة بشأن احتمالات فرارنا وفرصه ـ كان ما أقنعني هو هذا الشّيء بالذّات. لم يكن سام ممّن يحرّفون الـوقائـع. لقد كـان في النّهاية صحفيّاً، وكان قـد درّب نفسه عـلى النّظر بشـكّ إلى العالم. لا تفكـير صادر عن التمنّي، لا افـتراضات مبهمـة. وإذا قـال إنّـه كـان بـإمكاننـا العودة إلى الـدّيار فـإنّ ذلك كـان يعني أنّه يعـرف أنّه يمكن القيام بذلك.

عموماً، لم يكن سام بالرّجل المتفائل، لم يكن البتّة ما يمكن أن تصفه بالرّجل الهادئ. كان هناك ما يشبه الضّراوة الجيّاشة في داخله طوال الوقت، وحتّى حين كان ينام كان يبدو مُعذَّباً، متقلّباً بشكل محموم تحت الأغطية وكأنّه يصارع أحداً في أحلامه. كان في حالٍ سيِّئة حين بدأت بالسّكن معه، كان يعاني من سوء التّغذية، ويسعل باستمرار، ولقد اقتضى الحالُ أكثرَ من شهر ليستعيد ما يشبه الصحّة المقبولة. وكنت حتّى ذلك الوقت أقوم بكلّ الأعمال تقريباً. كنت أخرج للتبضّع وشراء الطّعام، وأهتمُّ بتفريغ دلاء الغائط، وطهيت وجباتنا، وأبقيت الغرفة نظيفة. وحين أصبح لاحقاً قويّاً إلى درجة مواجهة البرد من جديد، بدأ ينسلّ في الصّباحات ليقوم هو بنفسه بالأعمال الروتينيّة، مصرّاً على أن أبقى في السَّرير وأتابع نومي. كان لديه موهبة خارقة في إبداء اللّطف. وقد أحبّني سام حقّاً بطريقة ممتازة، أحبّني بأفضل ممّا توقّعت أن يحبّني أحدٌ. وإذا كانت نوبات الكَرْب الّتي كانت تصيبه تبعده أحياناً عنّي، فقد كانت مع ذلك مسألة داخليّة. وبقي الكتاب هاجسه، وكان لديه ميلٌ إلى المبالغة في الجهد حِياله، إلى العمل إلى ما وراء تخوم الاحتمال. وفي مواجهة الضغط الّذي كان يقتضيه تنظيم المادّة المتباينة، الّتي كان جمعها، وتحويلها إلى شيءٍ ما متجانس، كان يصيبه فجأة أحياناً أن يفقد إيمانه بالمشروع. فيصفه بالتّافه، بكدسة أوراق عقيمة تحاول قول أشياء يستحيل قولها، ويغرق بعدها في اكتئابٍ كان يدوم غالباً بين يومٍ وثلاثة أيّام. وكان يتبع مزاجاته السوداء تلك، ومن غير تبدّل، فترات من الحنان الشّديد. فيبتاع لي إذ ذاك هدايا صغيرة... تفّاحة على سبيل المثال، أو شريطاً لشعري، أو قطعة شوكولاته. لربّما كان من الخطأ أن ينفق أموالاً إضافيّة، ولكنّه صعب عليّ أن لا أتأثّر بهذه

البوادر اللّطيفة. وكنتُ باستمرار الشّخصَ العمليّ، ربّة المنزل الصّارمة المقتصدة والقلقة، ولكن حين كان سام يأتي حاملاً أشياء مُغالى فيها كهذه، كنت أشعر بغبطة عارمة، وأعوم في بهجة عظيمة. كان ذلك فوق طاقتي. فقد كنت بحاجة إلى أن أعرف أنّه يحبّني، حتّى لو كان هذا يعني أنّ مالنا لن يلبث أن ينضب، وكنت مستعدّة لدفع الثّمن.

نما فينا كلينا شيئاً فشيئاً ولعٌ بالسّجائر. إنّه يصعب العثور على التّبغ هنا، وهو باهظ السِّعر إن وجد، ولكن سام كان قد أقام وهو يجمع الأبحاث الخاصّة بكتابه، عدداً من العلاقات مع أشخاصٍ من السّوق السّوداء، وكان يستطيع غالباً العثور على علب من ذوات العشرين سيجارة بسعرٍ زهيد يتراوح بين غلوطة، وغلوطة ونصف. وأعني هنا السّجائر الحقيقيّة، السّجائر القديمة الطّراز، ذلك الصّنف الّذي يُصنَّع في المعامل ويغلَّف في ورق ملوّن يلفّه السيلوفان من الخارج. والصّنف الّذي كان سام يبتاعه كان مسروقاً من عدّة سفن أجنبيّة إنسانيّة كانت قد دخلت الميناء فيما مضى، وكانت أسماء الأصناف مطبوعة عادة بلغات لم يكن في وسعنا حتّى قراءتها. كنّا ندخّنها بعد حلول الظّلام، متمدّدين في السّرير، ومتطلّعين عبر النّافذة الكبيرة الشّبيهة بالمروحة، مراقبين السّماء وتحرّكاتها، الغيوم المنجرفة إزاء القمر، النّجوم الضّئيلة، والعواصف الثّلجيّة العنيفة الّتي كانت تنهمر من الأعلى. كنّا ننفث الدُّخان ونشاهد طوافه عبر الغرفة ملقياً ظلالاً على الجدار البعيد الّذي كان يتلاشى لحظة تشكّله. كان ثمّة تبدُّد بديع في كلّ هذا، إحساس بالقدر كان يحملنا معه إلى زوايا مجهولة من النّسيان. وكنّا نتكلّم غالباً عن الدِّيار بعدئذ، مسترجعين أكثر ما استطعنا من الذِّكريات، متذكِّرين أصغر

الصّور وأكثرها دقّة في ما يشبه التّعـزيمة الـواهنة. . . أشجـار القبقب المتراصفة إزاء جادّة ميرو في تشرين الأوّل (أوكتوبر)، ساعات الجـدار العدديّة اللاتينيّة في صفوف المدرسـة الرّسميّـة، ضوء التّنّـين الأخضر المثبّت فـوق المطعم الصّيني المـواجه للجّـامعة. كـان في مقـدورنـا أن نتشارك نكهة هـذه الأشياء، أن نعيـد إلى الحياة أعـداداً لا تحصى من الحوادث العرضيّة لعالم عرفه كلٌّ منّا منذ الطّفولة، وقد ساعـد هذا في رفع معنويّاتنا، كما أظنّ، ساعدنا في الإيمان بأنّنا نستطيع العودة يـوماً إلى كلّ هذا.

أجهـل عدد الأشخـاص الّذين كـانـوا يعيشـون في المكتبـة إذّاك، ولكنّ عـددهم كان يتخـطّى المئة في أغلب الـظّن، وربّما أكـثر. كـان معظم المقيمين تلامذة وكتّاباً، بقايا حركة تـطهير كـانت قد جـرت في إبّـان اضطرابـات العقد المـاضي. ويقول سـام إنّ الحكومـة الّتي تلت اعتمدت سياسة متسامحـة، وسمحت للتّلامـذة بالإقـامة في عـددٍ من الأبنية العامّة حول المدينة، مثل صالـة الريـاضة الخـاصّة بـالجامعـة، ومستشفى مهجـور، والمكتبة الـوطنيّة. وكـانت ترتيبـات السّكن هذه مقدّمة كلّها كإعانات (ممّا فسّر وجود جهاز للطّبخ من الحديد المسبـوك في غرفة سام، والحمّامات والمغاسل الّتي تعمل بشكـل ممتاز في الـطّابق السّادس)، ولقد جرى في الواقـع توسيـع البرنـامج ليشمـل عدداً من الفـرق الدينيّـة والصحفيّين الأجـانب. غير أنّـه مع وصـول الحكومـة التّالية إلى السّلطة بعد سنتين، تـوقّف العمل بهـذه السِّياسـة. ولم يجرِ إخراج التّلامذة من مساكنهم، ولكنّهم لم يحصلوا على أيّة مسـاعدة من الحكومة. وكانت نسبة الاحتكاك مرتفعة، وهذا شيء منطقيّ، إذ إنّ عـدداً كبيراً من التّـلامذة أُجـبِروا تحت ضغط الظّروف عـلى المغادرة، والبحث عن أنـواع أخرى من العمـل. وأولئـك الّـذين بقـوا تـركـوا

مُهْمَلين واعتمدوا غالباً على مصادرهم الخاصّة، وتجاهلتهم معظم الحكومات الّتي توالت على السّلطة. وقد نشأت صداقة حميمة وحذرة في آن بين الأحزاب المختلفة في المكتبة، إلى حدّ أن كثيراً منهم صار يقبل على الأقلّ بالتكلّم مع الآخرين ومُبادلتهم الآراء. وهذا فسّر ماهية تلك الجماعات الّتي كنت قد شاهدتها في الرواق في اليوم الأوّل. كانت تجري أحاديث عامّة كلّ صباح لمدّة ساعتين ـ وكانت تدعى السّاعات المشّائيّة ـ وكان يُدعى إليها كلّ الساكنين في المكتبة للمشاركة. وكان سام قد التقى إسحق في أثناء إحدى هذه الجلسات، ولكنّه كان عموماً يتجنّبها، إذ إنّه كان يجد التّلامذة غير مثيرين للاهتمام، باستثناء كونهم هم ظاهرة بحدّ ذاتها ـ وكانوا في النّهاية وجهاً آخر من أوجه حياة المدينة. كان معظمهم منخرطاً في ما هو إلى حدّ بعيد مساعٍ سرّيّة. منهم من يسعى وراء مقارنات بين أحداث حاضرة، وأحداثٍ في الأدب الكلاسيكي، أو يقوم بتحاليل إحصائيّة لميول السكّان، أو يؤلّف معجماً جديداً، إلخ... ولم يكن سام يهتمّ بأيّ من هذه الأمور، ولكنّه سعى لعلاقات طيّبة مع الجميع، علماً بأنّ التّلامذة كان يمكن أن يصبحوا أشراراً حين يخالجهم شعور بأنّ أحداً ما يسخر منهم. وقد تيسّر لي التعرّف إلى كثير منهم بطريقة عرضيّة ـ وأنا واقفة في الصّف حاملة دلوي أمام الحنفيّة في الطّابق السّادس، أو متبادلة معلومات سرّيّة عن الطّعام مع النّسوة، أو متنصّتة إلى أحاديث النّميمة ـ ولكنّي اتّبعت نصيحة سام ولم أُقِم أيّ علاقة مع أيّ منهنّ، محافظة على إبقاء مسافة وديّة، ولكنْ متحفّظة.

كان الشّخص الوحيد الّذي تحدّثت معه إلى جانب سام هو الحاخام. وعلى مدى الشّهر الأوّل أو ما يقارب ذلك، كنت أزوره

كلّما سنحت لي الفرصة. . في ساعة حرّة من متأخّر ما بعد الظهيرة مثلاً، أو في واحدة من إحدى اللّحظات النّادرة حين يكون سام ضائعاً في كتابه، وليست لديَّ أيّة أعمال منزليّة. كان الحاخام منشغلاً عموماً مع أتباعه، وهذا يعني أنّه لم يكن على الدّوام متفرّغاً لي، غير أنّه قُدِّر لنا أن نتبادل عدّة أحاديث ممتازة. والشّيء الّذي أتذكّره أكثر ما أتذكّره كان تعليقاً قاله لي خلال زيارتي الأخيرة. فقد وجدته آنذاك مذهلاً إلى أقصى الحدود ولم أتوقّف عن التّفكير فيه مذّاك. كلّ واحد من جماعتنا يؤمن أنّه ينتمي إلى آخر جيل من هذه الجماعة. إنّنا دائماً عند النّهاية، نقف على الدّوام عند شفا اللّحظة الأخيرة، فما الّذي يدعونا إذاً إلى توقّع أن تكون الأمور مختلفة الآن؟. لربّما كنت أتذكّر تلك الكلمات جيّداً لأنّني لم أره البتّة من جديد بعد تلك المحادثة.

حين هبطت في المرّة الثالثة إلى الطّابق الثالث، كان الحاخام قد غادر، وحلّ محلّه رجل آخر في الغرفة ـ رجلٌ نحيل أصلع، بنظّارات مؤطّرة بسلكٍ حديديّ. كان جالساً إلى الطّاولة، يكتب باهتياج على دفتر ملاحظات، وتحوطه كدسات من الأوراق، وأشياء تشبه مجموعة من العظام والجماجم البشريّة. ولحظة دخلت الغرفة رفع بصره إليّ بوجه مغتاظ، بل عدائيّ، وقال:

«ألم يعلّموك أن تقرعي؟».

«إنّي أبحث عن الحاخام».

قال بصبر نافد، زامّاً شفتيه، محدِّقاً فيّ كما لو أنّني غبيّة. وتابع: «لقد انصرفت كلّ تلك الطّائفة منذ يومين».

«عمّ تتكلّم؟».

ردّد لافظاً تنهّدة مشمئزّة: «لقد غادرت الفِرقة منذ يومين، وسوف

يغادر الينسينيُّون غداً، ومن المفترض أن يرحل اليسوعيُّون يوم الاثنين. ألا تعرفين شيئاً؟».

«ليست لديّ أدنى فكرة عمّا تتحدّث به؟».

«إنّها القوانين الجديدة. لقد فقدت الجماعات الدينيّة منزلتها الأكاديميّة. لا يمكنني أن أصدِّق أنّه يمكن أن يكون هناك من هو جاهلٌ إلى هذا الحدّ».

«ليس عليك أن تكون مؤذياً بخصوص هذا، وعلى أيّ حالٍ فماذا تظنّ نفسك؟»

أجاب: «اسمي دوجاردان. هنري دوجاردان. أنا عالم إثنوغرافيا».

«وهل هذه الغرفة هي خاصّتك الآن؟».

«تماماً. إنّها لي».

«ماذا بشأن الصحفيّين الأجانب؟ هل فقدوا منزلتهم أيضاً؟».

«ليست لديّ أدنى فكرة. إنّ هذا لا يهمّني».

«أتصوّر أنّ همّك هو هذه العظام والجماجم».

«بالضّبط. إنّني بصدد تحليلها».

«هل لي أن أسأل من كانت تخصّ؟».

«إنّها جثث مجهولة. أشخاص ماتوا بفعل الصّقيع».

«هل تعرف أين هو الحاخام الآن؟».

«في طريقه إلى الأرض الموعودة بدون أدنى شكّ ـ قال هذا بسخرية ـ والآن أرجوك انصرفي. لقد أضعت ما يكفي من وقتي. يتوجّب عليّ القيام بعمل مهمّ، ولا أحبّ أن يقاطعني أحد. أشكرك. وتذكّري أن تُغلقي الباب وأنت تغادرين».

لم نُعانِ، في النِّهاية، لا أنا ولا سام من هذه القوانين. سقوط

مشروع السّور البحريّ كان قد أضعف الحكومة، وقبل أن يتسنّى لها النّظر بموضوع الصّحفيّين الأجانب تسلّمت حكومة أخرى زمام السّلطة. لم يكن قرار طرد الفرق الدينيّة أكثر من استعراض سخيف ويائس للقوّة، هجومٍ اعتباطيّ على أولئك الّذين كانوا عاجزين عن الدِّفاع عن أنفسهم. ولقد أذهلني ذلك الهُراء التّام، ولم يكن من شأنه إلّا أن جعل تقبُّل فكرة اختفاء الحاخام أشدّ وطأة عليّ. أترى كيف هي الأمور في هذا البلد؟ كلّ شيء يختفي، النّاس تماماً كما الأشياء، الأحياء كذلك كما الأموات. وقد حزنت على خسارة صديقي، وسحقني عبء ذلك. ولم يكن من تأكيد حتّى لموته فأتعزّى - لا شيء سوى ما يشبه الفراغ، العدم الضاري.

بعد ذلك، أصبح كتاب سام أهمّ أمور حياتي. وأدركت أنّه مادمنا نعمل على إنجازه فسنظلّ نفكّر في مستقبلٍ محتمل. وكان سام قد حاول أن يفهمني هذا في اليوم الأوّل، غير أنّي فهمته الآن لوحدي. قمت بكلٍّ أنواع المهمّات المتوجِّبة.. ومنها تبويب الصّفحات وتحرير المقابلات ونقل النُّسخ النِّهائية وإنجاز نسخة نظيفة للمخطوطة في كتابة عاديّة. وكان الأمر يكون أفضل بالطّبع لو امتلكنا آلة كاتبة، لكن سام كان قد باع آلته النقّالة قبل عدّة أشهر، ولم نكن لنستطيع تحمّل نفقة شراء واحدة أخرى. وكنّا نعاني في الوضع الّذي نحن فيه كي نستطيع تأمين ذخيرة كافية من أقلام الحبر والرّصاص.

في الشِّتاء دفعت حال النّقصان في الموادّ الغذائيّة الأسعار إلى ارتفاع قياسيّ، ولولا الأقلام السّتة التي كنت أملكها.. إلى جانب قلمي الحبر الجافّ اللّذين وجدتهما صدفة في الشّارع.. فلربّما نفد كلّ ما لدينا من لوازم. كان لدينا فيضٌ من الأوراق (كان سام قد خزّن دزّينة من المواعين يوم مجيئه إلى هنا). بيد أنّ الشّموع كانت

معضلة جديدة واجهت عملنا. وكان ضوء النّهار ضروريّاً كي نستطيع خفض مصاريفنا، إلاَّ أنّنا كنّا في منتصف الشِّتاء، ولم تكن الشّمس تعبر قوسها الضّئيل عبر السّماء إلاّ خلال بضع ساعات فقط، وكان يتوجّب علينا القيام بتضحيات ما، إلاَّ إذا كنّا نرغب في أن يستمرّ عملنا في الكتاب إلى الأبد. وحاولنا أن نختصر عادة التّدخين إلى أربع أو خمس سجائر في اللّيلة الواحدة، وفي آخر الأمر أطلق سام لحيته مجدّداً. فقد كانت شفرات الحلاقة في نهاية المطاف شيئاً من الترف، ووصل بنا الأمر إلى الاختيار ما بين وجهه النّاعم، وساقيّ الناعمتين، وربحت السّاقان بالتّثبيت.

سواء كان الوقت ليلاً أو نهاراً فقد كنّا بحاجة إلى ضوء الشُّموع أثناء البحث في كدسات الكتب، وكانت الكتب موضوعة في الجزء المركزيّ من البناء، وبناء على ذلك لم يكن ثمّة نوافذ على أيّ من الجدران. وإذ كانت الطّاقة الكهربائيّة قد قُطِعت منذ وقت طويل، فإنّه لم يكن من خيار سوى أن تحمل ضوءك الخاص. يقولون إنّ المكتبة الوطنيّة احتوت في وقتٍ ما يزيد عن المليون كتاب. غير أنّ هذه الأرقام كانت قد تضاءلت إلى حدٍّ بعيد قبيل وصولي إلى هناك، ولكن بقيت مع ذلك مئات الآلاف، تَيْهورٌ مذهل من الطِّباعة. وكانت بعض الكّتب مرصوفة بشكلٍ جيّد على رفوفها، وبعضها الآخر كان مرميّاً بفوضى على الأرض، وكذلك كانت أخرى مكوّمة في شَقَعات متقلقلة. كان هناك قانون مفروض بصرامة يمنع إخراج الكتب من البناء، بيد أن كثيرين قاموا رغم ذاك بتهريبها وبيعها في السّوق السّوداء. وعلى كلّ حال فقد كان السّؤال عمّا إذا كانت المكتبة لاتزال مكتبة بالفعل، موضوعاً قابلاً للنّقاش. كان نظام التّبويب قد فسد تماماً، وبوجود عدد كبير من الكتب مبعثراً خارج سياقه، كان

من المستحيل عمليّاً العثور على أيّ كتاب قد تحتاج إليه. وإذا أخذت بعين الاعتبار وجود سبع طبقـات من الأكداس فـإنّك حـين تقول إنَّ الكتـاب موجـود في مكان غـير المكان المخصَّص لـه، فكـأنّـك تقـول بالضّبط إنَّه لم يعد موجوداً البتّة. وحتّى لـو كان من المعقـول أن يكون موجوداً بالفعل في البناء، فلقد كان في الواقع من غير المعقول أن يعثر عليـه أحد. وقـد قمت من أجل سـام بالبحث عن عـدد من الملفَّات البلديّة القديمة، غير أنَّ معظم رحلاتي إلى ذاك المكـان كانت ببسـاطة من أجل جمع بعض الكتب كيفـما اتفق. لم أكن أحبُّ كثيراً الـذَّهاب إلى هناك، فما كان في المقدور أن تحزر ما قد تواجهه، إلى جانب أنّك ستضطرّ إلى استنشاق كلّ ذاك العفن الرّطب. وكنت أتأبّط أكبر عـدد ممكن من الكتب وأسرع عائدة إلى غـرفتنا في الأعـلى. وكانت الكتب وسيلة تدفئتنا في الشّتاء. في غياب أيّ نوعٍ آخر من الوقود، كنّا نقوم بحرقها في موقد الطّعام الحديديّ طلباً للحرارة. أعرف أنّ هذا يبـدو أمراً فظيعاً ولكنّه في الحقيقـة لم يكن لدينـا أيّ خيار. فـإمّا أن نفعـل ذلك وإمّا أن نموت من البرد. ولا أغفل بالطبع بالتّأكيد السّخريـة من هذا: أن نعمل كلّ تلك الأشهر على إنجاز كتابٍ واحد، ونحـرق في الـوقت نفسه المئـات من الكتب الأخرى متـوسِّلين الـدِّفـء. والشّيء اللاّفت في كلّ هذا هو أنّي لم أشعر البتّة بأيّ ندم. وأظنُّ بصراحة أنّي استمتعت حقّـا برمي تلك الكتب في النّـار. وقـد يكـون ذلـك فـرّغ غضباً ما خفيّاً في داخلي، ولربّما كان بكلّ بساطة اعترافاً بـواقع أنّـه ما كان يهمّ البتّة ما حلّ بها. فالعالم الّذي كـانت تخصّه كـان قد انتهى، وكـانت الآن على الأقـلّ تستخـدم لغـرضٍ مـا. وكـان معـظمهـا لا يستـأهل عـلى كلّ حـال أن يُفتح. روايـات عاطفيّـة، مجموعـات من الخطب السياسيَّة، نصوص عفا عليها الزّمن. كنت كلّما وجدت شيئاً

مستساغاً تمسّكت به وقرأته. وحينما يكون سام منهكاً أحياناً كنت أقرأ قبل أن ينام. أذكر أنّي قرأت أجزاء من هيرودوتس بتلك الطّريقة، وفي إحدى اللّيالي قرأت الكّتاب الصّغير المميَّز الّذي كان قد كتبه سيرانو دوبرجيراك عن رحلاته إلى القمر والشّمس. ولكن وجد كلّ شيء في النّهاية سبيله إلى الموقد، وتصاعد كلّ شيء دخاناً.

وإذ أستراجع الآن الأمر فإنّي مازلت مؤمنة بأنّ أمورنا كانت ستنتظم. إنّنا كنّا سننجح في إنهاء الكتاب، وسنجد عاجلاً أو آجلاً طريقة للعودة إلى ديارنا. ولولا الخطأ الأحمق الّذي ارتكبته تماماً مع انتهاء فصل الشّتاء لكنت الآن جالسة أمامك، مخبرة إيّاك هذه القصّة بصوتي. إنّ ارتكابي في الواقع غلطة بريئة لا يخفّف الألم الّذي سبّبته. كان ينبغي أن أكون أكثر دراية، ولأنّي تصرّفت بتهوّر، واضعة ثقتي في شخص ما كانت لديّ أيّة مصلحة للوثوق به، فقد دمّرت حياتي بأكملها. لست أصطنع المأسويّة حين أقول هذا. فلقد أفسدت كلّ شيء بغبائي، وليس من أحد يُلام غيري.

هكذا حدث الأمر. اكتشفت بُعَيْد انتهاء السنة أنّي كنت حاملاً. وإذ كنت أجهل كيف يمكن أن يتلقّى سام الخبر فقد عملت على إخفائه عنه مدّة من الزّمن، غير أنّه أصابني بعدها في أحد الأيّام غثيان صباحيّ (كالّذي يصيب الحوامل) شديد الوطأة - نضوح عرق بارد، وتقيّؤ على الأرض - وانتهى بي الأمر إلى الاعتراف له بالحقيقة. والّذي لا يُصدَّق هو أن سام فرح جدّاً بالخبر، وربّما كان مغتبطاً أكثر منّي. ولا يعني هذا أنّي لم أكن راغبة في الطّفل، أنت تفهم هذا، غير أنّي لم أستطع أن أدرأ عنّي الشعور بالخوف، وكنت أشعر أحياناً بالانهيار عندما يخالجني إحساس بأنّي سألد طفلاً تحت وطأة تلك الظروف، كان ذلك يصيبني بالجنون. وبقدر ما كنت قلقة كان سام

متحمّساً. كانت فكرة أن يغدو والداً تمنحه قوّة، وشيئاً فشيئاً استطاع أن يُسكِّن الشّكوك الّتي راودتني، وجعلني أنظر إلى الحَبَل كفأل حسن. قال إنّ ولادة طفل تعني أنّنا نجونا. لقد رجّحنا كفّة الميزان لمصلحتنا، ومن الآن فصاعداً سوف تتبدّل كلّ الأمور. فبإنجابنا طفلاً جعلنا من الممكن أن يبدأ عالم جديد. ما كنت أبداً قد سمعت سام يتكلّم بهذه الطّريقة من قبل. بهذه المشاعر المثاليّة الرائعة.. كدت أنصعق وأنا أسمع صدور هذه الكلمات منه. ولكن هذا لا يعني أنّي ما أحببت ذلك. أحببت ذلك للغاية، وفي الواقع بدأت أثق بنفسي.

وأكثر من أيّ شيء آخر بأنّي ما كنت أريد أن أبدأ بخذلانه. وعلى الرّغم من الصّباحات القليلة المؤلمة الّتي عانيت منها خلال الأسابيع الأولى فإنّ صحّتي بقيت جيّدة، وحاولت أن أتابع القيام بحصّتي من الأعمال، تماماً كما كنت أفعل من قبل. وفي أواسط آذار (مارس) برزت بضعة بشائر معلنة تراجع فصل الشّتاء. قلّت العواصف، واستمرّت فترات ذوبان الثّلج وقتاً أطول بعض الشّيء، وبدا أنّ الحرارة لم تكن تنخفض كثيراً خلال اللّيل. ولا أقصد أن أقول إنّ الطّقس أمسى دافئاً، إلّا أنّه كانت عدّة دلائل ضيلة تشير إلى أنّ الأمور كانت تتحرّك في ذلك الاتّجاه، وخالجنا شعور شديد التّواضع بأنّ الأسوأ كان قد ولّى. وكما أراد لنا الحظّ فقد كان أنْ تلف حذائي في تلك الفترة بالذّات. وهو الحذاء نفسه الّذي كانت إيزابيل وهبتني إيّاه منذ زمن بعيد. وليس بمقدوري أن أحسب الأميال الّتي كنت قد قطعتها فيه. فلقد رافقني أكثر من سنة، مستوعباً كلّ خطوة قمت بها، مصاحباً إيّاي إلى كلّ ركن من أركان المدينة، وقد أصبح الآن تالفاً كلّياً. بَلِي نعله، وتحوّل أعلاه إلى خرق، ورغم قيامي بالمستحيل

لسدّ الثّغراتَ بالجرائد، فقد كانت الشّوارع العائمة خصماً مخيفاً، وكانت قدماي تتبلّلان كلّما خرجت، ولم يكن في الوسع تجنّب ذلك إطلاقاً. وأعتقد أن هذا يحدث نادراً، وفي يومٍ من مقتبل نيسان (إبريل) أصبت بالزّكام. ولقد كان من النّوع الأصليّ، بكلّ عوارضه والأوجاع والقشعريرة، وكذلك التهاب الحلق والعطس، الاستعراض كاملاً. وبسبب تورّط سام في قضيّة الحَبَل فلقد أرعبه هذا الزُّكام إلى حدّ الهستيريا. تخلّى عن كلّ شيء ليهتمّ بي، وكان يحوم حول الفراش مثل ممرِّضة مخبولة، مبذِّراً المال على أغراض باهظة كالشّاي والحساء المعلّب. وتحسّنت خلال ثلاثة أو أربعة أيّام، ولكن بعد ذاك سنّ سام قانوناً جديداً. قال إنّه لا يريدني أن أخرج أبداً قبل أن نتمكّن من العثور على حذاء جديد لي. كان سيقوم بكلّ المشتريات، والمهمّات بنفسه. قلت له إنّ هذا سخيف، غير أنّه لم يتراجع، ورفض السّماح لي بالنِّقاش في الموضوع.

قلت: «لا أريد أن أعامل وكأنّي معاقة، لمجرّد أنّي حامل».

أجاب سام: «المسألة ليست أنتِ، إنّه الحذاء، سوف يتبلّل حذاؤك كلّما خرجت. وقد لا يكون شفاء زكامك التّالي سهلاً، كما تعرفين، وما الّذي سيحلّ بنا إن مرضت بشكل خطير؟».

«إن كنت قلقاً إلى هذا الحدّ، فلماذا لا تعطيني حذاءك لأنتعله حين أخرج؟».

«إنّه كبير جدّاً، سوف تتخبّطين فيه كطفل، وستقعين عاجلاً أو آجلاً. ثمّ ماذا؟ وعندما تسقطين على الأرض سوف ينتزعه أحدٌ ما من قدميك».

«ما ذنبي إن كنت أملك قدمين صغيرتين. لقد ولدت هكذا».

«لديك قدمان جميلتان يا آنا. أروع ما رأيت من أصابع قدمين في

حياتي. إنّي أعبد قدميك. أقبّل الأرض الّتي تمشين عليها. لهذا ينبغي أن تُصانا، لأتأكّد من عدم إصابتهما بأيّة أذيّة».

كانت الأسابيع القليلة التّالية صعبة عليّ، فقد رأيت سام يبدّد وقته في أمورٍ كان باستطاعتي القيام بها بكلّ سهولة، ولم يتقدّم العمل في الكتاب على الإطلاق تقريباً. وأغضبني التّفكير في أنّه في وسع حذاء تافه التسبّب بهذا القدر من المتاعب. كان الجنين قد بدأ يكبر في بطني إذّاك، وأحسستني بقرة عقيمة، أميرة حمقاء جالسة في صوانها طوال النّهار، فيما مليكها وفارسها يمشي مجهَداً إلى المعركة. لو أستطيع فقط العثور على حذاء، هكذا تابعت أردّد لنفسي، لتعود الحياة إلى سيرها الطّبيعي مجدّداً. بدأت أتحرّى قليلاً، وأسأل النّاس وأنا أنتظر في الصّفّ أمام المغسلة، بل لقد نزلت مراراً للمشاركة في اجتماعات «الساعات المشّائيّة» في الرواق، لأرى إن كان باستطاعة أحد أن يرشدني إلى مكانٍ ما. كان كلّ هذا عقيماً، ولكن حدث بعدها في أحد الأيّام أن التقيت صدفة دوجاردان في ردهة الطّابق السّادس فاستهلّ على الفور حواراً معي، مثرثراً كما لو أنّنا رفيقان منذ الصِّغر. وكنت قد تجنّبت دوجاردان منذ لقائنا الأوّل في غرفة الحاخام. ولقد فوجئت بلطافته المباغتة وأحسستها شاذّة. كان دوجاردان ابنَ عرسٍ ماكراً متحذلقاً، ولقد كان تحاشاني طوال كلّ هذه الأشهر وبحذر، كما كنت فعلت أنا تماماً. وها هو الآن غابة ابتسامات، إلى جانب اهتمامه اللّطيف بي. انبرى قائلاً: «سمعت أنّكِ بحاجة إلى حذاء. إن كان هذا صحيحاً فإنّ بمقدوري أن أقدّم لكِ بعض العون». كان يجدر بي أن أفقه على التوّ أنّ شيئاً ما كان غير سليم في ذلك، ولكن ذكر كلمة «حذاء» ضلّلني. كنت مستقتلة للحصول على واحد، أنت تفهم، ولم يراودني التّساؤل بشأن حوافزه.

تابع متْرثراً: «مـا في الأمر هـو هذا. لـديّ قريب مـرتبط بِـ. . . ، هممم، كيف لي أن أقولها، بتجارة بيع الأغراض الصّالحة للاستخدام وشرائها. أنتِ تفهمين مـاذا أعني، أصناف للمستهلك، وأشيـاء من هذا القبيل. ويصادف أحياناً أن توجد أحذية بين البضائع ـ مثل هذا الّذي أنتعله الآن على سبيل المثال ـ ولست أظنّ أنّي سأكون مخطئاً في افتراض أنّ لديـه أحذيـة أخرى الآن في المستـودع. وبمـا أنّي بصـدد القيـام بزيـارةٍ له هـذا المساء فلن يـزعجني أبـداً أن أقـوم من أجلك بـالاستعلام منـه عن ذلك. أنـا بحاجـة بالـطّبـع إلى معـرفـة مقـاس قـدمك. . . هممم، إنّها ليست كبـيرة كما أعتقـد ـ كم هـو المبلغ الذي تستطيعين دفعه؟. لكن هذه تفاصيل، مجرّد تفاصيل. إن كنّا نستطيع أن نحـدّد مـوعـداً للّقـاء غـداً فقـد تكـون عنـدي لــك إذّاك بعض المعلومات. في النّهاية الكلّ بحاجة إلى حـذاء، ومن منظر هـذا الّذي تنتعلينـه الآن يمكنني أن أفهـم السّبب الّذي دفعـك إلى الاستفسار من الجميـع. لقد خُـرِق وتمزّق. إنّـه لا ينفع، ليس مـع الطّقس السّـائد عندنا في هذه الأيّام.

أطلعته على مقاس قدمي، ومبلغ المال الّذي أستطيع دفعه، ثمّ حدّدنا موعداً في ما بعد الظّهيرة المقبل. كان متملّقـاً إلى درجة أنّي لم أستـطع غير الشّعور بـأنّ دوجاردان كـان يحاول أن يكـون لطيفـاً. وربّما كـان يحصـل على جـزء من التّجارة الّتي يـدبّرهـا لقريبـه، غير أنّي لم أرَ أيّ سوء في ذلك. علينـا كلّنا أن نكسب المـال بطريقـةٍ ما، وإن كـان في وسعـه تدبّـر بعض الكسب الإضـافيّ من هنـا وهنـاك فسيكـون هـذا أفضل. نجحت في عدم التفوّه بأيّ حرف بشأن اللّقاء إلى سام طوال ما تبقّى من النّهار. ولم يكن مؤكّداً بأيّة حال أنّ لدى قريب دوجاردان أيّ شيء لي، ولكنّي أردتهـا أن تكـون مفـاجـأة، إن حـدث ونجحت

الصّفقة. جهدت كي لا أعتمد على الأمر. وكانت مدّخراتنا قد انخفضت آنذاك إلى ما دون المئة غلوطة، وكان الرّقم الّذي ذكرته لدوجاردان بخساً لا يذكر - إحدى عشرة أو اثنتي عشرة غلوطة فقط، كما أظنّ، بل ربّما عشر. ومن ناحية ثانية فإنّه لم يرفّ له جفن أمام عرضي، وقد بدا ذلك مشجّعاً. وعلى كلّ حال فإنّه كان يكفيني أن أبقى متأمّلة، وطوال السّاعات الأربع والعشرين التّالية غرقت في دوّامة مهتاجة من الترقّب.

التقينا في الرّكن الشّماليّ الغربيّ من الرّدهة الأساسيّة عند السّاعة الثّانية من اليوم التّالي. وأطلّ دوجاردان حاملاً كيساً بنّيّاً، ولحظة رأيته عرفت أنّه نجح. وانبرى قائلاً: «أعتقد أنّنا محظوظان»، وأمسك ذراعي على نحوٍ تآمريّ، وقادني إلى ما وراء عمودٍ رخاميّ، حيث لا يمكن أن يرانا أحد. «كان لدى قريبي حذاء بمقياسك، وهو مستعدّ ليبيعك إيّاه مقابل ثلاث عشرة غلوطة. أعتذر لعدم استطاعتي تخفيض السِّعر أكثر من هذا، ولكن كان هذا أفضل ما قدِّر لي أن أفعل. ومقارنةً بنوعيّة البضاعة فإنّ هذه بالتّأكيد صفقة ممتازة». واستدار دوجاردان إلى الحائط مولياً إيّاي ظهره، وانتشل الحذاء بحذر من الكيس. كان حذاء من الجلد البنّي ومن النّوع الخاصّ للمشي، وكانت الفردة المناسبة للقدم اليسرى. كانت المواد المصنوع منها كما بدا أصليّة، وكان نعله مصنوعاً من المطّاط القاسي المريح والمتين في آنٍ، من الصنف الممتاز للتجوال في الشّوارع. والأهمّ من هذا أنّ الحذاء كان تقريباً في حالة جيّدة. قال دوجاردان: «جرّبيه لنرى إن كان يناسبك». وكان مناسباً. ووقفت هناك ممعّجة أصابعي ولاوية إيّاها فوق النّعل الدّاخليّ، وانتابتني بهجة لم أعرفها منذ أمد. قلت:

«لقد أنقذت حياتي. أنا موافقة على دفع ثلاث عشرة غلوطة، ويتبقّى أن تعطيني فردة الحذاء الأخرى، وسأدفع لك على الفور». غير أنّ دوجاردان بدا متردِّداً، وقدّم لي بعد ذلك وفي وجهه ارتباك الكيس الفارغ. قلت: «هل هذه نكتة؟ أين هو الحذاء الآخر؟».

أجاب: «إنّه ليس بحوزتي».

«إنّ الأمر برمّته عبارة عن خدعة صغيرة ملعونة، أليس كذلك؟ تلوّح لي بحذاء جيّد، تجعلني أدفع لك المال مقدّماً، ثمّ تأتيني بحثالة للقدم الأخرى. أوَليس هذا صحيحاً؟. حسناً، أنا آسفة، ولكنّي لن أقع في مثل هذا النّوع من الخداع. لن تحصل منّي على غلوطة واحدة حتى أرى الفردة الثّانية».

«لا يا آنسة بلوم. أنت لا تفهمين. ليس الأمر هكذا البتّة. إنّ الحذاء الثّاني بحالٍ شبيهة تماماً بهذا، ولا أحد يطلب منك أن تدفعي مقدّماً. أخشى أن يكون هذا هو أسلوب قريبي في تعاطي التِّجارة. لقد أصرّ على أن تتوجّهي إلى مكتبه شخصيّاً لإتمام الصّفقة. لقد حاولت معه لكي أجنّبك ذلك، ولكنّه ما كان ليرضى. قال إنّ المبلغ منخفض جدّاً ولا يتحمّل وجود سمسار».

«هل تسعى إلى إقناعي بأنّ قريبك لا يأتمنك على ثلاث عشرة غلوطة؟».

«إنّ هذا يحرجني بالفعل. أعترف بهذا. لكن قريبي رجل قاسٍ. إنّه لا يثق بأحد حين يتعلّق الأمر بالأعمال. ويمكنك أن تتصوّري شعوري حين قال لي هذا. لقد شكّك بأمانتي، ويصعب عليّ في الواقع ابتلاع هذه الإهانة، أؤكّد لكِ هذا».

«إن لم تكن أنت ستستفيد فلماذا تكبّدت عناء المجيء إلى الموعد؟».

«كنت وعدتك يا آنسة بلوم، ولم أرغب أن أنكث بالوعد. كان ذلك أثبت بالفعل ظنّ قريبي، ويجب أن أقيم حساباً لكرامتي، أليس كذلك؟ إنَّ لديّ عزّة نفسي في النِّهاية. وهذه أمور أهمّ من المال».

كان أداء دوجاردان مؤثِّراً. فلم يكن ثمّة خللٍ فيه، ولا أدنى صدعٍ يوحي بأنَّه كان غير الرَّجل المطعون في شعوره. وخطر لي أنَّه يرغبُ في المحافظة على علاقات جيِّدة بقريبه، ولهذا يودّ أن يقدِّم لي هذه الخدمة. إنَّ هذا بمثابة امتحان له، فإن نجح في اجتيازه فسوف يسمح له قريبة مذّاك وصاعداً بالقيام بصفقات بمفرده. هل تَرى كم كنت أحاول أن أتذاكى؟ لقد اعتقدت أنِّي فقت دوجاردان دهاء، ولهذا، لم يخالجني أيّ شعور بالخوف.

كانت ما بعد ظهيرة متلألئة. وقد سطعت الشّمس في كلّ مكان، وكادت الرِّيح تحملنا. وشعرت كواحدٍ أبلّ من سقم مديد، وأنا أواجه هذا النّور مجدّداً، شاعرة بقدميّ وهما تتحرّكان تحتي في الهواء الطّلق. ومشينا بسرعة متفادييْن عوائق عديدة، ومنحرفين برشاقة من حول شقعات الحطام الّتي تركها الشِّتاء، وبالكدّ تبادلنا كلمة واحدة طوال الطّريق. كان الرّبيع على أهبة الحصول الآن بشكل مؤكّد، غير أنّ بقع الثّلج والجليد كانت لاتزال قائمة في الظّلال الناتئة من جنبات الأبنية. وبعيداً في الشّوارع حيث كانت الشّمس أشدّ سطوعاً انجرفت أنهر مندفعة بين الحجارة المتدفّقة بعنف، وأجزاء الرّصيف المتفتّتة. وتحوّل حذائي إلى كارثة بعد عشر دقائق من الدّاخل والخارج. فقد انتقع جورباي، وأمست أصابع قدميّ مبلّلة وزلقة بفعل النزّ البارد. وقد يكون من الشاذّ ذكر هذه التّفاصيل الآن، ولكنّها في الواقع أبقى ما انطبع في ذهني من ذكرى ذاك النّهار ـ بهجة

الرّحلة، حسّ الحركة المَرِح السّكران. وبعد ذاك، حين أدركنا المكان الّذي كنّا متوجّهين إليه، جرت الأمـور بسرعة خـارقة، أسرع من أن يتسنّى لي تذكّرها. وإن كنت أتذكّرها الآن فبمجموعة شذرات قصيرة عشوائيّة أراها صوراً مفرَدَة مُنتَزَعة من سياقها، مجرّد انبـلاجات ضـوء وظلّ. البناء، على سبيل المثال، لم يترك فيّ أيّ انطباع. أذكر أنّه كان عند حدود منطقة المستودع في المنطقة السكنيّة الثّامنة، غـير بعيد عن المكـان الّذي كـان يملك فيه فـرديناند مرّة استـديـو رسم الـلاّفتـات خاصّته ـ غير أنّ ذلك كان فقط لأنّ إيزابيل كانت مـرّة قد دلّتني عـلى الشّارع أثناء عبورنا من هناك، وشعرت أنّي فوق أرض مألـوفة. ربّمـا كان ذلك لأنّي كنت منصرفة تماماً عن ملاحظة مظاهر الأشياء، تـائهة كلّياً في أفكاري لأفكّر في أيّ شيء غير الفرح الشّديـد الّذي سينتـاب سام عندما أعود. ونتيجة لذلك فإنّي لا أذكر الآن على الإطلاق شكل واجهة البناء. وكذلك لا شيء عن قيـامي باجتيـاز البوّابـة الأماميّـة، وتسلّقي درجات طوابق عدّة، وكأنّ تلك الأمور لم تحدث البتّـة، على الرّغم من معرفتي اليقينيّة بأنّها حـدثت بالفعـل. والصّورة الأولى الّتي تعاودني بشيء من الوضوح في وجه قـريب دوجاردان. ليس وجهـه في الحقيقة، بل ربّما النظّارات المؤطّـرة بالشّريط الحـديديّ الشّبيهـة تمامـاً بنظّارات دوجاردان، وتساؤلي ـ لوهلة، بـل لجزءٍ من لحـظة ـ إن كان قد ابتاعاها من الشّخص نفسـه. ولست أعتقد أنّي نـظرت في الواقـع إلى وجهه لأكثر من ثانية أو اثنتين، لأنّه عنـدها بـالذّات، وفيـما تقدّم ليصافحني انفتح باب وراءه ـ وبالصّدفة، كما كان يمكن أن يبدو، لأنّ جلبة استدارة مفصّلته بدّلت لحظتها تعبير وجهه فجأة من إنسان ودود إلى شخص قلقٍ، وبيأس، واستدار عـلى التوّ ليغلقـه من غير أن يهتمّ بمصـافحتي ـ وفي تلك اللّحـظة بـالـذّات أدركت أنّي خُـدعت، وأنّ

زيارتي لهذا المكان لا علاقة لها قطّ بـالأحذيـة ولا بالمـال ولا بالتّجـارة بكـلّ أنواعهـا. إذ إنَّه في تلك اللّحـظة بـالـذّات، خـلال الفـاصـل الضّئيـل الّذي انقضى قبـل انغـلاق البـاب مجـدّداً، أُتيـح لي أن أرى بوضوح ما كان في الغـرفة الأخـرى، وما كـان يمكن أن أخطئَ في مـا رأيت هناك. كانت ثـلاثة أجسـام بشريّـة عاريـة أو أربعة مـدلّاة من عُقيفات لتعليق اللّحم، وكان هناك رجل آخر حامـلاً بُلَيْطة ومنحنيـاً فوق طاولة حيث يقوم ببـتر أوصال جثّـة أخرى. وكـانت قد انتشرت إشـاعـات في المكتبـة عن وجـود مجـازر لـذبـح البشر الآن. ولكنّي لم أصـدِّقهـا آنـذاك. والآن، وقـد انفتـح البـاب صـدفـة وراء قـريـب دوجاردان، قُدّر لي إلقاء نظرة خاطفة على المصير الّذي أعدّه لي هذان الرّجلان. وأعتقد أنّي، في تلك اللّحظة بالذّات، بدأت أصرخ. حتّى إنّي أستطيع في بعض الأحيان سماع نفسي صارخة كلمـة «مجرمـون»، أردّدهـا بدون تـوقّف. غير أنّ ذلـك ما كـان ليستمـر وقتـاً طـويـلاً. ويستحيـل أن أسترجـع الأفكـار الّتي انتـابتني في تلك اللّحـظة، كـما يستحيـل علـيّ أن أتيقّن ممّـا إذا كنت قـد فكّـرت بـأيّ شيء عـلى الإطلاق. وأبصرت نافـذةً إلى يساري فـركضت باتّجـاهها. وأذْكُـرني شاهدتُ دوجاردان وقريبـه مندفعـين بقوّة صـوبي، لكنّي عدوت عـبر أذرعهما المتطاولة بسرعة خارقة واندفعت شاقّـة طريقي عـبر النّافـذة. وأذكر صوت الزّجاج المتناثر والهواء صافعاً وجهي. لقد كانت بالتّأكيد سقطة طويلة. كانت على كلّ حال طـويلة إلى الحدّ الـلاّزم لأدرك أنّي كنت ساقطة. طويلة بما يكفي لأعرف أنّي كنت سأموت لحظة اصطدامي بالقعر.

إنّي أحاول شيئاً فشيئاً أن أروي لك مـا حدث. وأخشى أن أكـون

عاجزة تماماً أمام فجوات ذاكرتي. فثمّة أحداث تمتنع عن الظّهور ثانية، ومهما جهدت محاولة فأنا عاجزة عن استحضارها. ولا بدّ أن أكون قد فقدت الوعي لحظة اصطدمت بالأرض، إلاّ أنيّ لا أذكر البتّة الألم، ولا أين سقطت. والأمر الوحيد الّذي أعرفه يقيناً هو أنني لم أمت. وهذه الحقيقة لاتزال إلى الآن تذهلني. فبعد أكثر من سنتين من سقطتي من النّافذة مازلت لا أفقه كيف قدّر لي أن أعيش.

يقولون إنيّ لفظت أنّة حين حملوني، ولكنيّ همدت بعد ذلك، وبالكدّ تنفّست بعدها، بالكدّ صدر عني صوتٌ ما. ومضى وقت طويل. لم يقولوا أبداً كم كان، ولكنيّ أظنّ أنّه كان أكثر من يوم، وربّما قرابة ثلاثة أيّام أو أربعة. وحين فتحت عينيّ أخيراً قالوا إنّ ذلك كان انبعاثاً أكثر منه إبلالاً. إنبعاث كلّي من العدم. وأذكر أنيّ لاحظت وجود سقف فوقي، وتساءلت عن كيفيّة وصولي إلى الدّاخل. غير أنّ الألم انقضّ عليّ بعد لحظة ـ اندلع في رأسي، وعبر جهتي اليمنى، وفي بطني ـ وكان موجعاً بشكل فظيع إلى درجة أنيّ جعلت ألهث. كنت ممدّدة على سرير، سرير حقيقيّ بشراشف ووسادات، ولكن كلّ ما استطعته كان التمدّد هناك، وأنا أئنّ والألم يسري في جسمي. وفجأة انبرت امرأة في مجال نظري، ناظرة إليّ من علٍ، مبتسمة الوجه. كانت في الثّامنة والثلاثين، أو الأربعين، ذات شعر قاتم متموّج، وعينين كبيرتين خضراوين. وعلى الرّغم من أوجاعي لحظتها فقد استطعت أن أرى أنّها كانت جميلة ـ ربّما أجمل امرأة كنت قد رأيتها منذ قدومي إلى المدينة.

انبرت قائلة: «لا بدّ أنك تتألّمين بشدّة».

أجبتها قائلة: «إنّ هذا غير مضحك. لست في مزاجٍ يحتمل

الابتسامات». ويعلم الله من أين جئت بحسّ اللّباقة هذا، غير أنّ الألم كان هائلاً، وقد تفوّهت بأوّل ما تناهى إلى رأسي من كلمات. ولم يبدُ أنّ كلامي هذا نفّر المرأة، إذ إنّها ظلّت تبتسم ابتسامتها الوادعة تلك.

قالت: «يسعدني أنّك ماتزالين على قيد الحياة».

«أتعنين أنّي لست ميّتة؟ يتوجّب عليك أن تثبتي لي هذا قبل أن أصدّقه».

«لديك ذراع مكسورة، وكذلك ضلعان، وضربة قويّة على الرأس. على أيّة حال يبدو أنّك حيّة في الوقت الحاضر. وحسبي أنّ لسانك السّليط خير دليل على هذا».

قلت رافضة التخلّي عن مناكدتي: «من تكونين أنت على أيّ حال؟ أأنت الملاك الحارس؟».

«أنا ڤيكتوريا ووبرن، وهذه عيادة ووبرون. إنّنا نقوم هنا بمساعدة النّاس».

«غير مسموح أن تصبح النّساء الجميلات طبيبات. إنّ هذا مخالف للقانون».

«أنا لست طبيبة. أبي كان واحداً، لكنّه متوفّى الآن، ولقد كان هو الّذي أنشأ عيادة ووبرن».

«لقد سمعت مرّة أحدهم يتحدّث عن هذا المكان. وكنت قد اعتقدت أنّه كان يخترع هذا».

«هذا ممكن الحصول. يصعب أن نعرف ما الّذي يجب أن نصدّقه؛ ما عاد هذا معقولاً».

«هل أنتِ من أتى بي إلى هنا؟».

«لا. إنّه السيِّد فريك بمعيّة حفيده ويلي. إنّهما يخرجان بالسيّارة بعد ظهيرة نهار كلّ أربعاء للقيام بجولات تفقّديّة. وليس في وسع جميع الأشخاص المحتاجين للمساعدة القدوم إلى هنا بمفردهم، أنت تفهمين، ولهذا نخرج نحن ونعثر عليهم. إنّنا نحاول استقبال شخص واحد جديد على الأقلّ بهذه الطريقة كلّ أسبوع».

«هل تعنين أنّهما عثرا عليّ بطريق المصادفة؟».

«كانا عابريْن من هناك حين اندفعت محطّمة النّافذة».

انبريت مدافعة عن نفسي: «لم أكن أحاول الانتحار. هذا إن راودتك أيّة أفكار عجيبة بشأني».

«إنّ الواثبين لا يقفزون عادة من النّوافذ. وإن حدث أن فعلوا ذلك فإنّهم يتأكّدون أوّلاً من أنّ النّافذة مفتوحة».

قلت متهجّمة لأركّز على هذه النّقطة بالذّات: «لست قطّ من النّوع الّذي يقوم بقتل نفسه». غير أنّي ما إن تلفّظت بذلك حتّى بزغت في داخلي حقيقة قاتمة. وردّدت مجدّداً: «لست أبداً ممّن ينتحرون. سوف أضع طفلاً، هل تعرفين، وهل يمكن أن تقوم امرأة حبلى بالانتحار؟ يجب أن تكون مجنونة لتقوم بشيء ما من هذا القبيل».

عرفت على التّو ما كان قد جرى، من الطّريقة الّتي تبدّل فيها تعبير وجهها. فهمت من غير أن يضطرّوا إلى إخباري ذلك. إنّ طفلي لم يعد في داخلي، لقد كانت السّقطة أفظع من أن يستطيع تحمّلها، وقد قضي عليه الآن. ولا يمكنني أن أصف لك كيف ادلهمّت الدّنيا لحظتذاك. استحوذ عليّ بؤس حيوانيّ متوحّش، وانعدمت الصّور في

داخلي، والأفكار أيضاً، فما من شيء أراه، أو أفكّر فيه. ولا بدّ أنّي انفجرت باكية قبل تلفّظها بكلمة أخرى.

جعلت تقول مداعبة بيدها خدّي: «أولاً، إنّها لأعجوبة أنّك استطعت الحمل. ما عاد الأطفال يولدون هنا. إنّك تعرفين هذا أكثر منّي. إنّ هذا لم يحدث منذ سنوات».

أجبت ساخطة، محاولة أن أتكلّم عبر نشجبي: «لست أهتمّ. أنت مخطئة. كان طفلي سيعيش، أعرف جيّداً أنّ طفلي كان سيعيش».

كلّما كان صدري ينتفض، كانت أضلعي تستشيط ألماً. وحاولت أن أكبت هذه الجيشانات العاطفيّة، إلاّ أنّ ذلك جعلها أشدّ وطأة. وتخلّصت من المجهود لأبقى ساكنة، وهذا بدوره أفلت زمام مجموعة من التّشنّجات المكبوتة. وحاولت ڤيكتوريا مؤاساتي، لكني ما كنت لأريد مؤاساتها. فأنا لا أرغب في أيّة تعزية من أحد. وقلت أخيراً، «أرجوكِ ارحلي. لا أريد أحداً هنا الآن. لقد كنت لطيفة جدّاً معي، ولكنّي بحاجة إلى أن أُترك وحيدة».

انقضى وقتٌ طويل قبل أن تبرأ جراحي والجروح التي في وجهي زالت من غير أن تترك أضراراً دائمة، (ندبة على جبيني، وواحدة أخرى على مقربة من الصدغ)، وشفي ضلعاي حسبما كان متوقّعاً. غير أنّ الذراع المكسورة لم تنجبر بشكل مريح، وماتزال تسبّب لي كثيراً من المتاعب. تؤلمني كلّما تحرّكت بعنف أو في الاتّجاه الخطأ، ولم أعد قادرة كذلك على مدّها كلّياً. وقد بقيت الضمّادات على رأسي قرابة الشّهر، وكذلك الكدمات والكشوط، غير أنّي صرت مذّاك رفيقةً لما يشبه وجع الرّأس الدائم: ألم رأس أشبه بطعنات سكاكين، كان يصيبني في لحظات عشوائيّة، أو ألم خافت كان ينبض في مؤخّر

جمجمتي. وأمّا فيما يختصّ بالضّربات الأخرى فأنـا أتردّد في التحـدّث عنهـا. مسألـة رَحِمي أشبه بـاللّغـز، وليست لـديّ أدنى وسيلة لأحـدِّد الكارثة الّتي أصابت هذه الرّحِم في الدّاخل.

وعلى أيّة حال فقد كانت الأضرار الجسدية مجرّد قسم من المشكلة. فبعـد ساعـات فقط من حديثي الأوّل مـع ڤيكتوريـا، وصلتني أخبار سيِّئة إضافيّة، وعند تلك النّقطة بالـذّات كدت أستسلم كلّيـاً، كدت أفقـد الرّغبـة في الاستمرار عـلى قيد الحيـاة. باكـراً في تلك العشيّة، عـادت إلى غرفتي مـع صينيّة طعـام. أخبرتهـا كم كان ملحّـاً وجوب توجّه أحد ما إلى المكتبة الوطنيّة، والعثور على سام. سوف يكون قلقاً حتّى المـوت، قلت هذا وأضفت أنّني أنـا أيضاً بحـاجة إلى أن أكـون بمعيّته الآن. «الآن»، صرخت، «أريد أن أكون معه الآن». وفقـدت فجأة السيطرة على نفسي، ورحت أبكي بكاءً مرّاً. وأُرسل ويلي، وهو صبيٌّ في الخامسة عشرة من العمر، للقيام بالمهمّة، ولكن الأخبار الّتي عـاد بها كـانت مدمِّـرة. كان قـد اندلـع حـريقٌ في المكتبـة بعـد تلك الظّهيرة، وانهار سقفها كلّياً. ولا يعـرف أحد كيف بـدأ، ولكنّ البناء كان الآن ملتهباً برمّته، ويُقال إنّ هناك أكـثر من مئة شخص عـالقين في الدّاخل. لم يكن واضحاً إن كان أحد قد استطاع النّجاة، وكـانت هنـاك شـائعـات متضـاربـة. ولكن حتّى لـو كـان سـام بـين أولئـك المحـظوظين، فلم يكن من سبيـل ليستطيـع ويلي أو أيّ واحـد آخـر العثور عليه. وإن كان مات مع الآخرين فسأكون خسرت كلّ شيء. ولم أرَ أيّ منـاص. إن كان ميّتـاً فلا حقّ لي بـالعيش. وإن كان حيّـاً فقد كان من المؤكّد تقريباً أنّي لن أراه أبداً من جديد.

كانت تلك هي الوقائع الّتي توجّب عليّ أن أواجهها خلال أشهري

الأولى في عيادة ووبرن. وكانت بالنِّسبة إليَّ فترة قاتمة، أظلم من أيّ فترة عرفتها. في البداية بقيت في الغرفة في الطّابق الأعلى. وكان يزورني أحدهم ثلاث مرّات في اليوم، مرّتين لإحضار وجبتي الطّعام، ومرّة لتفريغ دلو الغرفة. وكان هنالك على الدّوم ضجيج ناس في الأسفل (أصوات، زحف أقدام، أنّات، قهقهات، صياح، شخير في اللّيل)، غير أنّي كنت أضعف وأشدّ قنوطاً من أن أكلّف نفسي عناء النّهوض من الفراش. واستغرقت في كآبتي مقطّبة، متقوقعة تحت الملاءة، ينتابني البكاء من غير إنذار. وكان الرّبيع قد حلّ إذّاك، وقضيت معظم وقتي محدِّقة في الغيوم عبر النّافذة، مدقِّقة في العفن المتشكِّل عند ذروة الجدران، ومحملقة في شقوق السَّقف. ولا أظنّ أنّي حاولت في الأيّام العشرة أو الاثني عشر الأولى أن أتخطّى الباب حتّى للخروج إلى الرّدهة.

كانت عيادة ووبرون عبارة عن عمارة من خمسة طوابق، وفيها ما يزيد عن عشرين غرفة ـ كانت متراجعة بعض الشّيء عن الشّارع ويكتنفها موقف سيّارات خاصّ وصغير. وكان قد شيّد العمارة جدّ الدّكتور ووبرن، قبل مئة عام تقريباً، وكانت تعتبر أحد أفخم المساكن الخاصّة في المدينة. وحين بدأت فترة الاضطرابات مجدّداً، كان الدّكتور ووبرن من أوائل الّذين لفتوا الانتباه إلى واقع تزايد عدد السكّان المشرَّدين. ولأنّه كان طبيباً محترماً من عائلة مهمّة، فلقد أُتيح لتصريحاته آنذاك قدرٌ كبيرٌ من التّغطية الإعلاميّة، وسرعان ما أمسى دعم قضيّته دارجاً في الأوساط الثريّة. أُقيمت حفلات عشاء لجمع التبرّعات، وحفلات رقص خيريّة، ونشاطات اجتماعيّة أخرى، وأخيراً جرى تحويل عدد من الأبنية حول المدينة إلى ملاجئ. وتخلّى الدّكتور ووبرون عن ممارسة الطّب كي يتفرّغ لإدارة هذه البيوت

العابرة، كما كانت تدعى، وكان يخرج كلّ صباح في سيّارته برفقة سائقه لزيارتها، فيتحدّث إلى النّاس الموجودين هناك، ويقدّم لهم أيّة مساعدة طبّية ممكنة. وقد أصبح بمثابة الأسطورة في المدينة، وعرف بطيبته ومثاليّته، وكلّما كان يتحدّث النّاس عن بربريّة تلك الأيّام، كان يُستحضر اسمه لإثبات أنّ الأفعال النّبيلة مازالت ممكنة الحصول. ولكن هذا كان منذ وقت طويل، قبل أن يصدّق أحد أنّ الأمور يمكن أن تنحلّ وتفسد إلى الحدّ الّذي بَلَغَتْه أخيراً. وفيما تفاقم سوء الأوضاع بهتت تدريجيّاً الشّهرة الّتي أصابها مشروع الدّكتور ووبرن. وتضاعفت أعداد المشرّدين بأعداد ضخمة، وعلى مدى جغرافيّ كبير، في حين تضاءلت، وبالنّسبة عينها، الأموال المطلوبة لتمويل هذه الملاجئ. فرّ الأثرياء خلسة متسلّلين من البلاد مع مقتنياتهم من الذّهب والألماس؛ وأمّا الّذين بقوا فما عاد في مقدورهم أن يكونوا كرماء. وصرف الدّكتور مبالغ ضخمة من أمواله الخاصّة على الملاجئ، بيد أنّ هذا لم يمنع سقوطها الواحد تلو الآخر، حتّى أُقفلت كلّها. وكان أيّ رجل آخر غيره استسلم للأمر الواقع، إلّا أنّه رفض أن تنتهي المسألة عند هذا الحدّ، وقال في نفسه: «إن لم يكن بمقدوري إنقاذ الآلاف، فلربّما أستطيع إنقاذ المئات، أو ربّما عشرين أو ثلاثين. ليست الأرقام بذات أهمّيّة». وإلى ذلك الحين كانت قد حدثت أمور كثيرة فعرف أنّ أيّة مساعدة كان سيقدّمها ستكون رمزيّة وحسب ـ إيماءة طيّبة في مواجهة التّدمير الشّامل. كان ذلك منذ ستّ سنوات أو سبع، وكان الدّكتور ووبرن قد تخطّى السّتّين من العمر بسنوات. وبتشجيعٍ من ابنته قرّر أن يفتح منزله أمام الغرباء، محوّلاً الطبقتين الأوّليَيْن من منزل العائلة إلى مزيج من المستشفى والمأوى. ابتاع سرائر، وتمويناً للمطبخ، وشيئاً فشيئاً باع ما تبقّى من أملاك

عائلة ووبرن من أجل إنجاز المشروع والمحافظة عليه. وحين قلّ المال مجدّداً راح وابنته يبيعان اللّوحات الزّيتيّة المتوارثة وبقيّة المتاع الأثريّ، وأفرغا تدريجيّاً غرف الطّوابق العليا من محتوياتها. وتمكّنا بجهدٍ جهيد مستمرّ من إيواء عدد يتراوح بين ١٨ و٢٠ شخصاً في أيّ وقت. كان يسمح للفقراء بالبقاء ما يقارب العشرة أيّام، وكان في وسع المعتلّين بشكل سيّىء البقاء لوقت أطول. كانوا يقدّمون للجميع أسرّة نظيفة بالإضافة إلى وجبتينْ ساخنتينْ في النّهار الواحد. وما كان هذا بالطّبع ليحلّ أيّ مشكلة، غير أنّه كان على الأقلّ يقدّم للنّاس فترة راحة خلال خضمّ مشاكلهم، فرصة لجمع قواهم قبل أن يتابعوا من جديد. وكان الدّكتور يقول: «ليس بوسعنا القيام بالكثير، لكن ننجز هذا القليل الّذي تأتّى لنا».

كان الدّكتور ووبرن قد مات قبل أربعة أشهر فقط من وصولي إلى عيادة آل ووبرن. وكانت ڤيكتوريا والآخرون يفعلون كلّ ما في وسعهم للاستمرار بدونه، ولكنّه كان من الضّروري إجراء بعض التّغييرات، وخصوصاً فيما يتعلّق بالوجه الطبّي للأمور، إذ لم يعد هناك من يستطيع القيام بعمل الطّبيب. وكان كلّ من ڤيكتوريا والسيِّد فريك ممرِّضين كفوءيْن، بيد أنّهما كانا بعيدين جدّاً عن أن يكونا قادرين على تشخيص العوارض ووصف العلاج. ولعلّ هذا يفسِّر عنايتهما الخاصّة بي. ومن بين كلّ الجرحى الّذين كانوا قد أحضروا إلى العيادة منذ وفاة الطّبيب، كنت أوّل من تجاوب مع عنايتهما، وأوّل من بدت عليه علامات الإبلال. وقد خدمت بهذا المعنى في تبرير إصرارهما على إبقاء عيادة ووبرن مفتوحة. كنت بمثابة نجاحهما الأوّل، المثال المضيء لما كان مايزال في وسعهما تحقيقه، ولذاك دلّلاني طوال المدّة التي بدا أنّي كنت فيها بحاجة إلى ذلك، وتغاضيا

عن اللّحظات التي كان فيها مزاجي عكِراً، وقدَّما لي كلّ مساعدة ممكنة.

كان السيِّد فريك مقتنعاً بأنّي انبعثت فعلاً من الموت. وكان قد عمل سائقاً للطّبيب مدّة طويلة (واحد وأربعون عاماً، كما قال)، ورأى عن كثب من مظاهر الحياة والموت أكثر ممّا يقدّر لأيّ مخلوق أن يرى. غير أنّه لم تصادفه أبداً حادثة كالّتي جرت لي. وكان ليقول «لا، يا آنستي. لقد كنتِ فعلاً في عالم آخر. لقد رأيت ذلك بأمّ عيني. كنت ميِّتة، ثمّ عدت بعدها إلى الحياة». كان للسيِّد فريك طريقة عجيبة، غير قواعديّة في الكلام، وغالباً ما كان يشوِّش أفكاره وهو يحاول التّعبير عنها. ولا أظنّ أنَّ لهذا أيّ علاقة بوضعه العقلي - كان الأمر بكلّ بساطة أنَّ الكلمات كانت تسبِّب له المشاكل. وكان يجد مشقّة في تحريكها على لسانه، وكان يتعثّر أحياناً فوقها وكأنّها أشياء محسوسة، حجارة من الحروف تتراكم في فمه. ولهذا السّبب، بدا حسّاساً بشكلٍ خاصّ بإزاء الخصوصيّات الدّاخلية للكلمات بحدّ ذاتها: أصواتها بمعزل عن معانيها، تناسقها، وتضاربها. فسرّ لي مرّة قائلاً: «تكون الكلمات، ما تقوله لي كي أفهم. لهذا ينبغي أن أكون هذا الرّجل الكهل. واسمي هو أوتّو. إنّي أتقدّم وأتراجع بالطّريقة عينها. إنّي لا أنتهي في مكان إلاّ وأبدأ من جديد. هكذا أستطيع أن أعيش مرّتين، أيْ مرّة أكثر من أيّ واحد آخر. وأنتِ أيضاً يا آنستي. إنّ تركيب اسمك يشبه تركيب إسمي (ا. ن. ن. ا.). هو نفسه ذهاباً وإيّاباً، تماماً مثلي أنا أوتو. لهذا السّبب كان عليك أن تولدي مجدّداً. إنَّ هذه نعمة وحظّ يا آنسة آنا. لقد كنت ميِّتة، ورأيتك تولدين مجدَّداً بعينيّ هاتين. إنَّ هذه نعمة ممتازة وهبك إيّاها الحظّ».

كان هنالـك ما يشبـه النّعمة الحمقـاء في هذا الـرّجل الكهـل، في استقامته الهزيلة الممدودة، وخدّيه العاجيّيْن. كـان إخلاصـه للدّكتور ووبرن عظيماً، وهو مايزال حتّى الآن يصون السيّارة الّتي كـان يقودهـا له ويهتمّ بها ـ وهي سيّارة قديمة بمحرّك بقوّة ١٦ أسطوانـة، ومن طرّاز بيرس آرّو، وذات مقاعـد منجّدة بغـطاءٍ جلديّ. كانت هـذه السيّارة السّوداء المعمّرة نصف قرن الخصوصيّة الوحيدة الشاذّة عند الدّكتور، وكلّ مساء ثلاثاء، وعلى الرّغم من ضرورة إنجاز أعمال كثيرة أخرى، فقد كان فـريك يخـرج إلى المرآب خلف البنـاء، ويمضي ساعتـين على أقلّ تقدير ملمّعاً ومنظّفاً السيّارة، جاعلاً إيّاهـا في أفضل وضـع ممكن من أجـل تجوالات مـا بعد ظهـيرة الأربعاء. وكـان قد كيّف المحـرّك ليعمل بواسطة غاز الميثان، وكانت براعة يـديه هـذه بالتّـأكيد السّبب الـرّئيسيّ لعـدم انهيـار بنـاء عـائلة ووبـرن. فقـد قـام بتصليـح كـلّ القسـاطل، وركّب دوشـات، وحفر بئـراً جديـدة. وهـذه وتحسينـات أخرى حفظت استمـراريّة المكـان في أصعب الأوقات. وكـان حفيده ويلي يعمل مساعداً له في كلّ هـذه المشاريـع، وكان يتبعـه صامتـاً في الأرجاء متنقّلاً من عمل لآخر، في هيئته الكئيبة وقامته القصيرة داخل قميص أخضر بقلنسـوة. وكانت خـطّة فريـك أن يعمـل عـلى تلقـين الصّبي ما يحتاجه لكي يتسلّم زمام هـذه الأمور بعـد موتـه، إلاّ أنّه لم يظهر أنّ ويـلي كان ذاك المتلقّن النّبيـه. قال لي فـريك في أحـد الأيّام بخصوص هذا الموضوع: «لا شيء يدعو للقلق. سوف نروّض ويـلي بتمهّـل. لا شيء يستوجب العجلة. وإلى أن يحـين أجـلي فـإنّ فتـانـا سوف يغدو أيضاً رجلاً عجوزاً».

بيـد أنّ ڤيكتوريـا كانت في الـواقع أكـثر من اهتمّ بي. وكنت قـد ذكرت كم كان شفائي مهمّاً بالنّسبة إليها، ولكنّي أعتقد أنّـه كان ثمّـة

أمور بشأن ذلك غير مجرّد إبلالي. كانت في عطش إلى شخص تحدّثه، وإذ استعدتُ قواي تدريجيّاً، فقد ازدادت زياراتها لي في الطّابق الأعلى. فهي منذ وفاة والدها، أمست وحيدة مع فريك وويلي، وكانوا يعملون معاً على إدارة المأوى، وملاحقة الأعمال، إلاّ أنّه لم يكن هناك أحد تُشْرِكه في أفكارها. وبدا شيئاً فشيئاً أنّي كنت ذاك الشّخص. فلم يكن من الصّعب علينا أن نتبادل الأحاديث، وفيما كانت صداقتنا تنمو أدركت شيئاً فشيئاً كم كنّا متشابهتَيْن. صحيح أنّني لم أكن سليلة الثّراء الّذي ترعرعت فيه ڤيكتوريا، ولكن طفولتي كانت سهلة وحافلة بمتع البورجوازيّة، وميزات كثيرة، وقد عشت في قناعة داخليّة أنبأتني بأنّ كلّ رغباتي كانت ستتحقّق. وقد تعلّمت في مدارس جيِّدة، وبإمكاني التفريق بين نبيذَيْ البوجولي والبوردو، وكنت أفهم لماذا كان الموسيقي شوبيرت أعظم من شومان. وبالمقارنة بالعالم الّذي ترعرعت فيه ڤيكتوريا في منزل آل ووبرن، فربّما كنت أقرب لأن أكون فرداً من طبقتها أكثر من أيّ واحد التقته منذ سنوات. ولا أقصد أن أوحي بأنّ ڤيكتوريا كانت من النّوع المتعجرف. لم يكن المال يعني في اعتبارها أيّ شيء، وكانت قد أدارت ظهرها لكلّ الأمور الّتي تتمثّل فيه منذ زمن طويل. كان الأمر ببساطة أنّنا قد تقاسمنا لغةً ما مشتركة، وحين كانت تحدِّثني عن الماضي كنت أفهم ما تقول من غير أن أضطرّ إلى سؤالها أيّة تفسيرات.

كانت قد تزوّجت مرّتين - مرّة لفترة وجيزة من «صِنْوٍ اجتماعيّ لامع»، كما وصفته ساخرة، وفي المرّة الثّانية من رجل كانت تشير إليه باسم تومي، رغم أنّي لم أعرف البتّة اسمه الثّاني. وكان كما اتّضح

محامياً، وقد رزقا ولدين: صبيٌّ وبنت. وحين بدأت الاضطرابات راح ينجرف بشكلٍ متزايد في السِّياسة، عاملاً في البداية كنائب سكرتير عام للحزب الأخضر (في مرحلة ما كان يشار إلى كلّ المؤسّسات الحزبيّة بأسماء الألوان). وجرى بعدها أن استوعب الحزب الأزرق كلّ أعضاء منظّمته إثر تحالف استراتيجيّ. كان بمثابة تنسيق مديني للنّصف الغربي من المدينة. ولدى اندلاع أوّل انتضافة لمناهضي عصابات الجزية، قبل إحدى عشرة أو اثنتي عشرة سنة، حُوصِر في أثناء أحد حوادث الشّغب قرب منجم نيرو، وقتل برصاص الشّرطة. وبعد مقتل تومي أصرّ عليها والدها أن تترك البلاد مع الطّفلين (اللّذين كانا في الثّالثة والرّابعة من العمر إذّاك)، لكن ڤيكتوريا رفضت. وعوض ذلك أرسلتهما بمعيّة أهل تومي ليعيشا في إنكلترا. ولم ترغب في أن تكون واحدة من أولئك الأشخاص الّذين استسلموا وفرّوا، هكذا قالت، غير أنّها لم ترغب كذلك في تعريض ولديها للكوارث الّتي كان لا مفرّ من حدوثها. وأعتقد أنّ ثمّة قرارات لا ينبغي إجبار أحد على القيام بها، وهي ببساطة خيارات شديدة الوطأة تنهك الدّماغ. فسوف تندم في النِّهاية على كلّ ما ستقوم به وتظلّ نادماً عليه ما حييت. ورحل الولدان إلى إنكلترا، واستطاعت ڤيكتوريا على مدى السّنتينْ التّاليتينْ البقاء على اتّصال بهما بواسطة البريد. ثمّ راح النِّظام البريديّ ينهار فأصبحت الاتّصالات متقطّعة بشكل غير منطقيّ - كَرْبٌ انتظار متواصل، وكذلك القيام برمي الرّسائل بشكل عشوائيّ في البحر - وفي النِّهاية توقّفوا نهائيّاً. كان هذا منذ ثماني سنوات خلت. ولم تصل أيّة كلمة مذّاك، وفقدت ڤيكتوريا الأمل نهائيّاً في احتمال سماع أيّ خبر عنهما مجدّداً.

إنِّي أذكر لك هذه الأشياء لأظهر تشابه تجربتينا، والصّلات التي

ساعدت على قيام صداقتنا. فالأشخاص الّذين أحبّتهم كانوا قد غادروا حياتها بشكل رهيب، تماماً كما غادر أولئك الّذين أحببتُهم. أزواجنا وأولادنا، والدها وشقيقي - تواروا كلّهم في الموت واللاّيقين. وحين غدوت بحالٍ حسنة تسمح لي بالمغادرة، (ولكن في الواقع إلى أين كنت سأذهب؟)، بدا من الطّبيعيّ بمكان أنّها كانت ستدعوني للبقاء في عيادة ووبرن لأكون أحد أعضاء الفريق العامل. ولم يكن ذلك بالحلّ المنشود، غير أنّي لم أرَ أيّ خيار آخر لي نظراً للظّروف. إنّ فلسفة عمل الخير المتّبعة في المكان أزعجتني بعض الشيء - فكرة مساعدة الغرباء كفكرة بحدّ ذاتها، وكذلك التّضحية بالذّات من أجل قضيّة. كان هذا المبدأ غير واضح وكثير الجدّيّة وشديد الغيريّة. لقد كان كتاب سام بمثابة قضيّة تبنّيتها، ولكنّ سام كان حبيبي، حياتي، وكنت أتساءل إن كنت أملك في داخلي صفة تكريس الذّات من أجل أناس لا أعرفهم. وحدست ڤيكتوريا نفوري غير أنّها لم تجادلني، ولم تحاول تبديل رأيي. وأظنّ أنّ تحفّظها هذا جعلني، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، أقبل في النّهاية. ولم تطلع عليّ بخطاب طويل عريض، ولا حاولت إقناعي أنّي بصدد تحقيق الخلاص لروحي. قالت ببساطة: «يتوجّب القيام بالكثير من العمل هنا يا آنا، أكثر ممّا نَنْشُد على الدّوام. وليست لديَّ أدنى فكرة عمّا سيحصل في وضعك أنت، غير أنّ العمل يعزّي أحياناً الأفئدة المحطّمة».

كانت الرتابة منهكةً ولامتناهية. ولم يكن ذلك علاجاً بل كان إلهاءً. بيد أنّي كنت مرحّبة بكلّ ما يمكن أن يُبْعِد الألم. وما كنت في النّهاية لأتوقّع المعجزات. إذ إنّني كنت قد استهلكت كلّ مؤونتي منها، وكنت مدركة أنّ كلّ شيء سيغدو من الآن فصاعداً حياة قاحلة

محنّطة. حياة ستتابع حدوثها أمامي، رغم أنّها كانت قد انتهت. لم يختفِ الألم إذن. ولكن شيئاً فشيئاً بدأت ألاحظ أنّ بكائي قلّ، وأنّي لم أكن بالضّرورة أبلّل المخدّة قبل أن أنام. حتّى إنّي اكتشفت مرّة أنّه قُدِّر لي قضاءُ ثلاث ساعات كاملة من غير أن أفكّر بسام. وكانت هذه بمثابة نجاحات ضئيلة، لست أنكر، ولكن، بالمقارنة بظروفي وحالتي آنذاك، لم أكن أبداً في موضع السّاخر منها.

كان هناك ستّ غرف في الطّابق السّفليّ، وفي كلّ واحدة منها ثلاثة أسرّة أو أربعة. وكان الطّابق الثّاني يحتوي غرفتينْ خاصّتين، كانتا مفردتين للحالات الصّعبة، وكنت قد قضيت في واحدة منها أسابيعي الأولى في منزل آل ووبرن. وبعدما بدأت العمل خصّصت غرفة نوم لي في الطّابق الرّابع. وكانت غرفة ڤيكتوريا عند آخر الرّواق، وكان فريك وويلي يعيشان في غرفة واسعة تقع تماماً فوق غرفتها. وكان العضو الآخر والوحيد من الفريق يعيش في الطّابق الأسفل، في غرفة تقع تماماً وراء المطبخ. وكان هذا العضو يدعى ماغي فاين، وهي امرأة صمّاء خرساء كانت تخدم كطبّاخة وغسّالة. وكانت قصيرة جدّاً وذات فخذيْن غليظتيْن بدينتيْن، ووجهٍ عريض مكلّل بغابة من الشّعر الأحمر. وباستثناء الحوارات الّتي كانت تقيمها بلغة الإشارات مع ڤيكتوريا، فإنّها لم تكن أبداً تتواصل مع أحد. كانت تنغمس في عملها في ما يشبه الغَشية الكئيبة، منجزة بإتقان وأناقة كلّ وظيفة تكلّف بها، وكانت تعمل لساعات طوال إلى حدٍّ أنّي تساءلتُ إن كانت أبداً تنام. ونادراً ما حيّتني، أو انتبهت لوجودي، غير أنّها بين الحين والحين، في المناسبات الّتي يتّفق أن نكون فيها وحدنا، كانت تربّت على كتفي، مبتسمة لي ابتسامة عريضة، ثمّ تتابع لتقدّم لي

عرضاً إيمائيّاً كاملاً لمغنّية أوبرا تقدّم أغنية، بما في ذلك الإيماءات المتكلّفة وارتجافات الحنجرة. وكانت تنحني بعد ذلك بكياسة مقدّمة الشّكر لهتافات جمهور متخيّل، لتعود بعدها، وعلى نحو مفاجئ، إلى عملها، من غير توقّف ولا استراحة. كانت مجنونة كلّياً. ولا بدّ أنّ هذا حدث ستّ مرّات أو سبعاً، غير أنّي لم أستطع أن أكتشف أبداً ما إذا كانت تحاول تسليتي أو إخافتي. وقد قالت لي ڤيكتوريا إنّه طوال كلّ السّنوات الّتي قضتها هنا، ما غنّت ماغي أبداً لأحد.

كان على كلّ مقيم، كما كنّا ندعوهم، أن يوافق على بعض الشّروط قبل أن يُسمح له بالإقامة في مأوى آل ووبرن. يحظّر العراك أو السّرقة على سبيل المثال، وينبغي أن يقبل المقيم المشاركة في العمل اليومي الرّوتيني: مثل ترتيب سريره، وحمل صحنه إلى المطبخ بعد الوجبات، إلخ. . وفي مقابل ذلك كان يُقدَّم للمقيمين غرفة وخزانة، وطقم ثياب جديد، وفرصة للاستحمام يوميّاً، واستخدام غير محدود لكلّ التّسهيلات. وكان هذا يشمل صالة الجلوس السفليّة الّتي كانت تؤثّثها مجموعة من الصّوفات والمقاعد المريحة، ومكتبة محشوّة بالكتب، وألعاب تسلية مختلفة الأنواع (ورق لعب، وبينغو، وطاولات نرد) - هذا بالإضافة إلى فناء وراء العيادة، كان بهيجاً على الخصوص في إبّان الطّقس الطيّب. وكان ثمّة ملعب لممارسة لعبة الكروكي في زاويته البعيدة، وشبكة للعبة الرّيشة ومجموعة كبيرة من المقاعد الحجريّة. ومهما يكن فقد كان مأوى ووبرن ملاذاً، ملجأ مثاليّاً من التّعاسة والقذارة المحيطة. وقد يخالجك شعور بأنّ كلّ من تتسنّى له فرصة قضاء بضعة أيّام في مكان كهذا كان سيستمتع ولا بدّ بكلّ لحظة منها، بيد أنّ ذلك لم يبدُ صحيحاً دائماً. كان معظمهم ممتنّين بالطّبع،

ومقدّرين إلى أقصى الحدود ما يُبذل من أجلهم، ولكن كان هناك كثيرون آخرون ممّن عانوا الأمرّين من إقامتهم. فقد كانت المشاجرات بين المقيمين أمراً شائعاً، وكان يبدو أنّ أيّ شيء يمكن أن يفجّر شجاراتهم تلك. الطّريقة الّتي كان يأكل بها أحدهم مثلاً طعامه، أو ينقر أنفه، ورأي هذا مقابل رأي ذاك، وطريقة سعال أحدهم، أو شخيره فيما الجميع يحاولون النّوم ـ كلّ الأمور التّافهة الّتي تحدث حين يحدث أن يجتمع النّاس فجأة تحت سقفٍ واحد. وليس ثمّة ما هو غير اعتياديّ بشأن ذلك، هذا ما أعتقده، إلاّ أنّي وجدته في الواقع وعلى الدّوام مَرَضيّاً، مجرّد مسرحيّة صغيرة حزينة وسخيفة كانت تلعب مِراراً وتكراراً. وكان معظم المقيمين في مأوى ووبرن تقريباً قد عاشوا في الشّوارع وقتاً طويلاً. ولربّما كان التّباين بين تلك الحياة وهذه أقرب إلى الصّدمة بالنّسبة إليهم. وإنّك لتعتاد الاعتناء بنفسك، التّفكير فقط بمصلحتك الخاصّة، ثمّ يدعوك أحدهم إلى التّعاون مع مجموعة من الأغراب، مع طبقة من النّاس هي نفسها الّتي روّضتَ نفسك على عدم الثّقة بها. ولمّا كنتَ تعرف أنّك ستعود إلى الشّوارع بعد بضعة أيّام قصيرة، فهل يستحقّ هذا فعلاً مشقّة تجرّد شخصيّتك من أجل ذلك؟.

كان بعض المقيمين الآخرين يبدون مخذولين تقريباً بما وجدوه في مأوى ووبرن. وكان هؤلاء من الّذين انتظروا طويلاً قبل أن يُقْبَلوا، وقد تعاظمت توقّعاتهم إلى درجة تفوق المنطق ـ وتحوّل مأوى ووبرن في أذهانهم إلى جنّة أرضيّة، إلى موطن فيه كلّ ما يمكن من رغباتٍ شديدة كانت قد اعترتهم في وقتٍ من الأوقات. وكانت فكرة السّماح لهم بالعيش هناك قد وهبتهم القدرة والدّافع للاستمرار من يومٍ

لآخـر، ولكن مـا إن كـان يقـدّر لهم الـدّخـول بـالفعـل حتّى كـانـوا يتعرّضون، وبالضّرورة، إلى نكسة. وفي النّهاية فإنّهم ما كانوا بصـدد الدّخول إلى واقـعٍ فتّان. كـان مأوى ووبـرن مكانـاً بديعـاً، غير أنّـه ينتمي إلى العالم الواقعيّ على أيّة حال، وما كنت تجده هناك كان فقط حياة أكثر ـ حياة أفضل ربّما ـ ولكن لم يكن على الـرّغم من ذلك أكـثر من الحياة كما كنت تعرفها على الدّوام. كان الأمر الـلاّفت هو سرعـة تكيُّف الجميـع مع الـرفـاهيّـات المـاديّـة الّتي كـانت تقـدّم ـ الأسرّة، الدّوشات، الطّعام الجيّد، الملابس النّظيفة، الفرصة لعدم القيام بأيّ شيءٍ. وبعد يومين أو ثلاثـة أيّام في مـأوى ووبرن، يستـطيع الـرّجال والنّساء الّذين كانوا يـأكلون من براميـل القمامـة، الجلوس إلى طاولـة عريضة منفلشة جذّابـة مزيّنـة بكلّ ربـاطةِ جـأشٍ مواطنٍ سمـين من الطّبقة الوسطى. وقد لا يكون هذا بالغرابة الّتي يوحي بها. فجميعنا يعتبر الحصول على الأشياء حقّـاً مُكْتَسَباً، ولكنْ حـين يصل بنـا الأمر إلى تلك الأشيـاء الأساسيّـة كالـطّعام والمسكن فـإنّها قد تصبـح حقّـاً طبيعيّـاً، ثمّ لا يمضي وقتٌ طويـلٌ حتّى نعتبرهـا جزءاً تكـامليّـاً منّـا. ويحدث فقط أن نلاحظ الأشياء الّتي كانت لنا حين نفقـدها. ومـا إن نحصل عليها مجدّداً حتّى نتوقّف عن الانتباه إليها مرّة أخرى. كـانت هذه هي مشكلة الأشخاص الّذين كانوا يشعرون بـالخذلان في مـأوى ووبرن. فقد عاشوا مع الحرمان لوقتٍ مديد إلى درجـة أنّهم ما عـادوا يفكّرون في أيّ أمر آخـر، ولكن حينما كـانوا يستعيـدون الأشياء الّتي فقدوها، كانوا يذهلون وهم يكتشفون أنّـه لم يُصبْها تغـيّر كبير. لقـد كان العالم تماماً مثلما كان على الـدّوام. فبطونهم مليئـة الآن، ولكنّه لم يتبدّل أيّ شيء آخر البتّة.

كنّا منتبهين باستمرار إلى مسألة تحذير أولئك النّاس من صعـوبات

النَّهـار الأخـير، بيـد أنّي لا أعتقـد أنَّ نصحنـا أفـاد أيًّـا منهم. فليس بمقـدورك التهيّؤ لشيء كهذا، ولم يكن من سبيـل لنا لنتـوقّع من كـان منهم سيصاب بالإحبـاط في اللّحظة الأخـيرة، أو العكس. ففي وسع بعض النَّـاس العيش وبهم قـدرة عـلى تحمّـل الأذيّـة، إلاَّ أنَّ البعض الآخر كانوا ينسحقون في مواجهتها. إنّهم يعانون بفظاعة لمجرّد فكـرة اضـطرارهم إلى العودة مجـدّداً إلى الشّوارع، ولا سيَّـما اللّطفاء منهم، والحسّاسين، أي الأشخاص الّذين هم أكثر امتناناً على المسـاعدة الّتي قدّمت لهم. وحدث أن تسـاءلت جدّيـاً مرّات كثـيرة عمّا إذا كـان أيّ شيء من هذا يستأهل ذلك، وما إذا لم يكن من المستحسن في الواقـع أن نفعل شيئاً غير تقديم الهدايا إلى النَّاس ثمّ انتزاعها من أيديهم بعد لحظة. كان ثمّـة قسوة جـوهريّـة في عمق هذا الإجـراء، وغالبـاً مـا وجـدته غـير محتمل. أن تـرى رجالاً نـاضجـين ونسـوة يجثـون فجـأة ويرجونك السّماح لهم بقضاء يومٍ واحدٍ آخر. أن تكـون شاهـداً على الدّموع والعـويل والتـوسّل المسعـور. وكان بعضهم يتـظاهر بـالمرض - ويـغمـى عليـهم كُـلّيّـاً مُـدَّعـين الشّـلل - ولقـد ذهـب البـعض الآخر إلى حدّ جـرح أنفسهم عمداً. كـانوا يشرطـون معاصمهم، أو يثقبـون أرجلهم بالمقصّـات، أو يبترون أصـابع أيـديهم أو أقـدامهم. وبعدها، وكحدٍّ أقصى، كانت تحصل الانتحارات، وأستطيع أن أذكر على الأقلّ حدوث ثلاثـة أو أربعة منهـا. ولقد كـان من المفترض أنّنـا نعمـل على مسـاعـدة النّـاس في مـأوى ووبـرن، ولكن كنّـا في بعض الأوقات ندمّرهم فعليّاً.

كـان المأزق عـظيماً عـلى كلّ حـال. فبمجرّد قبـولك فكـرة احتمال وجـود بعض الخـير في مكـان مثـل عيـادة ووبـرن، كنت ستغـرق في

مستنقع من التّناقضات. ولا يكفي مجرّد مناقشة ضرورة السّماح ببقاء النّزلاء وقتاً أطول ـ ولاسيّما إذا كنت تقصد أن تكون عادلاً. وماذا بشأن كلّ أولئك الواقفين في الخارج، منتظرين فرصة الدّخول؟. مقابل كلّ واحدٍ من المقيمين داخل المأوى، كان هناك دزّينات أخرى تتضرّع كي يسمح لها بالدُّخول. ما هو الأفضل؟، أن تساعد عدداً كبيراً من النَّاس لوقتٍ قصير، أو عدداً قليلاً لفترةٍ طويلة؟. أخشى أنْ ليس هناك من جواب عن هذا السّؤال. فقد كان الدّكتور ووبرن بدأ هذا المشروع بطريقة مختلفة، وكانت ڤيكتوريا مصرّةً على المواصلة على هذا النّمط حتّى النِّهاية. بيد أنَّ هذا ما كان ليجعلها بالضّرورة طريقة صحيحة. ولكنّه لم يجعلها بالمقابل مغلوطة. فالمشكلة لم تكن أصلاً في الطريقة، بل في طبيعة المشكلة بحدّ ذاتها. كان من هم بحاجة إلى المساعدة كُثُراً، ولم يكن هناك ما يكفي من النّاس لمساعدتهم. وكانت المعادلة طاغيةً لا ترحم في الدَّمار الَّذي تخلّفه. ومهما بذلت من جهد فلن تتمكّن أبداً من تلافي الفشل. هذه هي المسألة بطولها وعرضها. فإن لم تكن راغباً في تقبّل عقم الوظيفة الكامل، فما من سببٍ يدعوك إلى الاستمرار فيها.

كنت أقضي معظم وقتي مستجوبة النّزلاء المحتملين، مسجِّلة أسماءهم على لائحة، ومنظِّمة جدولاً بالَّذين سوف نستقبلهم وتاريخ ذلك. وكانت المقابلات تجري بين التّاسعة صباحاً والواحدة بعد الظّهر، وكمعدّل كنت أحادث ما بين عشرين وخمسة وعشرين شخصاً يوميّاً. أقابلهم كلاًّ على حدّة، والواحد بعد الآخر في الرّدهة الأماميّة من المأوى. وكانت في الماضي قد جرت بعض الحوادث البشعة على ما يظهر ـ هجمات عنيفة، مجموعات من النَّاس محاولين

اقتحام الباب ـ ولهذا كان ينبغي باستمرار وجود حارس مسلّح في أثناء إجراء المقابلات. وكان فريك يقف على الدّرجات الأماميّة حاملاً بندقيّة، ويراقب الحشد كي يتأكّد من انتظام تقدّم الصّفّ، وكي لا يفلت زمام الأمور. وكانت أعداد الحشد المتجمّع أمام البناء أحياناً خرافيّة، وخصوصاً خلال الأشهر الدافئة. ولم يكن من غير المألوف أن يوجد خارجاً في الشّارع، وفي أيّ وقت، بين خمسين وخمسة وسبعين شخصاً. وهذا معناه بالتّالي أنّ معظم الأشخاص الّذين انتظرتهم كانوا قد انتظروا بين ثلاثة أيّام وستّة لمجرّد الحصول على فرصة المقابلة. كانوا ينامون على الأرصفة، ويتقدّمون إنشاً إنشاً في الصّف، مثابرين بعناد إلى أن يحين دورهم في النّهاية. وكانوا يتقدّمون واحداً واحداً باضطراب كي يقابلوني، كانوا سيلاً لا ينقطع من النّاس. وكانوا يقتعدون المقعد الجلديّ الأحمر من جانب الطاولة الآخر المواجه لي فأوجّه إليهم كلّ الأسئلة الضّروريّة. الاسم، العمر، الوضع الاجتماعي، المهنة السّابقة، العنوان الثّابت الأخير، إلخ. . . ولم يكن ذلك يستغرق أكثر من دقيقتين، بيد أنّ المقابلات الّتي انتهت عند هذا الحدّ كانت نادرة. كانوا جميعاً يريدون إخباري قصصهم، ولم يكن لديّ خيار غير الاستماع. وكانت القصص مختلفة في كلّ مرّة، بيد أنّ كلّ قصّة كانت في النّهاية هي نفسها. حلقات سوء الحظّ، التوقّعات والحسابات المغلوطة، وطأة الظّروف. فليست حيواتنا أكثر من مجموعة تماسّات متشعّبة، ورغم تشعّب تفاصيلها فإنّها تشترك جميعاً في عشوائيّة شكلانيّتها: هذا ثمّ ذلك، وبسبب ذلك، هذا. يوماً استفقت ورأيت. جرحت قدمي ولذلك لم أستطع العدو بسرعة كافية. قالت زوجتي، وقعت زوجتي، نسي زوجي. سمعت مئات من هذه القصص، وفي بعض الأحايين خالجني شعور

بأنّه ما عاد بوسعي التحمّل أبداً. وكان ينبغي أن أكون لطيفة، أن أهزّ رأسي موافقة عند اللّحظات المناسبة، غير أنَّ السّلوك المهني الهادئ الّذي حاولت الحفاظ عليه، كان دفاعاً هشّاً في مواجهة الأشياء الّتي سمعتها. لم أكن متفرّغة لسماع قصص الفتيات اللّواتي عملن كغانيات في عيادات «القتل الرّحيم»، ولا كنت أهوى الاستماع إلى الأمّهات وهنّ يخبرن كيف مات أطفالهنّ. كنت شنيعة وقاسية للغاية، وكان هذا كلّ ما استطعت القيام به لاختبئ وراء قناع وظيفتي. كنت أكتب اسم الشّخص على اللاّئحة وأعينُ له موعداً بعد شهرين أو ثلاثة أو حتّى أربعة أشهر. وأردّد قائلة: «سوف يتوفّر لدينا موضع لك عندئذٍ». ولمّا كان يحين موعد دخولهم مأوى ووبرن، كنت أنا المسؤولة عن استقبالهم. كانت هذه وظيفتي الأساسيّة خلال فترة ما بعد الظّهيرة. كنت أجول بالوافدين الجُدُد في أرجاء المكان، وأشرح لهم القوانين، وأساعدهم على الاستقرار. وكان معظمهم ينجحون في الوصول تماماً في الموعد الّذي كنت قد حدّدته لهم قبل عدّة أسابيع، غير أنَّ البعض كان يفشل ولا يعود أبداً. ولم يكن البتّة من الصّعب أن نحزر السّبب. كنّا نعتمد سياسة قوامها إبقاء سرير الشّخص الغائب خالياً ليوم بأكمله. وإن لم يظهر بعدها شطبت اسمه من على اللاّئحة.

كان مموّن مأوى ووبرن رجلاً يدعى بوريس ستيبانوفيتش. وكان هو من يحضر المواد الغذائيّة الّتي كنّا نحتاجها وقطع الصّابون والمناشف وقطع الغيار لمعدّاتنا. وكان يزورنا غالباً أربع مرّات أو خمساً أسبوعيّاً ليسلّمنا الأشياء الّتي كنّا قد طلبناها، ويحمل معه بعدئذ كنزاً آخر من مقتنيات عائلة ووبرن. إبريق شاي صينيّ، طقم أغطية

للكنبات، كَمان أو إطار صورة ـ كلّ الأغراض الّتي كانت مخزّنة في غرف الطّبقة الخامسة، وهذه كانت تؤمّن باستمرار المال الّذي يضمن استمرار مأوى ووبرن. وقد كان المأوى يتعامل مع بوريس ستيبانوڤيتش منذ أمد بعيد، هذا ما أخبرتني إيّاه ڤيكتوريا، أي منذ البداية مع الدّكتور ووبرن. وكان كلٌّ من الرّجلين يعرف الآخر على ما يبدو منذ سنوات طويلة قبل ذلك، وحسبما أعرفه عن الدّكتور، فلقد فوجئت بأن يكون صديقاً لشخصيّة مريبة كمثل بوريس ستيبانوڤيتش. وأظنّ أنّه كان لذلك علاقة بمسألة إنقاذ الدّكتور مرّة حياة بوريس، وقد يكون الأمر بالعكس. فقد سمعت روايات مختلفة عن المسألة ولم يكن في وسعي قطّ أن أتأكّد من صحّة أيّ منها.

كان بوريس ستيبانوڤيتش رجلاً بديناً متوسّط العمر، وكان سميناً إلى درجة تلفت النّظر بالنّسبة إلى المدينة. وكان يعشق الثّياب الفاقعة الألوان، وكذلك قبّعات الفراء، وعصي المشي، وزهور عروات القمصان. وكان في وجهه المستدير الجلديّ شيء ذكّرني بقائدٍ هنديّ أو بحاكمٍ شرقي. كان ثمّة تميّز في كلّ ما يقوم به، حتّى في الطّريقة الّتي كان يدخّن بها السّجائر، فهو يمسكها بحدّة بين إصبعيه، ويتنشّق الدّخان بلامبالاة أنيقة متهادية، ثمّ ينفثه عبر منخريه الضّخمين مثل بخار من طنجرة تغلي. وكانت متابعة حديثه في أغلب الأحيان أمراً شاقّاً، بيد أنّي تعلّمت بعد أن عرفته بشكل أفضل أن أتقبّل شيئاً كثيراً من التشوّش كلّما فتح بوريس ستيبانوڤيتش فاه، كان مغرماً بالألفاظ المبهمة والتلميحات الموجزة، وكان يزخرف الملاحظات البسيطة بتخييل منمّق، وسرعان ما كنت تضيع محاولاً أن تفهم مقصده. كان بوريس يمقت المكوث في مكانٍ واحد، ويستخدم الكلام كوسيلة للتنقّل ـ كان يتنقّل باستمرار، مندفعاً، مختلقاً

القصص. لقد كان يختفي ثمّ يظهر مجدّداً في موضع آخر. وبين وقت وآخر كان يخبرني قصصاً كثيرة عن نفسه، ويطلعني على أحداثٍ كثيرة متضاربة عن حياته، إلى حدّ أنّي توقّفت نهائيّاً عن تصديق أيّ شيء. فقد كان يوماً يؤكّد لي أنّه وُلِد في المدينة وعاش فيها طوال حياته. ويخبرني في اليوم التّالي وكأنّه نسي قصّته السّابقة، أنّه وُلِد في باريس، وأنّه كان الابن الأكبر لمهاجر روسيّ. ثمّ كان يضيّع الاتجاه مجدّداً ليعترف لي بأنّ «بوريس ستيبانوڤيتش» لم يكن اسمه الحقيقي. وبأنّه كان قد اعتمد، بسبب صعوباتٍ اعترضته مع الشّرطة التّركيّة وهو شاب، هويةً أخرى. ومذّاك غيّر اسمه مرّات كثيرة إلى حدّ أنّه لم يعد يذكر ما هو اسمه الحقيقيّ. وكان يقول أخيراً إنّ الأمر ليس بذي أهميّة. فعلى الرّجل أن يعيش اللّحظة بلحظتها، ومن ذا يأبه إلى ما كنتِ في الشّهر المنصرم إن كنت تعرفين من أنت اليوم؟. قال إنّه كان في الأصل هنديّاً من قبيلة الغونكوين، ولكن بعد موت والده تزوّجت أمّه مرّة ثانية من نبيلٍ روسيّ. وهو نفسه لم يتزوّج قطّ، أو هو تزوّج ثلاث مرّات ـ وكان هذا الأمر يتوقّف على القصّة الّتي تخدم غرضه في اللّحظة الّتي هو فيها. وكلّما كان بوريس ستيبانوفيتش ينجرف في رواية إحدى قصصه الشّخصيّة، فإنّما لإثبات فكرة أو أخرى، وكأنّه كان بلجوئه إلى تجربته الخاصّة، يستطيع السّيطرة التامّة على أيّ موضوعٍ مطروح. ولهذا السّبب عمل في كلّ ما يمكن أن تتخيّل من وظائف وأشغال، من أحقر الأشغال اليدويّة إلى أرفع المراكز الإداريّة شأناً. كان قد عمل غاسل صحون ونشّالاً وسمساراً عقاريّاً ورئيساً لتحرير صحيفة ومديراً لمتجرٍ ضخمٍ متخصّص في أزياء النّساء. ولقد نسيت بدون أدنى ريب وظائف أخرى، ولكنّك بالتّأكيد تفهم ما أريد قوله. لم يكن بوريس ستيبانوفيتش في الواقع يتوقّع منك أن تصدّق

أقواله، بيد أنّه ما كان في الوقت عينه ليعتبر قصصه المبتكرة بمثابة أكاذيب. كانت كلّها جزءاً من مخطّطه الواعي ليبتكر لنفسه عالماً أكثر بهجة ـ عالماً يمكن أن يتبدّل حسب أهوائه، ولا يكون عرضة للقوانين والضّرورات القاسية الّتي كانت تتحكّم فينا جميعاً. وإذا كان هذا لا يجعله واقعيّاً بالمعنى الحرفيّ للكلمة، إلاّ أنّه لم يكن بالّذي يضلّل نفسه بنفسه. لم يكن بوريس ستيبانوفيتش تماماً بالمتبجّح المتستّر كما كان يبدو، فقد كان هناك باستمرار تلميح إلى شيء آخر وراء خداعه وحماسته ـ فطنة ربّما، أو إحساس بوعيٍ أعمق. ولن أتمادى إلى درجة القول بأنّه رجل طيّب (ليست بالتّأكيد الطيبة الّتي أصف بها ڤيكتوريا أو إيزابيل)، ولكن كانت لدى بوريس قوانينه الخاصّة، وقد كان متمسّكاً بها. وعلى عكس كلّ الّذين كنت ألتقيهم هنا، كان في مستطاعه الارتفاع فوق ظروفه. الجوع والجريمة وأبشع أنواع القسوة. وكأنّما كان يمشي إزاء كلّ هذا، وحتّى عبره، بيد أنّه كان يبدو باستمرار سلبياً معافى. كان كأنّه يتخيّل سلفاً كلّ احتمال، ولذلك لم يكن يفاجأ قطّ بما يحصل. وكان سلوكه هذا متأصّلاً بصلابة مع تشاؤمية عميقة، مدمِّرة، متناغمة تماماً مع الوقائع، ولقد أمسى عملّياً، وبسبب هذا، رجلاً بهيج المسلك.

كانت ڤيكتوريا تطلب منّي مرّة أو مرّتين في الأسبوع مرافقة بوريس ستيبانوڤيتش في تجوالاته داخل المدينة ـ مرافقته إلى «حَمَلات البيع والشراء»، كما كان يدعوها. ولم تكن المسألة أنّي كنت قادرة على تقديم عون كبير له، ولكنّي كنت سعيدة دائماً بالفرصة المتاحة لي لمغادرة عملي، ولو لبضع ساعات. ولعلّ ڤيكتوريا كانت تُدرك ذلك، حسب اعتقادي، وتحذر من عدم إجهادي إلى حدٍّ بعيد. إلاّ أن حالتي النّفسية بقيت متردّية، وكنت معظم الوقت في حال معنويّة

شديدة الهشاشة ـ كنت سريعة الغضب ونكدة ومنغلقة على ذاتي من غير أدنى سببٍ واضح. وربّما كان بوريس ستيبانوڤيتس علاجاً ممتازاً لحالتي، فقد رحت أتشوّق لجولاتنا الصّغيرة الّتي كانت بمثابة خلاص لي من رتابة أفكاري.

لم أكن أصحبه قطّ في رحلات الشّراء والتبضُّع (الّتي كان يؤمّن فيها المواد الغذائيّة لمأوى ووبرن، وينجح في العثور على الأغراض الّتي كنّا نطلبها منه)، ولكنّني كنت أراقبه غالباً وهو يقوم ببيع الأغراض الّتي كانت ڤيكتوريا تكلّفه ببيعها لها. كان يحصل على عشرة بالمئة من مردود هذه الصّفقات، بيد أنّه كان يخالجك، وأنت تراقبه يعقد الصّفقة، شعور بأنّه يعمل كلّياً لمصلحته الخاصّة. كان بوريس قد وضع لعمله قاعدة تقوم على عدم التوجّه إلى سمسار التّرميم نفسه أكثر من مرّة واحدة في الشّهر. وبسبب ذلك كنّا نتجوّل بشكل واسع في أرجاء المدينة، منطلقين في اتّجاه جديد كلّ مرّة، وغالباً ما كنّا نجوب قطاعات ما كنت رأيتها قطّ من قبل. وقد اقتنى بوريس مرّة سيّارة من طرّاز ستوتر بيركات، كما ادّعى، ولكن حالة الطّرقات كانت قد أمست سيّئة للغاية، كما قال، ولذا فهو يقوم الآن بكلّ رحلاته ماشياً على قدميه. وكان يتأبّط الشّيء الّذي أعطته إيّاه ڤيكتوريا ويرتجل طرقات ومعابر أثناء مسيرنا، ساعياً بإصرارٍ وبشكلٍ مستمرٍّ إلى تحاشي الازدحام. وكان يقودني إلى أحياء خلفيّة وممرّات مقفرة. يجتاز الأرصفة الضيّقة ببراعة، ويتلولب بخفّة حول الحفر والمطبّات الكثيرة، منحرفاً حيناً إلى يساره، وحيناً آخر إلى يمينه، من غير أن يقطع مرّة إيقاع خطوه. وكان يتحرّك برشاقة مذهلة بالنّسبة إلى رجل بحجمه، وكنت غالباً ما أجد صعوبة في مجاراة سرعته.

وكان يهمدر لنفسه أغاني، أو يتمتم بشيء أو بآخر. ولقد كان بوريس يتراقص بمرح وعصبيّة وأنا أجرجر نفسي وراءه. وبدا لي أنّه كان يعرف كلّ سماسرة التّرميم، ويستخدم مع كلّ منهم أسلوباً خاصّاً مختلفاً. كان يقتحم باب بعضهم فاتحاً ذراعيه، في حين ينسلّ داخلاً إلى غيرهم بصمت. وكان لكلّ شخصيّة من أولئك حساسيّتها المتفرّدة، وكان بوريس يسعى على الدّوام إلى إدراك لبّها، بل يفلح في كسب ودّها. فإن كان العميل يحبّ المديح، امتدحه بوريس، وإن كان يهوى اللّون الأزرق وهبه شيئاً أزرق. وكان بعضهم يفضّل التصرّف المحتشم، ويحبّ بعضهم الآخر أن يعاملوا كأصدقاء حميمين، إلاّ أنّ آخرين كانوا تجّاراً مئة في المئة. وكان بوريس يدلّلهم جميعاً، متكاذباً بدون أي وخزٍ من ضمير. لكن هذا كان جزءاً من اللّعبة، ولم يكن يخالج بوريس أيّ لحظة أنّه لم يكن كذلك. وكانت قصصه منافية للمنطق، ولكنّه كان يبتكرها بسرعة خارقة، ويتبّلها بالتّفاصيل المناسبة، وبنبرة مفعمة بالصِّدق مقنعة، إلى درجة أنّه كان من الصّعب جدّاً عدم التورّط في تصديقه. كان يقول على سبيل المثال: «يا سيّدي العزيز الطيِّب. حدِّق بانتباه في ابريق الشاي هذا. احمله بيديك إن كنت تودّ. أغمض عينيك، ضعه على شفتيك، تخيّل نفسك وأنت تشرب منه الشّاي، كما كنت أنا قد فعلت بالضّبط منذ ثلاثين سنة في غرفة جلوس الكونتيسّة أوبلوموف. كنت لاأزال آنذاك شابّاً، طالباً في كلّية الآداب، نحيلاً إن كنت تصدِّق هذا، كنت نحيلاً وفاتناً، برأسي الجميل المكسوّ بالشّعر المموّج. كانت الكونتيسّة أروع امرأة في مينسك، أرملة شابّة خارقة المحاسن. وكان الكونت، وريث ثروة عائلة أوبلوموف الفاحشة، قد قُتِل في مبارزة بالسِّلاح في مسألة شرف لا حاجة بي لمناقشتها الآن. وفي مقدورك أن تتصوّر

نتائج ذلك على الرِّجال في وسطها الاجتماعي. وأصبح طلّاب يدها للزّواج أكثر من فيلق، وصالوناتها محسودة في كلّ منطقة مينسك. صورة تلك المرأة المميّزة يا صديقي وجمالها لم يغيبا عنّي قطّ. شعرها الأحمر البرّاق، صدرها الأبيض المرتفع، عيناها المشعّتان ذكاء، و. . أجل، المراوغتان والملوّحتان بالشرّ. لقد كانتا كافيتين وحدهما لكي يفقد المرء صوابه. كنّا نتنافس لكسب ودّها، كنّا نعبدها، نكتب لها الشِّعر، كنّا جميعنا مغرمين بها إلى حدّ الهذيان. ولكن كنتُ رغم كلّ ذلك أنا، بوريس ستيبانوفيتش الشّاب، مَنْ نجح في كسب رضا هذه الأمبراطورة الفريدة وحبّها. أخبرك هذا كلّه وبكلّ تواضع. لو قدّر لك أن تراني آنذاك لفهمتَ كيف أنَّ هذا كان معقولاً. كنّا نضرب مواعيد عند أطراف المدينة القصيّة فنلتقي في أوقاتٍ متأخّرة من اللَّيل، وتزورني سرًّا في عليّتي (كانت تتجوّل متنكّرة عبر الشّوارع)، بالإضافة إلى ذاك الصّيف الطّويل الجذل الّذي قضيته ضيفاً في مسكنها الرّيفيّ. ولقد أغرقتني الكونتيسّة بكرمها ـ لا بشخصها وحسب، وكان بالتّأكيد كافياً وأكثر من كافٍ! ـ. وبالهدايا الّتي كانت قد حملتها معها، وكانت اللّطافة الّتي منحتني إيّاها غير متناهية. من هداياها لي مجموعة كتب بوشكين مجلّدة بجلدٍ حقيقيّ، إناء شاي فضّي، ساعة ذهبيّة، وأشياء كثيرة أخرى لن يكون بوسعي أبداً تعدادها كلّها. وكان بين هذه الهدايا طقم رائع لتقديم الشّاي كانت تملكه فيما مضى عائلة من الأسرة الملكيّة الفرنسيّة (أظنّ أنّه كان للدوق فانتوماس)، وقد كنت أستخدمه فقط حينما كانت تزورني، مدّخراً إيّاه لتلك الأحايين الّتي كان فيها ولعها يطير بها عبر شوارع مينسك المكسوّة بالثّلج إلى ذراعيّ. وأسفاه، إنّ الوقت لقاسٍ. ولقد أصاب الطّقم قدر السِّنين، تكسّرت الصُّحَيْفات وتحطّمت

الفناجين؛ ولقد ضاع عالم بأكمله. ورغم ذاك كلّه فلقد قُدِّر لقطعةٍ واحدة أن تبقى، وهي الصلة الوحيدة بالماضي. عامله برفق يا صديقي. أنت تحمل بين يديك ذكرياتي».

كانت الخدعة تتمثّل، على ما أظنّ، في قدرته على بعث الحياة في الأشياء الجامدة. كان بوريس ستيبانوفيتش يوجّه سماسرة التّرميم بعيداً عن الأغراض نفسها، حاملاً إيّاهم بالتملّق إلى عالم لم يَعُدْ فيه الغرض المعروض للبيع إبريق الشّاي وإنّما الكونتيسّة أوبلوموف بالذّات. وما كان ليهمّ أن تكون هذه القصص حقيقيّة أو لا. إذ إنّه ما كان يُسمع صوت بوريس حتّى يتشوّش الموضوع برمّته. ولربّما كان ذاك الصّوت سلاحه الأمضى. كان لدى بوريس ضعف تجاه الجمل المبتذلة والعواطف الأدبيّة، ولكن رغم كلّ عقم لغته كانت قصصه حيويّة وجذّابة. كان بيع البضائع هو الأهمّ في نظره، ولم يكن ليتوانى عن استخدام حتّى أحقر الخدع في سبيل ذلك. بل إنّه ليذرف دموعاً حقيقيّة إذا اضطرّ إلى ذلك. وإن احتاج الأمر فإنّه كان كفيلاً بأن يحطّم الشّيء الّذي يعرضه للبيع على الأرض. وقد قام مرّة بالتّلاعب في الهواء بطقمٍ من الأكواب الهشّة المظهر أكثر من خمس دقائق لكي يثبت ثقته بصلابتها. وكثيراً ما كنت أحرج بعض الشّيء باستعراضاته هذه، ولكنّها كانت تنجح بدون أدنى ريب. وفي النّهاية فإنّ ما يحقّق القيمة هو العرض والطّلب، وكان الطّلب على القطع الأثريّة القيّمة قليلاً. فالأغنياء فقط كانوا يستطيعون شراءها، وهم جماعة السّوق السّوداء، عملاء الزبالة، وسماسرة التّرميم بالذّات ـ ولقد كان من غير الصّواب أن يصرّ بوريس على فوائد تلك التّحف. فكلّ ما في الأمر أنّها كانت كماليات، أشياء تقتنى باعتبارها رموزاً للثّراء والسّلطة.

وهذا كان الباعث لقصص الكونتيسّة أوبلوموف، ودوقات فرنسا في القرن الثّامن عشر. وحين كنت تبتاع إناءً أثرياً من بوريس ستيبانوفيتش، فإنّك لم تكن تبتاع مجرّد إناء، بل تحصل على عالم بأكمله يسايره.

كانت شقّة بوريس تقع في عمارة صغيرة في جادّة توركواز، ولا تبعد أكثر من عشر دقائق عن مبنى عائلة ووبرن. وكنّا غالباً ما نعود إلى هناك بعد الانتهاء من تجارتنا مع تجّار التّرميم لتناول كوبٍ من الشّاي. فقد كان بوريس مولعاً بالشّاي، وكان يقدّم في العادة نوعاً من الفطائر إلى جانبه. وكانت هذه الفطائر عبارة عن منتجات فضائحيّة من متجر «بيت الحلوى» القائم في جادّة ويندسور. فطائر منتفخة بالكريما وكعك بالقرفة وإصبعية بالشّوكولا. وكانت كلّ هذه الأشياء تُباع بأسعارٍ خرافيّة. ولكن بوريس لم يكن يستطيع مقاومة رغباته الضئيلة هذه. وكان يستهلكها ببطء فيمضغها مصدراً دمدمة موسيقيّة ضعيفة من حلقه، وكان ذاك الصّوت متواصلاً خافتاً يُراوح بين الضّحك والتّنهّدة المديدة. وكنت أنا أستمتع بجلسات الشّاي كذلك، بيد أنَّ استمتاعي بإصرار بوريس على مشاركته إيّاها كان أشدّ منه بالطّعام بالذّات. وكان يردِّد: «إنَّ صديقتي الأرملة الصّغيرة ضعيفة جدّاً. وينبغي أن نضع بعض اللّحم على عظامها، ونعيد التورّد إلى خدّيها، التورُّد إلى عينيّ الأنسة آنا بلوم نفسها». وكان من الصّعب عليّ عدم الاستمتاع بعلاجٍ كهذا، وكنت أشعر في بعض الأحايين بأنَّ كلّ حماسة بوريس الشّديدة لم تكن أكثر من تمثيليّة كان يلعبها من أجلي. كان يلعب واحداً بعد الآخر أدوار المهرِّج، النّذل، الفيلسوف، ولكنّني وأنا أتعرّف إليه أكثر وأكثر، كنت أرى جيّداً أنَّها كلّها وجوه لشخصيّة وحيدة كانت ترصف مختلف عتادها في محاولة

لإعادتي إلى الحياة. وغدونا صديقين عزيزيْن، وأنا مدينة لبوريس بعطفه عليَّ، ولهجومه العنيد والمراوغ الّذي كان قد شنّه على استحكامات حزني.

كانت الشقّة مكاناً بالياً مؤلّفاً من ثلاث غرف مملوءة بركام سنواتٍ من الثِّياب والحقائب والملاءات والسجّاد وكلّ أنواع تحف الزِّينة. وكان بوريس ينسحب فور عودته إلى المنزل إلى غرفته ليخلع بذلته ويعلّقها بعناية في الخزانة، ثمّ يرتدي بنطالاً عتيقاً وخُفّاً، بالإضافة إلى برنس حمّام. وهذا الأخير كان في الحقيقة تذكاراً رائعاً من الأيّام الغابرة. كان ملفّقاً بأكمله ومصنوعاً من المخمل الأحمر. وله قبّة وأكمام من فرو الفاقم. وقد أصبح الآن مهترئاً تماماً، وفيه ثقوب عثّ على الأكمام. ولكنّ بوريس كان يرتديه مع خوذته الرِّيشيّة الموصى عليها. وبعدها كان يملّس خصلات شعره الرّفيع إلى الخلف، ويمسح عنقه بالعطر، ثمَّ يدخل بخطى واسعة غرفةَ الجلوس المغبّرة الضيِّقة لإعداد الشّاي.

كان يبهجني في معظم الوقت راوياً لي قصصاً من حياته، ولكن كنّا في أوقات أخرى ننظر إلى أشياء مختلفة في الغرفة ونتحدّث عنها، وعلى سبيل المثال صناديق الفرجة، الكنوز الصّغيرة العجيبة، حطام آلاف رحلات البيع والشّراء. وكان بوريس فخوراً بشكلٍ خاصّ بمجموعته من القبّعات، وكان يحفظها في صندوقٍ خشبيٍّ قربٍ النّافذة. ولست أعرف كم كان يمتلك منها هناك في الدّاخل، ولكني أعتقد أنّها كانت حوالي دزِّينتين أو ثلاث، وربّما أكثر. وأحياناً ينتشل اثنتين منها لنعتمرهما ونحن نحتسي الشّاي. وكانت هذه اللّعبة تسلّيه كثيراً، وأعترف أنِّي استمتعت بها أنا أيضاً، رغم أنّه يصعب عليّ

تفسير ذلك. كان ثمّة قبّعات لرعاة البقر ولسباقات الخيل وطرابيش وخوذات وقلنسوات جامعيّة وبيريات - كلّ أنواع القبّعات الّتي تستطيع تخيُّلها. وكلّما كنت أسأل بوريس عن السّبب الّذي يدعوه إلى جمعها كان يعطيني جواباً مختلفاً. قال مرّة إنّ اعتمار القبّعات كان جزءاً من ديانته. ومرّة أخرى راح يشرح لي أنّ كلّ واحدة من قبّعاته كانت لأحد أقربائه، وأنّه كان يعتمرها كي يتواصل مع أرواح أجداده الأموات. فباعتماره إحدى القبّعات كان يكتسب ميزات مالكها السّابق الرّوحيّة، هكذا فسّر لي الأمر، ولكنّي اعتبرت أنّها إسقاطات لمشاعره الشّخصيّة تجاه القبّعات بحدّ ذاتها، أكثر من كونها تمثّل أشخاصاً عاشوا بالفعل. لقد كان الطّربوش على سبيل المثال العمّ عبد الله. وقبّعة سباق الخيل كانت «السير شارلز». والقلنسوة الجامعيّة البروفيسور سولومون. إلّا أنّه في مناسبة أخرى، حين طرحت المسألة مجدّداً، شرح لي بوريس قائلاً إنّه يحبّ القبّعات لأنّها كانت تحفظ له أفكاره وتمنعها من الطّيران من رأسه. ولو أنّنا اعتمرناها كلانا ونحن نحتسي الشّاي فسوف نستطيع بالتّأكيد أن نتحادث بذكاء ومزيد من الإثارة. «إنّ القبّعة تؤثّر على الدِّماغ». ردّد هذا بالفرنسيّة وتابع: «وإذا حمينا الرّأس لم تَعُدْ أفكارنا غبيّة على الإطلاق».

حدث مرّة وحيدة أن بدا بوريس وكأنّه أسقط كلّ دفاعاته، ولقد كان هذا هو الحديث الّذي أذكره أكثر من أيّ حديثٍ آخر. الحديث الّذي يحتلّ الآن أكثر المواقع حيويّة في داخلي. كان المطر يهطل بعد تلك الظّهيرة، والنّهار قاتماً بليلاً، وتوانيت أكثر من المعتاد كارهةً مغادرة دفء الشقّة والعودة إلى عيادة ووبرن. وكان بوريس في حالة نفسيّة تأمليّة غريبة، وكنت قد قمت في الجزء الأكبر من وقت الزِّيارة

بالقسم الأكبر من الكلام. وإذ استجمعت في النِّهاية الشّجاعة لارتداء معطفي وإلقاء تحيّة الوداع (أذكر رائحة القطن العفن، وانعكاسات الشّموع على النّافذة، والدّاخل الأشبه بالكهف لحظتذاك)، مدّ بوريس ذراعه وأمسك يدي ضاغطاً عليها بيده، وتطلّع إليّ بابتسامة متجهّمة، مبهمة.

قال: «يجب أن تفهمي أنّ كلّ هذا مجرّد وهم».
«لست متأكِّدة من أنِّني أعرف ما تعنيه يا بوريس».
«مأوى ووبرن. إنّه مبنيٌّ على أساس من الضّباب».

«إنّه يبدو لي متيناً. أنا هناك يوميّاً، كما تعرف، والبناء لم يتحرّك قط، بل إنَّه لم يرتعش البتّة».
«أجل، في الوقت الحاضر. ولكن أعطيه بعض الوقت، وسترين بعدها ما الّذي أقصده».
«كم يبلغ طول «بعض الوقت» هذا؟»

«الوقت الّذي ينبغي له. في وسع غرف الطّابق الخامس أن تدعمه لوقت معيّن فقط، أنت تفهمينني، وعاجلاً أو آجلاً لن يتبقّى أيّ شيء للبيع. بل إنَّ المخزون قد تضاءل الآن. وما من عودة لأيّ غرضٍ ذهب».
«أوَهذا مريع إلى هذه الدّرجة؟ كلُّ شيء ينتهي يا بوريس. لست أرى سبباً لأن يكون مصير المأوى مختلفاً».
«سهلٌ عليكِ قول هذا. ولكن ماذا بشأن المسكينة ڤيكتوريا؟»
«ڤيكتوريا ليست غبيّة. أنا واثقة من أنّه خطرت لها كلّ هذه الأمور».

«ڤيكتوريا عنيدة أيضاً. إنّها سوف تقاوم حتّى آخر غلوطة، وبعد

ذاك لن تكون في حالٍ أفضل من حال النّاس الّذين كانت تحاول مساعدتهم».
«أليست هذه مشكلتها هي؟»
«أجل ولا. لقد كنت وعدت أباها بأن أعتني بها، ولن أنكث بوعدي. لو أنّك استطعت فقط رؤيتها حين كانت فتيّة منذ سنوات، قبل الانهيار. كانت جميلة للغاية، ومفعمة بالحياة. وإنّه ليعذّبني مجرّد التّفكير في أنّ شيئاً ما قد يحصل لها».
«إنّك تفاجئني يا بوريس. تبدو عاطفيّاً بكلّ ما في الكلمة من معنى».
«أخشى أن نكون جميعنا نتكلّم لغتنا الخاصّة بالأشباح. لقد قرأت الكتابات اليدويّة على الجدران، ولا يشجّعني أيّ واحد منها. سوف تنفد كلّ أموال مأوى ووبرن. ولكن لديّ بالتّأكيد مصادر إضافيّة في هذه الشقّة.» وهنا قام بوريس بحركة من ذراعه شملت كلّ أغراض الغرفة، «ولكن هذه أيضاً ستضيع بسرعة. إن لم نشرع بالتطلّع إلى الأمام فلا مستقبل لأيٍّ منّا».
«ما الذي تحاول قوله؟»
«أن نخطّط. أن ننظر إلى الاحتمالات ونتصرّف».
«وهل تتوقّع أن توافقك ڤيكتوريا على هذا؟»
«ليس بالضّرورة. ولكن لديّ أنتِ إلى جانبي. هناك فرصة على الأقلّ».
«وما الّذي يجعلك تظنّ أنّه بإمكاني التّأثير عليها؟»
«عيناي اللتّان في رأسي. إنّي أرى ما يجري هناك يا آنا. إنّ ڤيكتوريا لم تتجاوب قطّ مع أحد، كما تتجاوب معك. إنّها متيّمة بك حتّى العظم».

«إنّنا صديقتان فقط».

«هناك أكثر من هذا في المسألة يا عزيزتي. أكثر بكثير جدّاً».

«لست أفهم ما تقصده؟»

«سوف تفهمين. سوف تفهمين عاجلاً أو آجلاً كلّ كلمة قلتها لك. إنّي أكفل لك هذا».

كان بوريس محقّاً. لقد فهمت آخر الأمر. وحدثت في النّهاية كلّ الأمور الّتي كانت على شفير الحدوث. إلاّ أنّه لزِم وقت طويل لأُدرك ذلك. والحقّ أنّي لم أنتبه إليها إلاّ حين صفعتني ـ وقد يُتسامَحُ في هذا نظراً لأنّي أكثر من عاش جهالةً.

اسمعني جيّداً. أعرف أنّي بدأت أتلعثم هنا، لكنّ الكلمات ليست جاهزة للتلفّظ بما أودّ تبيانه، إنّها تمانع. وينبغي أن تحاول تخيّل كيف كانت الأمور تجري بالنّسبة إلينا هنالك في الماضي، كيف كان الشّعور بالهلاك جاثماً فوقنا، وهواء اللاّواقع محوِّماً كلّ لحظة. إنّ السحاقيّة مجرّد مصطلح تحليلي طبّي، ولا ينصف أبداً الوقائع. لم نصبح فيكتوريا وأنا صديقتين بالمفهوم الاعتيادي للكلمة. لقد غدت كل منّا، بتفسير أصحّ، ملجأ للأخرى، المكان الّذي يمكن أن تقصده كلتانا طلباً للرّاحة والعزلة. ولقد كان الجنس على المدى الطويل الجزء الأقلّ أهميّة. إ الجسد مجرّد جسد في النّهاية، ويكاد يغدو مهمّاً إذا كانت اليد الّتي تمسّك تخصّ رجلاً أو امرأة. لقد أبهجتني صحبتي لفيكتوريا ووهبتني فوق ذلك الشّجاعة لأعيش في الواقع مجدّداً. وكان هذا هو الأهمّ في الموضوع. فما عدت أسترجع الماضي طوال الوقت، وشيئاً فشيئاً بدا وكأنّه يعالج الجراح غير المعدودة الّتي حملتها في داخلي. ولم أتماسك كلّياً من جديد، غير أنّي على الأقلّ ما عدت أكره حياتي. أغرمت بي امرأة، ثمّ اكتشفت أنّي كنت قادرة على عشقها.

ولست أسألك تفهُّم هذا، بل أن تقبله فقط كمجرّد واقع. أنـا نادمـة على أشياء كثيرة في حياتي. لكن هذا ليس أحدها.

بدأ الأمر مع نهاية الصّيف، بعد ثلاثـة أو أربعة أشهـر من وصولي إلى مأوى ووبرن. وكانت ڤيكتوريا قد جـاءت إلى غرفتي كـالعادة من أجل دردشاتنا اللّيليّة المتأخّرة، وأذكـر أنّي كنت، بالإضـافة إلى ألم في ظهري، منهكة، ومكتئبـة أكثر من المعتـاد. وجعلت تفركُ عضـلاتي، وهي تقـوم بالتصرّف الأخـوي نفسـه الّـذي كـان ليفعله أيّ كـان في وضع مماثل. إلاّ أنّ أحداً لم يكن قد لمسني منذ أشهـر، أي منذ اللّيلة الأخيرة الّتي قضيتها مع سام، وكنت قد نسيت تقريباً كم كان مبهجـاً أن أُدَلَّـك بتلك الطّريقـة. وتابعت تنقّـل يديهـا طلوعـاً ونـزولاً فـوق عمودي الفقري، وكانت في الواقع قد دسّتهـما تحت قميصي القطنيّ، واضعة أصابعهـا فوق جلدي العـاري. كان أمـراً بديعـاً أن يُفعل بي ذلـك، وسرعان مـا بدأت أطفـو حبوراً، شـاعرة وكـأنّ جسمي على وشك الانفساخ. ولا أظنّ أنّ أيّاً منّا كانت تدرك حتّى ذلك الوقت ما كان سيحدث. كانت عمليّة بطيئة، ولقد تسكّعت من مرحلة لمـرحلة من غير هدفٍ ذهنيٍّ واضـح. وعند نقـطةٍ ما انـزلقت الملاءة من عـلى سـاقيّ، ولم أزعج نفسي بـاستردادهـا. وانجرفت يـدا ڤيكتوريـا فوق جسمي أكـثر فأكـثر، لتشملا سـاقيّ وردفيّ، ولتجولا أيضـاً نزولاً إلى خصري، وطلوعاً فوق كتفيّ، وفي النّهاية لم يكن هناك أيّ موضع في جسمي لم أكن أودّ أن تلامسه. وانقلبت على ظهري وكانت ڤيكتوريا منحنية فوقي، عارية تحت برنس الحمّام، وكان أحد ثدييها متـدلّياً من فتحتـه المشرعة. قلت لهـا «أنت جميلة للغايـة، وأعتقـد أنّي أرغب في المـوت». واعتدلت قليـلاً وبدأت أقبّـل ثديهـا، ذاك النّهـد المستـديـر البديع الّذي كان أكـبر بكثير من نهدي، أقبّـل هالتـه النّاعمـة البنّية،

ممرّغة لساني فوق خطوط الشّرايين الزّرقاء المتعارضة الّتي كانت منفلشة تماماً تحت البشرة. كان شعوري إذّاك مخيفاً صادماً، وللحظة أو اللّحظتين الأوّليّين أحسستني منجرفة باضطراب داخل رغبة يمكن أن توجد فقط في عتمة الأحلام. بيد أنّ ذاك الشّعور لم يدم طويلاً، إذ إنّي أطلقت بعدها العنان كلّياً، وانجرفت فيها بشكل كامل.

تابعنا النّوم معاً طوال الأشهر القليلة التّالية، وفي النّهاية بدأت أشعر بأنّي في دياري هناك. كانت طبيعة العمل في مأوى ووبرن موهنة للمعنويّات إلى أقصى الحدود في غياب شخص تعتمد عليه، ومن دون مكان ثابت تلقي فيه مرساة مشاعرك. أناس كثر جاءوا وغادروا، حيوات كثيرة توشّعت قربك، وما تكاد تتعرّف جيّداً إلى أحدهم حتّى يكون قد وضّب أغراضه مغادراً. ثمّ كان يأتي واحد آخر فينام في المخدع الّذي شغله ذات مرّة شخص آخر، ويجلس على الكرسيّ عينه، ويمشي على بقعة الأرض ذاتها، ثمّ يحين موعد رحيل ذلك الشّخص أيضاً، وتتكرّر العمليّة من جديد. وفي مواجهة هذا كلّه كنّا أنا وفيكتوريا هناك وإحدانا للأخرى في السرّاء والضرّاء، كما كنّا نردّد، وكانت تلك القناعة الوحيدة الّتي لم تتبدّل، على الرّغم من التغييرات الّتي جرت حولنا. وبسبب هذا الميثاق، كنت قادرة أن أسترضي نفسي مع عملي، وكان لذلك بدوره أيضاً تأثير مسكّن لمعنويّاتي. ثمّ حدثت أمور أخرى، ولم يعد في الإمكان أن نستمرّ كما كنّا. وسوف أتحدّث عن هذا بعد قليل، ولكنّ الشيء المهمّ كان أن أيّ شيء لم يتغيّر فعلياً. كان الميثاق لايزال ثابتاً، وأدركت لمرّةٍ وبشكلٍ نهائيّ أن فيكتوريا كانت شخصاً عظيم التميّز.

كان الوقت أواسط كانون الأوّل، وبالضّبط قرابة اندلاع أوّل صقيع. ولم يكن الشّتاء قاسياً كسابقه، غير أنّه ما كان في وسع أحد

أن يحزر ذلك مسبّقاً. وحمل البرد كلّ ذكريات السّنة الماضية المريرة، وكان بمقدورك حدس الذّعر المتصاعد في الشّوارع، واليأس في أنفس النّاس وهم يحاولون الاستعداد لمواجهة الهجوم الضّاري. وأمست الصّفوف أمام مأوى ووبرن أطول من أيّ وقت خلال الأشهر الكثيرة الفائتة، ووجدتني أعمل ساعات إضافيّة لأحاول فقط استيعاب التدفّق. وأذكر أنّي في الصّباح الّذي أتكلّم عنه قابلت عشرة أشخاص أو أحد عشر شخصاً في توالٍ سريع، ومع كلّ منهم قصّته الرّهيبة ورغبته في إخبارها. وكانت تدعى ميليسا رايلي، وهي امرأة في حوالي الستّين من العمر، شديدة الاضطراب إلى حدّ أنّها انهارت باكية أمامي، وتشبّثت بيدي وراحت تسألني أن أساعدها على إيجاد زوجها المفقود الّذي كان قد خرج متجوّلاً في حزيران ولم يسمع عنه مذّاك. ماذا تتوقّعين منّي أن أفعل؟ سألتها. لا أستطيع أن أترك وظيفتي وأخرج متسكّعة عبر الشّوارع برفقتك، يتوجّب علينا القيام بالكثير من العمل هنا. غير أنّ ثورة اهتياجها العاطفيّ لم تتوقّف، ووجدتني أستشيط غضباً منها لشدّة إلحاحها. قلت: اسمعي لستِ المرأة الوحيدة الّتي فقدت زوجها في هذه المدينة. لقد اختفى زوجي أنا أيضاً مذ غاب زوجك، وكلّ ما أعرفه أنّه ميّت، كما هو وضع زوجك. فهل ترينني أبكي وأشدّ شعري؟ علينا أن نواجه ونتحمّل هذا الأمر. لعنت نفسي لتفوّهي بتلك الأشياء المبتذلة، ولمعاملتها بذلك العنف الشّديد. ولكنّها كانت تمنعني من التّفكير بفيض لغوها الهستيريّ وغير المفهوم عن السيّد رايلي وأولادهما، ورحلة شهر العسل الّتي كانا قد قاما بها قبل سبع وثلاثين سنة. وقالت لي أخيراً: لا آبه لكِ. إنّ عاهرة باردة القلب مثلك لا تستحقّ أن يكون لها زوج، ويمكنك أن تأخذي مأواك هذا الجميل وتحشريه بين عينيك. فلو

استطاع الطّبيب الطيِّب أن يسمعك تتكلّمين، لتقلّب في قبره. كان ما قالته أشياء كهذه مع أنيِّ ما عدت أذكر بالتّمام كلماتها. ثمَّ نهضت السيِّدة رايلي وغادرت مُطلقةً آخر تهديدات نوبة سخطها العارم. وإذ غادرت فقد ألقيت برأسي على طاولة المكتب وأغلقت عينيّ متسائلة عمّا إذا لم أكن أكثر إنهاكاً من أن أستطيع مقابلة أناس آخرين ذاك النّهار. فلقد كانت المقابلة كارثة، وكنت قد أخطأت في إفلات عنان مشاعري الخاصّة. ولم يكن من عذرٍ لي في ذلك، ولا ما يبرّر إسقاطي مشاكلي الخاصّة على تلك المرأة المسكينة الّتي كان واضحاً أنّها نصف مجنونة من حزنها. ولا بدَّ أنيِّ غفوت تماماً بعدئذٍ، ربّما لخمس دقائق، وربّما للحظة أو اثنتين، لست متأكِّدة. كلّ ما أعرفه أنّه بدا وكأنّ مسافة غير متناهية امتدَّت بين تلك اللّحظة والّتي تلتها، بين اللّحظة الّتي أغلقت فيها عينيّ والّتي فتحتهما فيها من جديد. ورفعت بصري فإذا سام قاعد على الكرسيّ قبالتي من أجل المقابلة التّالية.
وخطر لي للوهلة الأولى أنيِّ كنت لاأزال نائمة. وردّدت لنفسي أنّ هذا مُختلقٌ، وأنَّه نتيجة أحد تلك الأحلام الّتي تتصوّر فيها نفسك مستيقظاً، بيد أنّها لا تكون غير جزء من الحلم. ثمّ قلت لنفسي، سام، وأدركت فوراً أنَّه لا يمكن أن يكون أيّ شخص آخر. لقد كان هذا سام، ولكنَّه لم يكن أيضاً سام. كان سام إنَّما في جسد آخر، بشعر مكلّل بالشّيب وبقايا جروح إلى جانب وجهه. وكانت أصابعه سوداء مشقّقة، وملابسه ممزّقة كلّياً. وقعد وفي عينيه نظرة ميِّتة كاملة الذُّهول، كانتا وكأنّهما منجرفتان إلى داخله، وبدا لي ضائعاً تماماً. ولقد رأيت كلّ شيء على عَجَل، بلمحة بصر، برفّة جفن. كان هذا سام، ولكنّه لم يتعرّف إليّ، لم يعرف من أكون. وأحسست قلبي يطرق بعنف ولوهلة راودني شعور بأنَّه سيغمى عليّ. وبعدها ترقرقت

بشكل بطيء جدّاً دمعتان فوق خدّي سام. وكان يعضّ شفته السّفلى، وكان ذقنه يرتجف بجنون. وفجأة بدأ كلّ جسمه يرتجف، وتدفّق الهواء من فمه، ومعه النّشيج الّذي كان قد جهد ليكبته في داخله. وأزاح وجهه عنّي، وهو مايزال يحاول ضبط نفسه، إلاّ أنّ التشنّجات ظلّت تنخع جسمه، والصريف اللاّهت يخرج منبجساً من بين شفتيه المغلقتين. ونهضت من على كرسيّي، وتقدّمت مترنّحة إلى الجهة المقابلة من الطّاولة، وحضنته بذراعيّ. وعندما مسسته سمعت خشخشة الصّحف المتجعّدة داخل معطفه. وبعد لحظة بدأت أبكي، وما كان في وسعي أن أتوقّف بعدها. وتمسّكت به بأقصى ما أوتيت من قوّة، غارزة رأسي في طيّات معطفه، وما كنت أجد سبيلاً للتوقّف.

كان ذلك منذ أكثر من سنة. ومضت أسابيع قبل أن تحسّنت حالة سام إلى درجة تمكّنه من رواية ما جرى له، ولكنّها كانت حتّى ذلك الحين مشوّشة ومليئة بالفجوات وغير مترابطة. قال إنّها جرت وكأنّما دفعة واحدة، وأنّه يجد مشقّة في تمييز ملامح الأحداث، وأنّه غير قادر على فضّ تشابك تلك الأيّام، الواحد من الآخر. واستطاع أن يذكر أنّه انتظر عودتي جالساً في الغرفة حتّى السّادسة أو السّابعة من الصّباح التّالي، ومن ثمّ خروجه في النّهاية للبحث عنّي. كان الوقت ما بعد منتصف اللّيل حين عاد، وفي ذلك الوقت كانت المكتبة قد أمست لهباً. ووقف بين الحشود الّتي كانت قد تجمّعت لمشاهدة الحريق، وبعدئذٍ، حين انهار السّقف في النّهاية، رأى احتراق كتابنا مع كلّ ما هنالك في البناء. وقال إنّه استطاع فعلاً مشاهدة ذلك في ذهنه، وأنّه عرف حقّاً، وبدقّة، اللّحظة الّتي اقتحمت فيها النّيران غرفتنا والتهمت صفحات المخطوطة.

وفَقَد بعد ذاك تفاصيل كلّ شيء. كان يحمل المال في جيبه، والملابس على ظهره، وكان ذلك كلّ ما هنالك. وطوال شهرين لم يفعل غير البحث عنّي، كان ينام حيثما يقدّر له، ويأكل فقط آن لا يعود لديه أيّ خيار. وبهذه الطّريقة استطاع الاستمرار، ولكن مع نهاية الصّيف كانت دراهمه قد نفدت تقريباً. والأسوأ من ذلك، كما قال، هو أنّه تخلّى في النّهاية عن التّفتيش عنّي. فقد كان مقتنعاً بأنّني متّ، وأنّه ما عاد يحتمل تعذيب نفسه معلّلاً إيّاها بأمل مغلوط. وارتدّ إلى ركنٍ عند آخر محطّة في ديوجينز ترمينال، وهي محطّة قديمة للقطار في القسم الشمالي الغربي من المدينة، وعاش بين المنبوذين والمجانين، ناس الظلّ الّذين كانوا يهيمون في الأروقة الطّويلة، وغرف الانتظار المهجورة. وقال: كان الأمر وكأنّني تحوّلت إلى حيوان، إلى مخلوق سفليّ رقد في سبات شتويّ. ومرّة أو مرّتين في الأسبوع كان يعمل أجيراً عتّالاً لنقل حمولاتٍ ثقيلة للزبّالين، مقابل أجرٍ زهيد، غير أنّه لم يكن يفعل شيئاً معظم الوقت، رافضاً أن يحرّك ساكناً ما لم يكن مجبراً، على نحوٍ قاطع، على القيام بذلك. قال: «تخلّيت عن سعيي لأن أكون أحداً. كان هدف حياتي انتشال نفسي من محيطي. وأن أعيش في مكان لا يؤذيني فيه شيء بعدها. وحاولت أن أهجر ارتباطاتي الواحد بعد الآخر، وأن أهملٍ الأمور الّتي كنت أهتمّ بها. وكانت الفكرة الأساسيّة هي أن أحقّق وأدرك حالة اللّامبالاة. لامبالاة جبّارة خارقة كان من الممكن أن تحميني من التعرّض لأيّ اعتداء في المستقبل. وقلت وداعاً لكِ يا آنا، وقلت وداعاً للكتاب، ووداعاً لفكرة العودة إلى الدِّيار. حتّى إنّي حاولت أن أقول وداعاً لذاتي. ورويداً صرت ساكناً كبوذا، جالساً في ركني، غير آبه للعالم من حولي. ولو لم يكن لجسمي متطلّبات معدتي وأمعائي الحينيّة لما

كنت تحرّكت من جديد أبداً. وتابعت أردِّد لنفسي، ينبغي أن لا أرغب في أيّ شيء، أن لا أمتلك أيّ شيء، أن لا أكون شيئاً. وما كان في وسعي تصوّر حلٍّ أكثر مثاليّة من ذلك. وفي النِّهاية قاربت أن أعيش حياة صخرة».

أعطينا سام الغرفة الّتي في الطّابق الثّاني والّتي كنت قد سكنت فيها ذات مرّة. ولقد كان في حالة مزرية، بل إنّه طوال الأيّام العشرة الأولى كانت حاله بمنتهى الخطورة. وأمضيت معظم وقتي تقريباً برفقته، مهملة كلّ واجباتي الأخرى، ولم تعترض ڤيكتوريا. وكان هذا ما وجدته استثنائيّاً فيها. لا لمجرّد أنّها لم تعترض، بل لأنَّها جعلت تشجعّني على القيام بذلك. وكان في تفهّمها للوضع ما هو خارق للطّبيعة، وكذلك في قدرتها على استيعاب النِّهاية المباغتة، بل العنيفة تقريباً، للطّريقة الّتي كنّا نحيا بها. ولم أتوقّف أنا عن توقّع أن تسعى بطريقة أو بأخرى لمكاشفتي بالأمر، أو أن تنفجر في نوبة غيرة، أو خيبة أمل، إلَّا أنَّه لم يحدث شيء من هذا القبيل. وأوّل ردّة فعل لها تجاه الخبر كان الابتهاج، فَرِحَت من أجلي، وفرحت لكون سام لايزال حيًّا، وعملت بعدئذ مثلي جاهدة من أجل أن يتماثل للشِّفاء. ولقد مُنِيَتْ بخسارةٍ شخصيّةٍ ولكنّها أدركت أيضاً أنَّ وجوده هناك كان بمثابة مكسب لمأوى ووبرن. كانت مجرّد فكرة وجود رجل آخر في الفريق، وخصوصاً واحد كسام لم يكن عجوزاً كفريك ولا بليد الذِّهن معدم التّجربة كويلي، كانت هذه الفكرة وحدها كافية لتوازن كفّة الميزان بالنِّسبة إليها. ولقد وجدت تلك الأحاديّة في تفكيرها مخيفة بمعنىً ما، غير أنّ شيئاً لم يكن أشد أهميّة عند ڤيكتوريا من مأوى ووبرن ـ لا أنا، ولا حتّى هي نفسها، إن كان يمكن تخيّل شيء من هذا القبيل. ولا أودّ أن أبالغ كثيراً بالتّبسيط، غير أنَّه مع مضيّ

الزّمن كان يخالجني شعورٌ بأنّها سمحت لي بالوقوع في غرامها من أجل أن أشفى ويتحسّن حالي. وبما إنّي غدوت الآن بحالٍ أفضل، فقد وجّهت انتباهها كلّه صوب سام. كان مأوى ووبرن، كما ترى، حقيقتَها الوحيدة، وفي النِّهاية ما كانت كلّ الأمور إلّا لتُفضي إليه.

انتقل سام في النِّهاية إلى الأعلى ليسكن معي في الطّابق الرّابع. وأخذ يستعيد وزنه ببطء، وببطء عادَ يشبه الشّخص الّذي كانه مرّة، ولكن كان مستحيلاً أن يعود كلّ شيء كما كان بالنِّسبة إليه، لا الآن ولا في أيّ وقت. ولست أتحدّث فقط عن ضروب المحن الّتي حلّت بجسده، كشعره الّذي شاب قبل الأوان، وأسنانه المفقودة، وارتعاش يديه الضّئيل وإن متواصلاً، بل أتحدّث كذلك عن الأضرار الدّاخلية. فلم يعد سام ذاك الشّاب المتعجرف الّذي كنت قد عشت معه في المكتبة. كانت قد غيّرته تجاربه، وجعلته متواضعاً تقريباً، وكان في سلوكه الآن إيقاع أكثر رقّة، وأشدّ هدوءاً. وكان يتحدّث بين الأحايين عن الشّروع مجدّداً في كتاب جديد، غير أنّه كان بإمكاني أن أدرك أنّه لم يكن متحمِّساً لذلك. فلم يعد الكتاب عبارة عن حلّ بالنِّسبة إليه، ومذ فقد ذاك الولع، بدا أكثر قدرة على إدراك الأمور الّتي حدثت له، والّتي كانت تحدث لكلٍّ منّا. ولقد استعاد قوّته، وتآلفنا من جديد شيئاً فشيئاً، غير أنّه بدا لي أنّ علاقتنا كانت الآن أكثر توازناً ممّا كانت عليه في السّابق. وقد أكون أنا تغيّرت أيضاً خلال تلك الأشهر، ولكنّي شعرتُ في الواقع بأنّ سام محتاجٌ إليَّ أكثر ممّا كان في الماضي، وأحببتُ شعوري ذاك بأنّ الحاجة إلى عوني كانت عظيمة، أحببت ذلك أكثر من أيّ شيءٍ في العالم.

بدأ يعمل حوالي بداية شهر شباط. وفي البدء كنت معارضة كلّياً للوظيفة الّتي عهدت بها ڤيكتوريا إليه. فقد قالت إنّها فكّرت مليّاً

بالمسألة وأنّها انتهت إلى قناعة بأنّه يمكن لسام أن يقدِّم خير عون لمأوى ووبرن بأن يصبح الطّبيب الجديد. وتابعت تقول: «قد تجدين هذه الفكرة غريبة، ولكنّنا نتخبّط مرتبكين منذ وفاة والدي، ولم يعد هناك من تماسك في المكان، ولا أيّ حسّ بالغرض منه. فنحن نقدِّم للنّاس الطّعام والملجأ لفترةٍ وجيزة، وهذا كلّ ما هنالك، مجرّد حدّ أدنى من العون لا يكاد يسعف أحداً. ففي الماضي كان النّاس يأتون لأنّهم كانوا يرغبون في المكوث إلى جانب والدي. وحتّى حين كان يعجز عن تقديم العون إليهم كطبيب كان هناك للتحدّث معهم، والاستماع إلى مشاكلهم. وكان ذلك هو المهمّ في الأمر. كان يرفع معنويات النّاس بمجرّد أن يكون ذاتَه. لقد كان النّاس يُعْطَون طعاماً، ويُعْطَوْن كذلك أملاً. ولو كان لدينا طبيب آخر هنا الآن لاستطعنا الاقتراب أكثر ـ على ما أظنّ ـ من الروحيّة الّتي كانت ذات يوم لهذا المكان.

قلت: «لكن سام ليس طبيباً. ستكون كذبة، ولا أرى كيف ستستطيعين مساعدة النّاس إذا كان أوّل ما تفعلين هو الكذب عليهم».

أجابت ڤيكتوريا: «هذا ليس كذباً. هذا سلوك تنكّري، يكذب المرء لأسباب أنانيّة، ولكن ما من استفادة شخصيّة لنا في هذا. إنّه بالنِّسبة إلى النّاس الآخرين سبيل لإعطائهم الأمل. وماداموا سيعتقدون أنّ سام طبيب، فإنّهم سيصدِّقون ويؤمنون بما سيقوله».

«ولكن ماذا لو اكتشف أحد الحقيقة؟ سوف ينتهي أمرنا حينئذٍ. لن يثق بنا أحد بعدها ـ حتى ونحن نقول الحقيقة».

«لن يكتشف أحدٌ ذلك. لن يفضح سام نفسه، لأنّه لن يمارس الطبّ. وحتّى لو رغب في ذلك فإنّه لم يَعُدْ هناك أدوية يمارسه

بواسطتها. فكلّ ما لدينا هو قنّينتا أسبرين، وصندوق ضمادات. ولا يعني مجرّد تسميته نفسه الدّكتور فار أنّه سيقوم بما يقوم به الطّبيب. لسوف يتحدّث، ويستمع إليه النّاس. وهذا كلّ ما في الأمر. إنّها طريقة لإعطاء النّاس فرصة للعثور على طاقتهم بالذّات».

«وماذا إن لم يستطع سام تحقيق ذلك؟»

«يكون عندها غير قادر على أداء الدّور. إلاّ أنّنا لن نعرف ذلك ما لم يحاول، أليس كذلك؟»

في النّهاية قَبِلَ سام القيام بذلك. قال: «إنّها مسألة ما كنت لأفكّر فيها بمفردي، وما كنت لأفعل حتّى لو عشت مئة سنة إضافيّة. إنّ آنا تجد المسألة مسخرة مهنيّة، وأنا أجدها محقّة على المدى البعيد. ولكن من ذا يعرف ما إذا لم تكن الوقائع هي نفسها مثيرة للسخرية أيضاً وبقدرٍ مماثل. إنّ النّاس يموتون هناك في الخارج وسواء قدّمنا لهم صحناً من الحساء أو أنقذنا أرواحهم فإنّهم سيموتون على كلّ حال. ولست أجد أيّ وسيلة لتحاشي ذلك. وإذا كانت ڤيكتوريا تعتقد أنّ وجود طبيب مزيّف يحدّثهم سوف يسهّل عليهم الأمور، فمن أنا لأقول إنّ هذا خطأ؟. أشكّ في فاعلية هذا، غير أنّي لا أجد فيه أيّ ضرر. إنّها محاولة للقيام بشيء ما، وأنا مستعدٌّ للمضيّ قدماً فيه لأجل ذلك».

لم ألُمْ سام على قبوله الوظيفة، غير أنّي بقيت غاضبة من ڤيكتوريا بعض الوقت. فلقد صدمني أن أراها تبرّر تعصّبها بالحجج المناسبة والمتقنة بشأن الصّواب والخطأ. ومهما شئت أن تسمّي ذلك ـ كذبة أو تنكّراً أو وسيلة تبرّرها الغاية ـ فإنّه في نظري خيانة لمبادئ والدها. وكان قد راودني ما يكفي من ارتيابات بشأن مأوى ووبرن قبل ذلك، وإن كان من شيء ساعدني على تقبّل المكان بشكلٍ أو بآخر فهو

ڤيكتوريا نفسها. استقامتها وصراحتها ووضوح أهدافها والصّرامة الأخلاقيّة الّتي وجدتُها عندها ـ هذه الصّفات كانت بمثابة مثالٍ لي، وقد وهبتني الطّاقة على الاستمرار. والآن بدا فجأة وكأنَّ هناك عالماً ظلاميّاً في داخلها لم أكن قد لاحظته من قبل. كان ذلك بمثابة خيبة أمل، هذا ما أعتقده، فقد امتعضت منها بالفعل في وقتٍ من الأوقات، ونفّرني أنّها ظهرت عظيمة الشّبه بالجميع. ولكن حين بدأت أفهم الوضع بمزيدٍ من الوضوحِ لم يلبث غضبي أن اضمحلّ. لقد استطاعت ڤيكتوريا أن تخفي عني الحقيقة، غير أنَّ الواقع كان أن مأوى آل ووبرن على حافّة الانهيار. ولم تكن مسألة التنكّر بمساعدة سام أكثر من محاولة للتّخفيف من الكارثة المُحْدِقة، مقطعٍ ختاميّ صغير وشاذّ من معزوفة انتهت. كان كلّ شيءٍ قد انتهى. وكان كلّ ما في الأمر أنّني لم أكن قد عرفت بعد.

من سخريّة القدر أنَّ سام استطاع تحقيق نجاح باهر كطبيب. كانت كلّ الدّعامات موجودة بتصرّفه، المعطف الأبيض، الحقيبة السّوداء، المسماع، ميزان الحرارة، وقد استخدمها كلّها حتّى الرّمق الأخير. ولم يكن هناك أدنى ريب في أنَّ شكله كان شكل طبيب، غير أنّه بدأ يتصرّف بعد فترة كطبيب فعليّ أيضاً. ولقد كان هذا هو الجزء المذهل في الأمر. ففي البداية شعرت بحقد حيال هذا التحوّل، ولم أشأ الاعتراف بأنَّ ڤيكتوريا كانت محقّة، غير أنّه كان عليّ في النّهاية أن أستسلم وأتقبّل الوقائع. واستجاب النّاس لسام. كان لديه أسلوب مميّز في الاستماع إليهم، وقد جعلهم ذلك راغبين في الكلام، وكانت الكلمات تفيض من أفواههم فور جلوسه معهم. وتجربته كصحافيّ ساعدته ولا شكّ في هذا كلّه، إلاّ أنّه كان قد تشبّع الآن

بمقدارٍ آخر من الوقار، وبشخصيّة إنسان مطبوع على حبّ الخير، كما هي بطبيعة الحال شخصيّته، ولأنَّ النّاس وثقوا بذاك الشّخص فقد أخبروه قصصاً لم يكن قد سمعها من أيٍّ كان من قبل. لقد كان وكأنّه كاهن اعتراف، هكذا قال، وشيئاً فشيئاً بدأ يقدّر المكسب المتأتّي من تمكّن النّاس من التّعبير، من تفريغ أعبائهم، والتّأثير المريح النّاتج عن الكلام، عن إفلات الكلمات الّتي تروي ما جرى لهم.

كان الإغراء يتمثّل حسب ظنّي في أن يبدأ هو بتصديق دوره، ولكن سام استطاع البقاء على مسافة منه. فكان ينكّت بخصوصه في الجلسات الخاصّة، وفي النّهاية طلع بمجموعة جديدة من الأسماء لنفسه، الدّكتور شموئيل فار، دكتور كواكينغشام، دكتور بانك. بيد أنّي حدست من وراء مزاحه بأنَّ الوظيفة كانت تعني له أكثر بكثير ممّا كان راغباً في الاعتراف به. إنَّ وضعه كطبيب قد فتح له فجأة نافذة إلى أفكار الآخرين الحميمة، وقد أمست هذه الأفكار الآن جزءاً من هويّته. واتّسع عالمه الدّاخلي، فأمسى أشدّ ثباتاً وأكثر قابليّة لاستيعاب الأشياء الّتي كانت توضع فيه. قال لي مرّة: «من الأفضل أن لا يتوجّب عليّ أن أكون نفسي. ولو لم يكن لديّ ذلك الشّخص الآخر لأختبئ وراءه ـ ذاك الّذي يرتدي معطفاً أبيض، وعلى وجهه سيماء ودّية، لما كان في مقدوري تحمّل الأمر على ما أظنّ. ففي وسع هذه القصص تحطيمي. وكما هو الأمر الآن فإنّي أستطيع الاستماع إليها، ووضعها في مكانها المناسب، إلى جانب قصّتي الشّخصيّة، إلى جانب قصّة الذّات الّتي ما عدت بحاجة لأن أكوّنها مادمتُ أستمع إليهم».

حلّ الرّبيع باكراً تلك السّنة، ومع منتصف آذار أزهرت الزّعفرانات في الحديقة الخلفيّة، سويقات صفراء وقرمزيّة نتأت من الحفافي المعشوشبة، وكان الأخضر المتبرعم يختلط ببرك الوحول

الجافّة. وحتّى اللّيالي كانت دافئة إذّاك، وكنّا أنا وسام نقوم أحياناً بنزهة صغيرة داخل الحديقة المسيّجة قبل عودتنا إلى الشقّة. كان خروجنا لتلك الدّقائق القليلة أمراً طيّباً، إذ كانت نوافذ العمارة معتمة وراءنا، والنّجوم تحترق بوهن من فوقنا. وفي كلّ مرّة كنّا نخَرج للقيام بنزهة من تلك النّزهات الصّغيرة، كنت أشعر أنّي أغرم به من جديد، وأزداد عشقاً له في العتمة وأنا متشبّثة بذراعيه ومتذكّرة ما كان من أمرنا في البداية، في الماضي أيّام الشّتاء الفظيع، حين كنّا نعيش في المكتبة، وننظر كلّ مساء عبر النّافذة الكبيرة الشّبيهة بالمروحة. ولم نَعُدْ قطّ نتحدّث عن المستقبل. ولا عدنا نخطّط أو نتحدّث عن العودة إلى الدّيار. كان الحاضر يستهلكنا الآن كلّياً، ومع العمل الّذي كان يتوجّب القيام به يوميّاً، ومع كلّ الإنهاك الّذي كان يتبعه، لم يكن يتوفّر لنا أيّ وقت للتّفكير في أيّ شيء آخر. كان ثمّة توازن شجيّ لهذه الحياة، غير أنّ هذا لم يجعلها بالضّرورة سيّئة، وأحياناً كنت أجد نفسي سعيدة تقريباً بعيشها، وبمجاراة الأمور كما هي بالتّمام.

ما كانت تلك الأمور لتستمرّ بالطّبع. كانت وهماً، تماماً كما كان بوريس ستيبانوفيتش قد نعتها، وكان من المستحيل أن يوقف أيّ شيء حدوث التحوّلات. ومع نهاية شهر نيسان بدأنا نحسّ بالمأزق. وفي النّهاية انهارت فيكتوريا وشرحت لنا الوضع، وقمنا بعدها بالتقشّف الضّروري في كلّ المجالات على التّوالي. ألغينا أوّلاً جولات نهار الأربعاء. وقرّرنا أن لا طائل في صرف المال على السيّارة. فقد كان النّفط باهظ الثّمن وكان هناك عددٌ كافٍ من النّاس بانتظارنا أمام البوّابة فلا حاجة للخروج بحثاً عنهم. هكذا اقترحت فيكتوريا، وحتّى فريك لم يعارض في ذلك. وبعد الظّهيرة تلك بالذّات خرجنا

لجولتنا الأخيرة عبر المدينة، وكان فريك وراء المقود وويلي إلى جانبه وكنّا أنا وسام في المقعد الخلفيّ. وقد جلنا عبر الجادات الرئيسيّة، وكنّا نلج من حين إلى آخر أمكنة في الجوار ملقين نظرة هنا أو هناك، وشاعرين بالخبطات، وفريك يلتوي بالسيّارة منعطفاً حول الحفر والشّقوق. ولم يتلفّظ أيّ منّا بالشّيء الكثير. وكنّا نراقب فقط المشاهد الّتي نمرّ بها، وأظنّ أنّنا كنّا متهيّبين بعض الشّيء لأنّ ذلك لن يحدث البتّة مجدّداً، ولأنّ هذه كانت المرّة الأخيرة، وسرعان ما أمسى الأمر وكأنّنا ما عدنا حتّى ننظر، كنّا جالسين فقط على مقاعدنا، ويخالجنا ذاك اليأس الشّاذ النّاتج عن تجوالنا الدّائري. وضع فريك بعد ذاك السيّارة في المرآب وأقفل الباب، ولست أظنّ أنّه أعاد فتحه على الإطلاق مذّاك. وإذ كنّا معاً في الخارج ذات مرّة، داخل الحديقة، فقد أشار إلى المرآب في المقابل وابتسم ابتسامة عريضة لا أثر فيها للأسنان، وقال: «إنّها أشياء تراها حين تغيب كلّياً. قولي وداعاً ثمّ آنسيْ. إنّها التّاعة في الرّأس الآن. تومض، أتفهمين، وتتوارى. تتوهّج ثمّ تُنسى».

جاء بعدها دور الثّياب ـ كلّ الصَدَقات الّتي كنّا نقدّمها للنّزلاء، القمصان والأحذية، السّترات والبناطيل، القبّعات والقفّازات القديمة. وكان بوريس ستيبانوڤيتش قد ابتاع هذه الأشياء بالجملة من تاجر في المنطقة السكنيّة الخامسة، ولكنّ ذاك الرّجل كان قد أفلس الآن، بل إنّ ما حدث في الواقع هو أنّ جمعيّة قطّاع الطّرق وعملاء التّرميم قد سلبوه تجارته، ونحن كذلك فقدنا من جهتنا القدرة على شراء أيّ ملبوسات. لقد كان شراء الملبوسات يستهلك حتّى في الأيّام السِمان ما بين ثلاثين أو أربعين بالمئة من ميزانيّة مأوى ووبرن. والآن وقد أقبلت أخيراً الأيّام العجاف، لم يكن لدينا أيّ خيار غير حذف

هذه المصاريف من حساباتنا. وقد بدأت ڤيكتوريا حملة دعتها «الرّتق الضّميريّ»، وأخرجت من المستودع أنواعاً مختلفة من ماكينات الخياطة، الأبر، بكرات، الخيطان، رقع الثّياب، الكشتبانات، بيض الرّتق، إلخ... وقامت بكلّ ما تستطيعه لترميم الثّياب الّتي كان يرتديها النّزلاء قبل دخولهم مأوى ووبرن. كانت الفكرة الأساسيّة هي توفير أكثر ما يمكن من المال من أجل الطّعام، ولمّا كان هذا هو الأهمّ، أهمّ ما يمكن أن يقدّم على الإطلاق إلى النّزلاء، فقد وافقنا جميعاً على صحّة هذه المقاربة. وعلى الرّغم من هذا لم يتوقّف تفريغ غرف الطّابق الخامس من محتوياتها، ولا حتّى الموادّ الغذائيّة استطاعت مقاومة تآكلها ونفادها. واختفت المواد الواحدة بعد الأخرى، السُّكّر، الملح، الزبدة، الفاكهة، قطع اللّحم الصّغيرة الّتي كنّا نخصّ بها أنفسنا، كوب الحليب الحيني. وكلّما كانت ڤيكتوريا تعلن تقشّفاً جديداً، كانت ماغي ڤاين تقدّم لنا استعراضاً، فتلعب دور مهرّج إيمائي دامع يطرق رأسه بالجدار، مصفّقاً بذراعيه كما لو أنّه ينوي الطّيران. غير أنّ ذلك لم يكن نزهة لأيٍّ منّا. كنّا جميعنا قد كبرنا معتادين على توفّر ما يكفي من الطّعام، وقد سبّبت تلك الحرمانات صدمة موجعة لنظامنا الجسديّ. كان عليّ أن أفكّر في المسألة بكلّيتها من جديد ـ فماذا يعني أن أجوع، كيف يمكن أن أفصل مفهوم الطّعام عن مفهوم البهجة، كيف السّبيل إلى تقبّل المتوافر وعدم التّوق إلى المزيد. ومع انتصاف الصّيف انحدرت حِمْيتنا لتتألّف فقط من الحبوب المتنوّعة، النشاء، الخُضَر الجذريّة ـ كالجزر واللّفت والشّمندر. وحاولنا زرع الحديقة الخلفيّة، ولكنّ الحبوب كانت نادرة الوجود. وكلّ ما استطعنا زراعته كان بعض رؤوس الخسّ. وجعلنا ماغي ترتجل بأقصى ما أوتيت من مخيّلة، فكانت تغلي

مُعِدّة أصنافاً كثيرة من الحساء، وتعدّ ساخطة تلفيقاً من الفاصولياء والعصائبيّة، وتسكب زلابية في دوّامة من الطّحين الأبيض لتطلع في النّهاية كُراتٍ لزجة من العجين بحجم كامل الفم. وبالمقارنة مع ما كنّا نتناوله سابقاً فقد كانت هذه وجبات مخيفة، ولكنّها كانت على كلّ حال تبقينا على قيد الحياة. والمقيت في الأمر لم يكن في الواقع نوعيّة الطّعام، بل يقيننا بأنّ الأمور كانت تسير نحو الأسوأ. وشيئاً فشيئاً أخذ الفارق بين مأوى ووبرن وبقيّة المدينة يتضاءل أكثر فأكثر. كنّا نُبْتَلَع، ولم يكن أيّ منّا يعرف كيف يمكن تحاشي ذلك.

ثمّ اختفت ماغي. ففي أحدّ الأيّام، وبكلّ بساطة، لم تعد هناك، ولم نجد أيّ دليل يمكن أن يرشدنا إلى مكان توجّهها. ولا بدّ أن تكون قد غادرت ونحن نائمون في الطّبقات العليا، غير أنّ هذا يكاد يفسّر تركها وراءها كلّ أغراضها. فلو كانت نَوَت الهرب فمن الطّبيعي أن يخالجنا شعورٌ بأنّها كانت وضّبت على الأقلّ حقيبة لرحلتها. وأمضى ويلي يومين أو ثلاثة أيّام مفتّشاً عنها في المنطقة القريبة، ولكنّه لم يتمكّن من العثور على أيّ أثر، ولم يكن أيّ من الأشخاص الّذين سألهم عنها قد رآها. وتولّيت وويلي بعد ذلك واجبات المطبخ. وما إن بدأنا نتأقلم وعملنا حتّى وقعت حادثة أخرى. ففجأة، ومن غير أدنى إنذار، مات جدّ ويلي. وحاولنا أن نعزّي أنفسنا معتبرين أنّ فريك كان عجوزاً، في الثّمانين من العمر تقريباً كما قالت فيكتوريا، بيد أنّ ذلك لم ينفع كثيراً. مات أثناء نومه في ليلة من ليالي مطلع شهر تشرين الأوّل، وكان ويلي هو الّذي اكتشف الجثّة. استيقظ في الصّباح ورأى أنّ جدّه كان لايزال في الفراش، وعندما حاول بعدئذٍ إيقاظه شاهد مذعوراً سقوط الرّجل العجوز على الأرض. كان الأمر أشدّ قسوة على ويلي بالطّبع، غير أنّنا

عانينا كلّنا من موته، كلٌّ على طريقته. بكى سام وذرف دموعاً حارّة حين حدث ذلك، وامتنع بوريس ستيبانوڤيتش عن التكلّم مع أيٍّ كان طوال أربع ساعات من تلقّيه النبأ، وقد كان هذا بمثابة رقم قياسيّ له. ولم يكشف وجه ڤيكتوريا الكثير. غير أنّها مضت قدماً وقامت بعملٍ طائش، وأدركتُ كم كانت قريبة من اليأس الكامل. كان دفن الموتى أمراً منافياً كلّياً للقانون. وكان يتوجّب نقل كلّ الجثث إلى مراكز التحويل، ومن لا يذعن لهذا القانون يتعرّض لأقصى العقوبات: دفعُ غرامة قدرها مئتان وخمسون غلوطة، وكان يجب أن تُدفع في أثناء المثول أمام القضاء، وإلاّ فالنّفي الفوريّ إلى أحد معسكرات الأشغال الشاقّة في القسم الجنوبي الغربي من البلاد. وعلى الرّغم من كلّ ذلك، وفي غضون ساعة من علمها بموت فريك، أعلنت ڤيكتوريا أنّها تعتزم إقامة مأتم له في الحديقة بعد ظهر ذلك اليوم. وحاول سام أن يردعها عن الفكرة، لكنّها رفضت التزحزح. قالت: «لن يعرف أحد البتّة. وحتّى لو استطاعت الشّرطة أن تكتشف ذلك فإنّ الأمر لا يهمّ. يتوجّب علينا أن نقوم بما هو مناسب. وإن نحن سمحنا لقانون سخيف بالوقوف في طريقنا فسنكون مجرّد معدمين». لقد كان تصرّفاً طائشاً عديم المسؤوليّة تماماً، ولكن أعتقد أنّها كانت في العمق تقوم به من أجل ويلي. كان ويلي ولداً بدرجة ذكاء أقلّ من اعتياديّة، وكان في السّابعة عشرة من عمره لا يزال سجين عنفِ ذاتٍ لم تكن تفقه شيئاً من العالم المحيط بها. وكان فريك قد اعتنى به، وقام بالتّفكير عنه، وقاده عمليّاً عبر سبل الحياة. وبغياب جدّه المباغت لم يكن في المستطاع توقّع ما قد يحدث له. كان ويلي الآن بحاجة ماسّة إلى إيماءة منّا، إلى توكيدٍ واضحٍ ومسرحيّ بإخلاصنا، وإلى دليلٍ بأنّنا سنؤازره مهما كانت الظّروف.

كانت عمليّة الدّفن مخاطرة هائلة، ولكن حتّى في ضوء ما قد جرى، فأنا لا أعتقد أنَّ ڤيكتوريا كانت على خطأ في اتّخاذ ذلك القرار.

وقبل المأتم توجّه ويلي إلى المرآب، وفكّ البوق من السيّارة، وأمضى ما يقارب السّاعة ملمِّعاً إيّاه. كان واحداً من تلك الأبواق العتيقة الطرّاز كمثل تلك الّتي كنت تراها على درّاجات الأولاد، بيد أنّه كان أكبر حجماً وأشدّ أهميّة، كان له بوّاق من النّحاس الأصفر ومقبض من المطّاط الأسود تقريباً بحجم ليمونة كريب فروت. وحمل ستّة من النّزلاء جثّة فريك من المأوى إلى المقبرة، وما إن أنزلوه ومدّدوه على الأرض حتّى قام ويلي بوضع البوق فوق صدر جدّه، ليتأكّد من دفنه معه. وقرأ بوريس ستيبانوڤيتش بعدئذٍ قصيدة قصيرة كان قد كتبها للمناسبة، وجرف بعدها كلّ من سام وويلي التّراب مجدّداً إلى الحفرة. كانت جنازة بدائيّة إلى أقصى الحدود ـ لا صلوات، ولا ترانيم ـ بل مجرّد القيام بما هو كافٍ ووافٍ. لقد كان الجميع هناك في الخارج، كلّ النّزلاء، كلّ أعضاء الفريق العامل، وحين انتهى كلّ شيء كان معظمنا دامعين. ثمّ وضعت صخرة صغيرة فوق الموضع كعلامة له. وعدنا بعدها إلى داخل البناء.

حاولنا جميعنا بعدها أن نتغاضى عن تكاسل ويلي. كلّفته ڤيكتوريا بمسؤوليّات جديدة، وسمحت له حتّى بالوقوف كحارس حاملاً بندقيّة، فيما كنت أنا أجري المقابلات في الرّواق. وسعى سام جاهداً لحضنه تحت جناحه. فلقّنه كيف يحلق بشكل صحيح، وكيف يكتب اسمه كاملاً، وعلّمه الجمع والطّرح. واستجاب ويلي بشكل جيّد لذلك الاهتمام به. ولولا ضربة الحظّ التّعيسة لكان تأقلم وتحسّن وضعه تماماً على ما أظنّ. غير أنّه بعد حوالي أسبوعين من وفاة فريك

زارنا شرطيّ من مركز الشّرطة الرّئيسي. كان شخصيّة بلهاء المظهر، كليّ البدانة أحمر الوجه مرتدياً واحدة من البذلات النظاميّة الّتي كانت قد وُزِّعت أخيراً على الضبّاط في فرع الخدمات ذاك ـ سترة قصيرة حمراء فاقعة، بنطلون كالّذي لركوب الخيل أبيض، وجزمة سوداء من الجلد الأسود اللمّاع، وكپِّيّة منسجمة معها. كان يَصُرُّ في بذلته هذه السّخيفة، ولأنَّه أصرّ على دفع صدره ونفخه فقد راودني بالفعل أنَّه سوف يفرقع أزراره. طقطق كعبيه وحيّا حين فتحت الباب. ولربّما كنت طردته لولا البندقيّة الّتي كانت مدلاّة من فوق كتفه. قال: «هل هذا منزل ڤيكتوريا ووبرن؟». أجبت: «أجل، وغيرها كذلك». أجابني: «إذن تنحّي جانباً يا آنسة». ودفعني في سبيله وهو يدخل الرّدهة. «إنّ التّحقيق سيبدأ الآن».

سأوفّر عليك التّفاصيل. كان جوهر الموضوع أنَّ أحدهم كان قد وشى بالجنازة إلى الشّرطة، وتوجّهوا إلى هنا للتحقّق من الأمر. ولا بدّ أنَّه كان أحدّ النزلاء، غير أنَّ هذا كان فعل خيانة مذهلاً، ولم يكن لدى أيّ منّا الوكْد للسّعي إلى تبيان من كان. أحد ما كان حاضراً وقت الجنازة بدون أدنى ريب، وأُجبر بعدها على مغادرة مأوى ووبرن بعد انتهاء حصّته فتملّكته ضغينة بسبب إرجاعه إلى الشّوارع. كان هذا افتراضاً منطقيّاً، غير أنَّ هذا لم يعد بذي أهميّة. ربّما كانت الشّرطة قد رَشَت هذا الشّخص، ولربّما قام به لمجرّد الحقد. وأيّاً كانت الحالة فإنَّ تلك المعلومة كانت صحيحة مئة في المئة. واندفع الشّرطيّ إلى داخل الحديقة الخلفيّة وفي إثره مساعداه، وتفحّص السِّياج بدقّة بضع هنيهات، ثمّ أشار بالتّمام إلى البقعة الّتي كان قد تمّ فيها حفر القبر. وأمر بإحضار رفوش، وانكبّ المساعدان على الفور يحفران ويبحثان عن جثّة كانا يعرفان سلفاً أنّها هناك. قال

الشّرطي: «إنَّ هذه مخالفة سافرة للقانون. أنانيّـة القيام بـدفن جثّة في هذا النّهار والعصر. تصوّروا وقاحة هذا. سوف يُقضى علينا من غـير جثث للحرق، هذا مؤكّد، سندمَّر كلّنا. من أين سنحـظى بالـوقود، وكيف سنبقى على قيد الحيـاة؟ في زمن الطّوارئ الـوطنيّة هـذه، يجدر بنـا أن نكون جميعنـا محترسـين. لا ينبغي أن نوفّـر جثّة واحـدة، وأمّا أولئـك الّذين يعـتزمون تخـريب هذا القـانون فـإنّه يتـوجّب معاقبتهم بدون تردّد. إنّهم شرّيـرون من الصنف الأسوأ، مجـرمون غـدّارون، حثالة المجتمع، خونة. إنّه ينبغي استئصالهم ومعاقبتهم.

كنّـا جميعنا في الحـديقة آنـذاك، وتحلّقنا حـول القبر فيـما كان هـذا الأحمق يهذر بملاحظاته الشّريرة البلهاء تلك. وكان وجه ڤيكتوريا قـد شحب، ولو لم أكن هناك لإسنادها لكانت انهارت ساقطة على الأرض عـلى ما أظنّ. وإلى الجـانب الآخـر من الحفـرة المستـطيلة كـان سـام يراقب ويلي بـانتباه. كـان الصبيّ دامعاً، فيـما كان مسـاعدا الشّرطي يتـابعان حفـر الأرض ورمي التّراب بـلامبـالاة عـلى الأجمـة، ثمّ راح يبكي قـائـلاً بصـوت مـرتعب: «إنّ هـذا تـراب جـدّي. لا يجب أن ترموه. إنَّ هذا التّراب ملك لجـدّي». كان صـوته مـرتفعاً جـدّاً، إلى درجة أنّ الشّرطي اضطرّ إلى التوقّف وسط خطبته ليرمق بعـدها ويـلي مغتبطاً فيما بدأ يحرّك ذراعه باتّجاه بندقيّتـه. أطبق سام قبضتـه على فم ويـلي، وجعل يجرّه باتّجـاه المأوى، جـاهداً للسّيـطرة عليه، فيـما راح الصّبي يتلوّى ويركل طـوال الطّريق عـبر المرجـة. خلال هـذا الوقت انـطرح عدد من النّـزلاء عـلى الأرض وأخـذوا يـرجـون الشّرطي أن يصدّق أنّهم أبرياء. كانوا لا يعلمون شيئاً عن هذه الجـريمة الشّنيعـة، لم يكونوا هناك حين حدثت، ولو أنّ أحداً أطلعهم على حصـول هذه الأفعال المنافية للقانون لما كانوا قبلوا البتّة بالإقـامة هنـا، ولقد أمسـوا

جميعهم سجناء رغماً عنهم. جعلوا يتذلّلون من غير توقّف، وكان المشهد عبارة عن اندلاع جماعيّ للجَبانة. أحسستُ بقرفٍ شديدٍ ورغبت في أن أبصق. وكانت امرأة عجوز تدعى بولا ستانسكي قد انقضّت بالفعل على جزمة الشّرطي وراحت تقبّلها. وقد حاول أن يدفعها عنه، ولكنّها حين امتنعت عن إفلاته، ركلها بمقدم الجزمة على بطنها ورمى بها لتتلوّى وتئنّ مطلقة نشيجاً ككلب أشبع ضرباً. ولحسن حظّنا جميعاً اختار بوريس ستيبانوفيتش التدخّل في اللّحظة المناسبة تماماً. فتح النّوافذ الفرنسيّة القائمة في مؤخّر المأوى وقفز بحيويّة من هناك إلى المرجة، وتقدّم مُسرعاً باتّجاه الهرج والمرج، وفي وجهه نظرة ساكنة بل منذهلة إلى حدٍّ ما. وكان تصرُّفه إذّاك وكأنّه شهد هذا المشهد مئة مرّة من قبل، وما كان يمكن أن يهزّه أيّ شيء، لا الشّرطة، ولا البنادق، ولا شيء البتّة. كانوا ينتشلون الجثّة من الحفرة حين انضمّ إلينا، ثمّ طرحوا البائس فريك على العشب، كان رأسه بلا عينين، ووجهه ملطّخاً بالتّراب، فيما حشد من الديدان يتلوّى داخل فمه. ولم يكلّف بوريس نفسه حتّى عناء الالتفات إليه. تقدّم مباشرة نحو الشّرطي ذي الزّي الأحمر، وخاطبه داعياً إيّاه الجنرال، ثمّ تابع مصطحباً إيّاه لينفرد به. ولم أسمع ما قالاه غير أنّي استطعت أن ألاحظ أنّ بوريس لم يكد يتوقّف لحظة واحدة عن هزّ رأسه موافقة، وعن شدّ حاجبيه وهما يتحدّثان. وفي النّهاية أخرج لفيفة أوراق ماليّة من جيبه، ثمّ راح ينتزعها الواحدة تلو الأخرى من اللّفيفة، ليضع بعدها كلّ المال في يدّ الشّرطي. ولم أفقه معنى ذلك، ولا ما إذا كان بوريس قد دفع الغرامة، أو كان قد عقد اتّفاقاً جانبيّاً مع الشّرطي ـ لكنّ ذلك كان حدود الصّفقة، تبادل قصير وسريع للنّقد، وتمّت العمليّة. حمل المساعدان جثّة فريك عبر المرجة، ثمّ عبر

المأوى، ومن هناك إلى الخارج حيث قذفاها إلى مؤخّر شاحنة كانت متوقّفة في الشّارع. وخطب فينا الشّرطي مرّة جديدة من على الدّرج، ثمّ ألقى علينا التّحيّة الأخيرة، وطقطق بكعبيه، وتوجّه منحدراً نحو الشّاحنة طارداً النّظارة المتسخين بنقرات قليلة من يده. وما إن انطلقت بهم الشّاحنة حتّى عدوت عائدة إلى الحديقة لأبحث عن بوق السيّارة. وخطر لي أن ألمّعه مجدّداً وأعطيه لويلي، غير أنّي لم أستطع إيجاده. حتّى إنّي نزلت في القبر المحفور لأرى إن كان هناك، ولكنّه لم يكن. فمثل أشياء كثيرة قبله اختفى البوق من غير أن يترك أدنى أثر.

نجت أعناقنا لفترةٍ قصيرة. فلن يُزجّ أيّ منّا في السّجن على كلّ حال، ولكنّ الدّراهم الّتي كان بوريس قد نثرها على الشّرطي أنهكت احتياطيّنا بشكلٍ بالغ. وبعد ثلاثة أيّام من نبش جثّة فريك وإخراجها من القبر بيعت الموجودات الأخيرة في الطّابق الخامس، فتّاحة رسائل مطليّة بالذّهب، طاولة من خشب الماهوغاني، ستائر زرقاء بنفسجيّة كانت معلّقة على النّوافذ، وجمعنا بجهد بعد ذلك بعض المال الإضافيّ ببيع كتب من المكتبة في الدّور الأسفل. رفّان من مؤلّفات ديكنز، خمس مجموعات لشكسبير (كانت إحداها من القياس الضّئيل ٣٨ سم، لا يزيد حجم الكتاب فيها عن راحة اليد)، كتاب لجاين أوستن، وآخر لشوبنهاور، ونسخة مزدانة بالرّسوم لرواية دون كيشوت، غير أنّ أسعار الكّتب كانت هابطة في السّوق وقتذاك، ولم نكسب منها غير اليسير القليل. ومذّاك أخذنا نعيش على نفقة بوريس. فقد كان مخزونه من الأغراض أكبر من أن يكون لامتناهياً، بيد أنّنا لم نخدع أنفسنا بالاعتقاد بأنّه سيدوم وقتاً مديداً. ومنحنا أنفسنا مهلة ثلاثة أشهر أو أربعة كحدٍّ أقصى. ولمّا كان الشّتاء مقبلاً من جديد فقد أدركنا أنّها قد تكون أقلّ من ذلك.

لو أقفل مأوى ووبرن يومئذٍ بـالذّات لكـان ذلك تصرّفـاً منطقيّـاً. وقد حاولنا أن نقنع ڤيكتوريا بذلك، غـير أنّه كـان من الصّعب عليها القيام بتلك الخطوة، وتبع ذلك أسابيع من الارتباك. وعندمـا بدا أنّ بوريس يوشك أن يقنعها، أفلت منها القرار، وأفلت من أيدينا كلّنا. وأقصد هنا ويلي. فبالإدراك المؤخّر بدا محتـوماً كلّيـاً أنّ الأمور كـانت ستؤول إلى ذلـك، غـير أنّي سـأكـون كـاذبـة إذا قلت لـك إنّ أحـداً استـطاع الحدس بـوقوع الأمـر. كنّا جميعنـا غارقـين حتّى رؤوسنـا في مهامنا، وحين حدث الأمر في النّهاية، كان كمثل صاعقة من السّماء، مثل انفجار من أعماق الأرض.

بعد انتشال جثّة فريك وإبعادها، لم يعد ويلي في الواقع هو نفسَه، وقـد تـابـع القيـام بعمله، ولكن بصمت، وفي عُـزلـة من الحملقـة المذهولـة واللّامبـالاة. فما إن كنّـا ندنـو منه حتّى كـانت عيناه تتّقـدان عدائيّة وغيظاً، حتّى إنّه دفع يدي مرّة عن كتفه، كما لو أنّه كان ينوي إيذائي إذا أنا كرّرت القيام بذلك. وإذ كنّا نعمل معاً كما في السّابق، ويوميًّا، في المطبخ، فقد أكون قضيت معه من الوقت أكثر ممّا فعل أيّ شخص آخـر. لقد بـذلت قُصارى جهـدي للمساعـدة، غـير أنّي لا أعتقـد أنّ أيّ شيء قلته استـطاع النّفـاذ إليـه. وكنت أقـول لـه: إنّ جدّك بحال حسنة يا ويلي. إنّه في الجنّة الآن، والّذي يحصـل لجسمه غير مهم. إنّ روحه حيّة، ولن يكون راغباً في أن تقلق بشأنه هكذا. وليس بمقـدور أيّ شيء أن يؤذيه. إنّـه سعيـد حيث هـو الآن، وهـو يريدك أن تكون سعيداً أيضـاً. وخالجني شعـور بأنّني أمٌّ تحاول شرح مسألة الموت لولـدٍ صغير، وكنت أتلفّظ بـذاك اللّغو المتعجـرف الّذي كنت أسمعه من والديّ. غير أنّ ما قلته كان غير ذي نفع لأنّ ويلي لم يكن يأبه لأيّ منه. لقد كان رجلًا قبتاريخيّاً، وردّة فعله الوحيدة على

الموت كانت في عبادة سلفه الرّاحل، في أن يعتبره إلهاً، ولقد أدركت ڤيكتوريا ذلك بالحدس. فموضع مقبرة فريك كان قد أمسى أرضاً مقدّسة بالنِّسبة لويلي، وها قد انتهكت قدسيّتها الآن. وانسحق نظام الأشياء، ولم يكن لأيّ كمٍّ من كلام أقوله أن يعيد ترتيب الأمور.

بدأ يخرج بعد العشاء، وكان نادراً ما يعود قبل السّاعة الثّانية أو الثّالثة من الصّباح. وكان يستحيل أن نعرف ما كان يفعل هناك في الشّوارع، إذ إنّه ما كان يتحدّث عن ذلك البتّة، ولم يكن هناك أيّ مجال لتوجيه أيّ سؤال إليه. وذات صباح لم يرجع أبداً. وظننت أنّه قد يكون غادر إلى الأبد، ولكن بعد ذاك، بعد الغداء بالضّبط، دخل المطبخ من غير أن يتفوّه بحرف، وبدأ يقطّع الخُضَر وكأنّه يتحدّاني ليجبرني على التأثّر بغطرسته. كان الوقت إذّاك أواخر شهر تشرين الثاني، وكان ويلي قد أفلت مدوّماً في مداره؛ كان نجمة تائهة من غير مسار محدَّد. ولم أَعُدْ أعتمد عليه للقيام بحصتّه من العمل. وحين كان يحضر، كنت أقبل مساعدته وإذا غاب قمتُ أنا نفسي بالعمل. ومرّةً ظلَّ غائباً مدّة يومين، وفي مرّة أخرى ثلاثة أيّام. وقد حملتنا هذه الغيبات الّتي كانت تطول تدريجيّاً على الاعتقاد شيئاً فشيئاً بأنّه كان يبتعد عنّا بشكلٍ من الأشكال. وخالجنا شعور بأنّه عاجلاً أو آجلاً سوف يحلّ وقت ولاً يكون فيه معنا إلى الأبد، وبالطّريقة الّتي توارت فيها ماغي ڤاين تقريباً. وكنّا وقتذاك منشغلين إلى درجة كبيرة، وكان تدافعنا المذعور لإنقاذ سفينتنا المتصدّعة من الغرق منهكاً للغاية، وكان واحدنا ينزع إلى عدم التّفكير في ويلي عندما لا يكون في الجوار. وفي المرّة التّالية غاب ستّة أيّام، وأعتقد أنّنا شعرنا جميعاً آنذاك بأنّه غادر نهائيّاً. ثمّ استفقنا جميعاً مذعورين في وقتٍ متأخرٍ من إحدى ليالي الأسبوع الأوّل من شهر كانون الأوّل على زعيق وتحطيم

مريع في الغرف السفليّة. وكانت ردّة الفعل الأوّليّة أنّنا اعتقدنا بأنّ أشخاصاً من الصّفّ في الخارج قد اقتحموا المأوى، غير أنّه في اللّحظة الّتي وثب فيها سام من فراشه وانتشل البندقيّة الّتي كنّا نبقيها في غرفتنا، اندلع صوت مدفع رشّاش في الأسفل. دويٌّ هائل ورشقات رصاص تبعها المزيد ثمَّ المزيد. وسمعت أناساً يصرخون، وأحسست بالبناء يهتزّ بفعل خَطْوهم، ثمّ سمعت المدفع الرشّاش يمزّق الجدران والنّوافذ والأرضيّات المشظّاة. وأشعلت شمعة وتبعت سام إلى أوّل السلّم، متوقّعة بيقين رؤية ضابط الشّرطة أو أحد رجاله، واستعددت للّحظة الّتي سأنفجر فيها مدمّاة. وكانت ڤيكتوريا قد أسرعت نازلة أمامنا، ولم تكن، بقدر ما استطعت التبيّن، مسلّحة. ولم يكن مُطلِق النّار هو الشّرطيّ بالطّبع، رغم أنّي لم أشكّ قطّ في أنّ البندقيّة كانت بندقيّته. إنّه كان ويلي عند منبسط درج الطّبقة الثّانية، قادماً إلينا حاملاً بيديه السّلاح. كانت شمعتي بعيدة جدّاً ليتسنّى لي مشاهدة وجهه، غير أنّي رأيته يتوقّف عندما لمح ڤيكتوريا متّجهة نحوه. وانبرت قائلة: «هذا يكفي يا ويلي، ارمِ البندقيّة، ارمِ البندقيّة فوراً». لست أعرف إذا كان في نيّته إطلاق النّار عليها، لكن ما جرى في الواقع هو أنّه لم يَرْمِها. كان سام يقف إلى جانب ڤيكتوريا عندئذ، وبعد لحظة من تلفّظها بتلك الكلمات، قام بضغط زناد بندقيّته. وأصابت الطّلقة ويلي في صدره، وفجأة اندفع طائراً إلى الخلف، ليتدحرج بعدها فوق الدّرجات ويصل إلى أسفلها وأعتقد أنّه مات قبل وصوله إلى هناك، مات حتّى قبل أن يدرك أنّ النّار أُطلقت عليه.

كان ذلك منذ ستّة أسابيع أو سبعة. ومن النّزلاء الثّمانية عشر الّذين كانوا يعيشون هنا في تلك الأيّام، لقي سبعة مصرعهم، وقُدِّر

لخمسة الفرار، وجرح ثلاثة، وسلِمَ ثلاثة. والسيِّد هسيا الوافد الجديد الَّذي كان قد عرض أمامنا ألاعيب بورق اللَّعب قبل ليلة، توفِّي متأثِّراً بجراح رصاصة عند الحادية عشرة في الصَّباح التَّالي. . وتعافى السيِّد والسيِّدة روزنبرغ بعد أن اعتنينا بهما طوال أكثر من أسبوع؛ وما إن تحسّنت صحّتهما إلى درجة تسمح لهما بالمشي مجدّداً حتّى طردناهما. وكانا آخر نزلاء مأوى ووبرن. في الصّباح الّذي تلا الكارثة وضع سام لافتة وسمّرها على الباب الأماميّ، «مأوى ووبرن مقفل». ولم يغادر النّاس الّذين كانوا في الخارج على الفور، غير أنّ الطّقس غدا بعدئذ بارداً جدّاً، وإذ مضت الأيّام ولم يفتح الباب فقد بدأت الحشود تتشتّت. ومانزال جالسين مذّاك في الدّاخل نخطّط لما سنقوم به تالياً، ومحاولين البقاء على قيد الحياة حتّى الشّتاء المقبل. سام وبوريس يمضيان قسماً من كلّ يوم خارج المبنى في المرآب، لاختبار ما إذا كانت السيّارة تعمل بانتظام. فالخطّة تقضي بأن ننطلق بالسيّارة مغادرين هذا المكان ما إن يصبح الطّقس دافئاً. بل إنّ ڤيكتوريا تقول إنّها مستعدّة للذّهاب، لكنّي غير متأكّدة ممّا إذا كانت تعني ذلك فعلاً. وأعتقد أنّنا سوف نتأكّد من ذلك عندما يحين الوقت. وممّا يظهر من سلوك السّماء طوال السّاعات الاثنتين والسبعين الماضية، فإنّي لا أعتقد أنّه يتوجّب علينا أن ننتظر بعدُ كثيراً.

بذلنا ما في وسعنا لتدبّر أمر الجثث وإصلاح الأضرار وإزالة الدّماء. ولا أريد أن أقول أيّ شيء أكثر من ذلك. وعندما انتهينا كان الوقت بعد ظهيرة اليوم التّالي. وصعدنا أنا وسام لأخذ سِنَة من النّوم. ولكنّي لم أستطع أن أغفو، بينما نام سام على الفور. وإذ لم أكن راغبة في إزعاجه فقد نهضتُ من السّرير واقتعدت الأرض في ركن الغرفة. واتّفق أنّ حقيبتي القديمة كانت ممدَّدة هناك، وبدون أيّ

سبب خاصّ جعلت أنقّب فيها. وكان أن اكتشفت مجدّداً الدّفتر الأزرق الّذي كنت قد ابتعته لإيزابيل. وكانت الصّفحات الأولى منه مكسوّة برسائلها، تلك الملاحظات الصّغيرة الّتي كانت قد كتبتها لي في آخر أيّام مرضها. وكانت معظم الرّسائل بسيطة جدّاً ـ أشياء مثل، «شكراً»، أو «ماء» أو «حبيبتي آنا»، ولكنّي حين رأيت تلك الكتابة الضّعيفة الكبيرة على الصّفحة، وتذكّرت كم عانت من مشقّات لإيضاح الكلمات، لم تَعُدْ تلك الرّسائل البسيطة تبدو بسيطة على الإطلاق. وتذكّرت، واندفعت إليّ آلاف الأشياء مرّة واحدة، من غير أن أتوقّف حتّى لأفكّر فيها؛ وانتزعت بصمت تلك الصّفحات من الدّفتر، وطويتها في مربّعات مرتّبة، وأعدتها مجدّداً إلى الحقيبة، متناولة بعدها أحد الأقلام الّتي كنت قد ابتعتها من السيّد غامبينو منذ زمن طويل؛ وأسندت الدّفتر إلى ركبتي وبدأت كتابة هذه الرّسالة.

واظبت عليها مذّاك من غير توقّف، مضيفة مزيداً من الصّفحات كلّ يوم، محاولة أن أدوّن لك كلّ ما جرى. وكنت أتساءل أحياناً عمّا إذا لم أكن قد نسيت أشياء كثيرة، وكم ضاعت منّي أشياء ولا سبيل البتّة إلى استعادتها، غير أنّ هذه أسئلة لا يمكن الإجابة عليها. إنّ الوقت يداهمنا الآن، ولا يجدر بي أن أبدّد أيّة كلمات إضافيّة غير الّتي أحتاجها. وكنت في البداية قد اعتقدت أنّ الأمر لن يستغرق وقتاً طويلاً ـ بضعة أيّام فقط لأقدّم لك الجوهريّات، ويكون ذلك نهاية الأمر. وها هوذا الدّفتر ملآن تقريباً برمّته، حتّى إنّي استخدمت بعض غلافه. وهذا يفسّر سبب تضاؤل خطّي أكثر فأكثر كلّما تقدّمت في الكتابة. كنت أعمل محاولة جمع كلّ شيءٍ فيه. محاولة إدراك النّهاية قبل أن يفوت الأوان، بيد أنّي أرى الآن إلى أيّ حدٍّ بائس خدعت نفسي. إنّ الكلمات لا تعبّر عن أشياء كهذه. فكلّما ازددت اقتراباً من

النِّهاية تضاعف ما تريد قوله. إنَّ النِّهاية متوهَّمة فقط، إنّها هدف تبتدعه كحافزٍ لتتابع، غير أنَّه يأتي وقت تدرك فيه أنَّك لن تبلغها البتّة. وقد يتوجّب عليك التوقّف، غير أنَّ ذلك سيكون فقط لأنّه داهمك الوقت. تتوقّف ولكن ذلك لا يعني أبداً أنّك أدركت النِّهاية.

تغدو الكلمات أصغر فأصغر، صغيرة إلى درجة أنَّها قد تمسي غير مقروءة. إنَّها تجعلني أفكّر بفرديناند وسفنه، بأسطوله اللّيليبوتي من السّفن المبحرة والسّكونات. الله وحده يعلم ما الّذي يدفع إصراري. ولست أرى أيّ سبيل إلى وصول هذه الرّسالة إليك. إنّها كالهتاف في الفراغ، كالصّراخ في فراغ شاسع ومريع. وحين أفسح لنفسي بعدئذ برهة تفاؤل، أرتعد مفكّرة بالّذي يمكن أن يحصل إذا انتهى بها الأمر بين يديك. سوف تذهلك الأشياء الّتي كتبتها، سوف تقلق حتّى السّقم، وسترتكب الغلطة الّتي كنت أنا قد ارتكبتها. أرجوك لا تفعل، أتوسّل إليك. إنّي أعرفك تمام المعرفة لأدرك أنّك ستفعل ذلك. إن كان لايزال في قلبك أيّ حبّ لي، أرجوك لا تنخدع وتسقط في ذلك الفخّ. ليس بمقدوري تحمّل فكرة القلق عليك، أو التّفكير بأنّك تتسكّع في هذه الشّوارع. يكفي أنّ واحداً منّا قد ضاع. المهمّ هو أن تبقى حيث أنت، أن تتابع موجوداً هناك من أجلي وفي ذهني. أنا هنا وأنت هناك. هذا هو عزائي الأوحد هنا، ولا ينبغي أن تقوم بأيّ شيء يدمّره.

من جهة ثانية فإنّه حتّى لو وصلك في النِّهاية هذا الدّفتر، فلا شيء يجبرك بالتّأكيد على قراءته. فأنت لست ملزماً البتّة تجاهي، ولست أودّ أن يخالجني الإحساس بإنّي أجبرتك على القيام بأيّ شيء على الرّغم منك. حتّى إنّي أجد نفسي أحياناً آملة أن تؤول المسألة إلى تلك الخاتمة، إنّك لن تمتلك ببساطة الشّجاعة لأن تبدأها. وإنّي لأفقه

هذا التّناقض، غير أنّ هذا لا يمنع أن ينتابني ذلك أحياناً. وإذا كانت هذه هي حقيقة الوضع، فالكلمات الّتي أكتبها لك قد أضحت منذ الآن غير مرئيّة بالنِّسبة إليك. إن عينيك لن تراها البتّة، ولن ينشغل رأسك أو يحمل عبء ذرّة من الّذي قلته. وقد يكون هذا أفضل. غير أنِّي لا أعتقد أنِّي أرغب في أن تمزّق هذه الرِّسالة أو ترميها. وإن اخترت عدم قراءتها فقد يجدر بك أن تعطيها لأهلي عوضاً عن ذلك. وأنا متأكِّدة أنّهم سيرغبون في الحصول على الدّفتر حتّى لو لم يستطيعوا هم أيضاً قراءته. وقد يستطيعون وضعه في مكانٍ ما في غرفتي. فوق أحد الرّفوف الّتي فوق سريري مثلاً، إلى جانب دُمايَ القديمة وزيّ الباليرينا الّذي كان لي حين كنت في السّابعة ـ وهو أحد الأشياء الأخيرة الّتي تذكّرهم بي.

ما عدت أخرج كثيراً. فقط حين يأتي دوري للقيام بالتبضّع، ولكن حتّى عند ذاك يتطوّع سام عادة للحلول مكاني. لقد فقدت عادة الشّوارع الآن، وأمست التجوالات مصدر توتّر عظيم لي. وأظنّ أنّها مسألة توازن. فكلّما يضطرّني الأمر إلى السّير مسافة تزيد عن خمسين أو مئة ياردة، أحسّني أتمايل واهنة. ويخالجني مع كلّ خطوة شعور بأنّني سأسقط على الأرض. إنّ بقائي في الدّاخل أخفّ وطأة عليّ. وأنا أتابع القيام بمعظم الطهي، غير أنّه بعد أن كنت أعدّ الطّعام لعشرين أو ثلاثين شخصاً، لم يَعُد الطّهي لأربعة يعتبر شيئاً. إنّنا لا نأكل كثيراً على كلّ حال، فقط ما يكفي للجم جوعنا، فقط لا غير. إنّنا نسعى لادّخار دراهمنا من أجل الرّحلة، ولا يجدر بنا أن نخالف هذه الحِمْية. لقد كان هذا الشِّتاء بارداً نسبيّاً، وصقيعه كمثل صقيع الشِّتاء الفظيع، ولكن من غير العواصف الثّلجيّة المتواصلة والعواصف العاديّة. وقد استطعنا أن ندفِّئ أنفسنا باقتطاع أجزاء من

المأوى ودفعها في الأتـون. وكانت ڤيكتـوريا مـن اقتـرح ذلك، ولكن يتعذّر عليّ أن أقول إنْ كان هذا يعني أنّها تتطلّع إلى المستقبل، أو أنّها ببساطة قد فقدت الاهتمام. لقد انتزعنا الدرابزينات وهيـاكـل الأبواب الخشبيّـة والقواطـع. وكان ثمّـة متعة فـوضويّـة في القيام بـذلك أوّل الأمر، أن نفكّ ونقطّع بالفأس المنزل من أجل الوقـود ـ غير أنّ ذلـك أضحى الآن مجـرّد فعل مقيت. وقـد عريت معـظم الغـرف وأمست جـرداء، وكان يخـالجنـا إحسـاس بـأنّنـا نعيش في مستـودع بـاصـات مهجور، في حطام بناء قديم جاهز للتّدمير.

طوال الأسبوعين الفائتـين كان سـام يخرج كـلّ يوم تقـريباً ممشّـطاً المسافات المحيطة بالمدينة، مستكشفـاً الوضـع قرب الاستحكـامات، مـراقباً بـانتباه لـيرى مـا إذا كـان الجنـود يتكتّلون أو لا. وكـان لتلك المعرفة أهميّة كبرى عندما يحين الأوان. ويبدو حاليّاً أن خيارنا المنطقيّ هو استحكام فيدلر. إنّه الحاجـز القائم في أقصى غـرب المدينـة، وهو يؤدّي مبـاشرة إلى طريق تـوصل إلى المنـطقـة العـراء، بيـد أنَّ بـوّابـة ميللينيال الجنوبيّة أغرتنا أيضاً. فقد قيل لنا إنَّ هناك ازدحاماً أكبر عند الجهة الأخرى، ولكنّ البوّابة بالذّات غير محروسة بصرامة الاستحكام الغربي. والاختيار الأوحد الّذي أقصينـاه نهائيّاً إلى الآن هـو الشّمال. فمن الواضح أنّ هناك خطراً كبيـراً، واضطرابـاً واسعاً في ذاك القسم من البـلاد، وأنَّ النّاس يتحـدّثون منـذ بعض الـوقت الآن عن غـزوٍ ستقوم به جيوشٌ أجنبيّة تحتشد في الغابات وتستعدّ لـلانقضاض عـلى المدينة عندما يذوب الثّلج. وكنّا قد سمعنا هذه الإشاعـات من قبل، بـالـطّبـع، ومن الصّعب أن نعـرف أيّ شيءٍ نصـدّق. لقـد استـطاع بـوريس ستيبانـوڤيتش الحصول عـلى تراخيص لنـا بالسّفـر عن طريق رشوة الموظّفين الحكوميّين، غير أنّـه لايزال يمضي عـدداً من السّاعـات

كلّ يوم منسلاً حول أبنية البلديّة، آملاً في اكتشاف بعض فتات عن معلومة قد تكون مفيدة لنا. وإنّنا لمحظوظون لأنّنا حصلنا على تراخيص السّفر، غير أنَّ هذا لا يعني بالضّرورة أنّها ستكون فعّالة. قد تكون حزّورة، وسيُلقى القبض علينا في هذه الحال في اللّحظة الّتي سنقدّمها فيها إلى مراقب الخروج. أو أنّه يمكن أن يصادرها من دون سبب البتّة ويأمرنا بالعودة. فلقد سبق أن حدثت أمور كهذه، وينبغي أن نكون على استعداد لكلّ طارئ. ولهذا تابع بوريس الاستطلاع والتنصّت، غير أنّ الكلام الّذي يسمعه أكثر تشويشاً وتنافراً من أن تكون له أيّ قيمة محدّدة. وفي اعتقاده أنّ هذا يعني أنّ الحكومة ستسقط مجدّداً. وإن حدث هذا فعلاً فسوف نتمكّن من انتهاز فرصة الارتباك الآني الّتي ستلي، ولكن ليس من شيء واضح فعلاً في هذه النّقطة. لا شيء واضح، ونحن نتابع الانتظار. وفي هذا الوقت تقبع السيّارة في المرآب، محمّلة بحقائبنا وتسع تنكات غير متينة مملوءة بالوقود الاحتياطيّ.

انتقل بوريس ليسكن معنا منذ قرابة الشّهر. ولقد أصبح أنحل ممّا كان في السّابق، وإنّي أتبيّن من حين إلى آخر نظرات منهكة في وجهه، كما لو أنّه يعاني من مرضٍ ما. غير أنّه لا يشتكي البتّة، ولذا فإنّه من المستحيل أن أعرف ما هي المشكلة. جسديّاً، لا شكّ أنّه فقد بعضاً من نشاطه، ولكنّي لا أعتقد أنّ معنويّاته تأثّرت بذلك، وعلى الأقلّ ليس بطريقة واضحة. إنّ هاجسه الأساسيّ هذه الأيّام هو محاولة تصوّر ما الّذي سنفعله بأنفسنا عندما نغادر المدينة. إنّه يطلع بخطة جديدة كلّ صباح تقريباً، وكلّ واحدة أسخف من سابقتها. والأحدث بينها تتوّجها جميعاً، غير أنّي أعتقد أنّه يحبّذها في الخفاء. يريدنا نحن الأربعة أن نبتكر استعراضاً سحريّاً، ويرى أنّ في

مقـدورنا أن نجـول الأرياف في سيّـارتنا، ويتـابع بـأنّنا سنقـدّم هناك استعراضات مقابل الطّعام والمسكن. سيكون هو السّـاحر بـالطّبـع، وسيكون مرتدياً سترة تَكس سوداء، وقبّعة مرتفعة حريريّة. وأمّـا سام فسوف يكون النبّاح، وستكون ڤيكتوريا مديرة الأعـمال، وسأكـون أنا المساعدة، المرأة الشّابـة المغريـة الّتي ستتبختر قـرب السّاحـر في ثَرْثَـرة ضئيلة. وسوف أحمل للمايسترو أدواته في أثناء العرض، وللاستعراض الختاميّ سوف أتسلّق لأدخل صندوقـاً خشبيّاً وأُنْشَرُ قـطعتين. سـوف يتبع ذلك توقّف طويل هاذٍ ومهتاج، وبعدئذٍ، وفي اللّحظة المحـدّدة، وحـين يكون قـد فقد كـلّ أمل، سـوف أبـرز من الصّنـدوق سليمـة الأوصال، ملوّحة بالانتصار، ونافخة قبلات إلى الجمهور مع ابتسامـة مشرقة، مصطنَعَة فوق كلّ وجهي.

ونظراً لما قد ينتظرنا، فإنّه لأمر مبهـج أن نحلم بسخافـات كهذه. يبـدو ذوبان الثّلج وشيكـاً الآن، بـل هنـاك احتـمال بـأن نغـادر غـداً صباحاً. هكذا كانت الأمور حين تركناهـا قبل تـوجّهنا إلى الفِراش. فـإذا بدت السّـماء واعدة، انـطلقنا من غـير أيّ كلمـة إضـافيّـة. إنّ الوقت متقدّم جدّاً في اللّيل الآن، والرِّيح تعصف عبر شقوق المنزل. الجميع نيام الآن، وأنا جالسة على أرض المطبخ، محاولة أن أتخيّـل ما ينتـظرني. وإنّي لأعجـز عن تخيّله. فليس في وسعـي حتّى أن أبـدأ التّفكير بالّذي سيحدث لنا خارجاً هناك في العراء. كلّ شيء محتمل، وهـذا مساوٍ تقـريباً لـلاّشيء، مسـاوٍ تقـريبـاً للولادة في عـالمٍ لم يكن موجوداً أبداً من قبل. وقد نعثر على ويليام بعد مغادرتنا المدينـة، غير أنّي أحاول ألاّ آمل كثيراً. الشّيء الوحيد الّذي أطلبه الآن هو الفرصة لعيش يـومٍ واحدٍ آخـر. هنا آنـا بلوم، صديقتـك القديمـة من عـالم

آخر. وسوف أحاول عندما نصل إلى المكـان الّذي نقصـده أن أكتب إليك من جديد، أعدك.

ساندناه وتقدَّمنا به باتِّجاه زاوية السَّطح، وجعلت ركبتاه تلتويان وتنجرَّان، وفي الوقت الذي وصلنا فيه إلى هناك كان حذاءاه قد سقطا. ولم يملك أيّ منَّا الشَّجاعة الكافية للدّنوّ والالتصاق بالحافّة، ولهذا لم يكن بمقدورنا أن نكون أبداً واثقين من أنّه كان هناك أحدٌ ما في الشارع الأسفل ليرى ما قد حدث. كنَّا على قرابة ياردة من الحافّة، لا نجرؤ على التّقدُّم أكثر، وجعلنا نَعُدّ معاً لنواقت جهودنا، ثمَّ قمنا بدفع فرديناند دفعة عنيفة، وسقطنا متراجعتينْ توّاً كي لا يجرّنا زخم الدفعة معه. كان بطنه أوَّل ما اصطدم بالحافّة، وقد جعله هذا يتأرجح قليلاً، ثمَّ انقلب وسقط. وأذكر أنيِّ أصخت لأسمع صوت ارتطام جثّته وهي تحطّ على الرَّصيف. إلاَّ أنيِّ لم أسمع قطّ غير دقَّات نبضي، وهي تضجّ في رأسي. وكانت تلك آخر مرّة شاهدنا فيها فرديناند. لم تنزل أيّ منَّا إلى الشَّارع طوال ما تبقّى من النَّهار، وحين خرجت في الصَّباح التالي لأبدأ تجوالي بالعربة، كان فردينانـد قد اختفى مع كلّ ما كان يرتديه.



صمم الغلاف: نجاح طاهر



دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ - ٨٦١٦٣٣
ص.ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت